تأليف
سالم بن حمود السيابي

إيضاح المعالم في تاريخ القواسم

مراجعة
أحمد الدمري





حضرة صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي
حاكم رأس الخيمة وملحقاتها









سمو الشيخ خالد بن صقر القاسمي
ولي العهد ونائب الحاكم لامارة رأس الخيمة




الخليج العربي
مقياس الرسم : ١ إنچ = ٤٨ ميل
فارس
خليج عمان
الخليج العربي
عمان
الاحساء
« رأس مسندم »



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي أعان بتوفيقه وفضله على ايضاح المعالم وأرشد بعنايته وتأييده على اخراج تاريخ القوامم ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين من لدن أبينا آدم ، وعلى آله وصحبه الهداة العالم . وعلى التابعين لهم في ستر المكارم ، أما بعد : فان تاريخ القوامم وهم جمرة من الجمرات العمانية ، هو قطعة من التاريخ العماني العربي بلا مزاحم ، كما أن القوامم من رجال عمان البواسل الذين يمشون على معنى ما جاء عن سيدنا ونبينا أبي القاسم اذ يأمر بمعالي الأمور ، وينهى عن سفسافها، فكان القوامم الأبطال ممن يحاول الزعامة الكبرى لبناء مجد على جبهة الدهر بحدود الصوارم .

هذه الدراسة ،

نذكر فيها أشياء يتعلق بها كثير من الأمور بما نروم أن نضعه على هذه الصحايف وهو :

أولاً ـ التعريف بنسب القواسم من أي العناصر العربية العمانية

ثانياً ـ بدء تاريخهم العملي وموقعهم من القطر العماني ، وما يتعلق بذلك من الأحوال

ثالثاً ـ قوتهم العسكرية

رابعاً ـ الأحوال التي حاولوا بها الزعامة الكبرى ، وأعمالهم العصمى

خامساً ـ أعمالهم مع الايرانيين ومن إليهم وما يتعلق بذلك

سادساً ـ أعمالهم مع الدول الافرنجية ، ومن بينهم الانجليز وسائر رعاياها ، وما يتعلق بذلك من الحوادث

سابعاً ـ أعمالهم مع الوهابيين وما يتعلق بهم من أعمال ، إلى أشياء أخرى من حقائق التاريخ في الساحل العماني الشمالي ، وأعلم

لقد كنت عازماً على وضع تاريخ القوم في جملة التاريخ

العماني وأن أعطيه حقه كما هو اللازم لأن القواسم عمانيون رغم كل راغم حتى جاءني من تعز على مخالفته وتجمل بي موافقته أن أفصل تاريخ القواسم في كتاب مستقل ذلك الأمير الاجل الشيخ صقر بن محمد بن سالم القاسمي ، حاكم رأس الخيمة في هذا القطر العربي المجيد فاعتذرت له أولاً باعذار صحيحة الاسناد ثم رأيت بعد ذلك موافقته إحياء لمآثر الأمجاد العمانية ، فان كل قبيلة بعمان ذات مجد وشرف هو شرف لعمان . فها أنا أقول اظهاراً لأمجاد عمان مطلقاً ، ولأمجاد القواسم خصيصاً ، والله حسبي ونعم الوكيل ، نعم المولى ، ونعم النصير ، ونعم المعين ونعم الكفيل ، وذلك باهتمام الصديق المخلص الأخ أحمد التدمري مدير دائرة الاعلام والسياحة لحكومة رأس الخيمة وفق الله الكل للصالحات بإذنه ، اللهم أعن على الحق واهد للرشد .

سالم بن حمود السيابي

تقديم وتقريظ

بعونه تعالى شق هذا المؤلف القيّم طريقه إلى القارى الكريم بعد جهد كبير ، ومثابرة مضنية بذلها المعلم الجليل والقاضي العلامة ، والمؤلف الثبت ، فضيلة الشيخ سالم بن حمود السيابي ، الذي يعتبر ركنا وركيزة للعلم وموطناً للمعرفة ، وكاتباً محققاً للتاريخ ، وموئلاً للحجة والمكارم في قطرنا العماني الكبير .

ان اعداد هذه الدراسة « أيضاح المعالم في تاريخ القواسم » قد تطلب من المؤلف جهداً كبيراً في البحث والاستقصاء ، لمتابعة الأحداث ومحاولة النفاذ إلى خلفياتها ، والربط بين مدلولاتها ، لأنه مما يصعب الوصول إليه في الدراسة التاريخية لمس الحقائق الخالصة بين الروايات والمذكرات والوثائق باعتبار أن صفة الحياد في كتابة التاريخ قلما تتوفر ، لا سيما عندما يقوم بكتابة التاريخ أحد أطراف الصراع ، لأنه عند ذلك يكتبه من وجهة نظره وحده .

هذا هو الحال في تاريخ منطقة الخليج العربي عموماً ، إذ لم يتوفر لهذه المنطقة العزيزة من وطننا العربي الكبير من يؤرخ لاحداثها عند وقوعها ، ولهذا فاننا لا نجد اليوم إلا المصادر الأجنبية التي اعتمدها المؤلفون أساساً

لدراساتهم يلتمسون منها الحقائق لتكون مرتكزاً وربطاً للأحداث التاريخية المعروفة لديهم لكتابة التاريخ بعيداً عن الانحياز ، وطلباً للصدق في السرد ، والامانة في العرض .

اعتمد مؤلف هذا الكتاب في دراسته على عدد من المراجع ، كان في مقدمتها كتاب دليل الخليج للمؤرخ البريطاني لوريمر ، فاقتبس منه ماورد في تقارير المقيمين السياسيين البريطانيين عن القواسم ، بالاضافة إلى عدد من المؤلفات العربية التي تناولت تاريخ المنطقة عموماً .

ولعل هذا الكتاب « ايضاح المعالم في تاريخ القواسم » يكتسب أهمية خاصة ، لأنه يتناول فترة هي من أهم مراحل تاريخ الخليج العربي ، لما شهدته هذه الفترة من أحداث جسام ، وجهاد بطولي ، اعترف به العدو قبل الصديق ، ولانه أيضاً يؤرخ لقبائل الساحل العماني ولشعبه الذي التف حول الزعامة القاسمية للجهاد من أجل حماية السيادة الوطنية والدفاع عن عروبة الخليج من هجمات الاساطيل والقوى الاجنبية الغازية ، التي حاولت جاهدة ان تثبت أقدامها وان تستغل المنطقة لتحقيق مصالحها الاقتصادية واطماعها السياسية .

ويؤرخ الكتاب في مجمل فصوله للغزو الاستعماري البريطاني لمنطقة الخليج العربي ، ذلك الغزو الذي اتخذ من مبدأ « فرق تسد » سياسة انتهجها طيلة فترة تسلطه ، منفذاً ذلك المبـــدأ خفية وراء الكواليس ، ومن وراء الاحداث التي يفتعلها تارة ، وبتحريك الحزازات والضغائن تارة اخرى ، نافخاً في وميض رمادها ليعلو لهيبها ، فيحترق الوئام بها ، ويتشتت شمل القوم من أثرها ، فيأمن المستعمر بذلك على مصالحه ، ويضمن أمنه ومكاسبه .

لهذا فان الكتاب إلى جانب ما فيه من مفاخر وصفحات ناصعة لتاريخ خليجنا العربي المتمثلة بجهاد القواسم وصمودهم ، يحوي دروساً وعظات هي من واقع تاريخنا الذي لا تزال توابعه وعواقبه ماثلة أمامنا حتى اليوم .

من هنا يحوز هذا الكتاب القيّم على مكانة طيبة بين كتب التاريخ العربي ويسد فراغاً في هذا المجال ، تعاني منه المكتبة العربية ، ويحتاج إليه الطالب والباحث ، كما يحتاجه كل مواطن من أبناء منطقة الخليج العربي ، وكل عربي ، ليطلع على سيرة الاجداد ، وليتعرف على جانب من صراع أمتنا المرير مع الامم الطامعة ببلادنا وثرواتنا .

وبعد أخي القارىء الكريم ، ستجد بين دفتي هذا الكتاب ، ذكراً لحوادث وحقائق واقعية ، قد يرتاح لها البعض ، وقد يحنق منها البعض الآخر ، إلا أن التاريخ سجل للأحداث بمرها وحلوها ، وباطلاعنا على تاريخنا نفخر بأحداثه الناصعة وببطولات أجدادنا الخارقة ، ونعتبر من مصائب الزمان فنحتاط لها ونتجنبها ، بذلك نستطيع الحصول على الفائدة كلها ، التي هي عون لنا في مسيرتنا الحضارية الحالية لاسترجاع مكانة أمتنا ولتوحيد بلادنا ، حتى تعود خير أمة أخرجت للناس .

أحمد التدمري

الفصل الأول

١ ــ التعريف براس الخيمة

٢ ــ آثار راس الخيمة ، واهمية موقعها

٣ ــ الشيخ صقر بن محمد القاسمي حاكم راس الخيمة

٤ ــ نسب الشيخ صقر وبعض أعماله

٥ ــ نسب القواسم في البيئة العمانية

٦ ــ المواقع التي يسيطر عليها القواسم

٧ ــ بزوغ تاريخ القواسم

٨ ــ بدء تاريخ القواسم ببدء وجودهم

٩ ــ قوة القواسم العسكرية .

١ ـ التعريف برأس الخيمة

رأس الخيمة هي التي كانت تسمى جلفار[1] ، قال عبـد القادر زلوم مؤرخ الساحل العماني : هي من أمارات القواسم ، ويرجـع تاريـخ تأسيس رأس الخيمة أو ظهورها كعاصمة لجميع ساحل عمان بزعامة القواسم ، إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ، أي أن ابتـداء حركة القواسم التاريخية تبدأ في ذلك العهـد . حيث استقل الشيخ رحمه بن مطر ابان ضعف دولة اليعاربة[2] التي كانت تحكم عمان وساحله ، قـال : وأخـذت رأس الخيمة مكانة جلفار القديمة في زعامة البحر أي أن رأس الخيمة حلت محل جلفار اسماً ومعنى ، قال : ولكن اصرار[3] الانجليز على القضاء على هذه الدولة الفتية التي اقضت مضاجع أساطيل شركة الهند الشرقية في الخليجين والمحيط الهندي أدى إلى تدميرها تدميراً نهائياً ، واحراق اسطولها المرعب ، وافول نجمها ، ومنذ عام ١٨٢٠ أضطر الشيخ سلطان بن صقر الأول إلى جعل عاصمته الشارقة ، وقد انحصرت دولة القواسم في أجزاء من الساحل

---

١ ـ جلفار تلفظ بضم الجيم وسكون اللام بعدها فاء مفتوحـة فألف فراء مهملـة .

٢ ـ انتهى حكمها لعمان وساحله في منتصف القرن الثامن عشر ، حيث أخذ القواسـم الحكـم .

٣ ـ سياسة الاستعمار الانجليزي تتدخل لصالح شركة الهند الشرقية .

العماني ، بينما ظهرت إلى الوجود بعض المشيخات الحالية ، حيث دخل الانجليز مع حكامها في معاهدات شبيهة بتلك المعاهدات التي عقدوها مع القواسم حتى تكاملت سبعاً ، وذلك عملاً بمبدأ « فرق تسد » .

قال :[1] وعرفت رأس الخيمة كامارة في مطلع القرن العشرين عندما انفصلت عن الشارقة بعد عراك دام بين أبناء العم زمناً ، ثم ثبت الانجليز الوضع بالانفصال نهائياً سنة ١٩١٩ ، أي في صدر القرن العشرين .

قال : ويبلغ عدد سكان الامارة حوالي العشرين ألفاً أكثر من نصفهم ، يسكنون في العاصمة والباقون يسكنون في توابعها ، وهم يشتغلون بالصيد والتجارة والزراعة وكثير منهم يضرب في الأرض وراء لقمة العيش في قطر ، والكويت ، والبحرين ، والسعودية ، أسوة بباقي سكان الأمارات الأخرى أما الأجانب من الايرانيين والهنود وغيرهم فلا يتعدون بضع مئات إلا أنهم يسيطرون على طريق التجارة ، وأسباب الرزق في البلد ، وشيخ الامارة هو صقر بن محمد بن سالم القاسمي ، وبها عدة مدارس للبنين والبنات في عاصمة الامارة ، وفي القرى القريبة منها مثل : الرمس ، والمعيريض ، والجزيرة ، ويتبع الامارة بعض القرى مثل شعم ، وغليلة ، وخت[2] ، ذات العين المعدنية .

قال : ومن الجدير بالذكر ، أن بلدة رأس الخيمة مهددة بالزوال بسبب اكتساح البحر لها ، ويفكرون في نقلها إلى مكان مقابل على

---

١ ـ كلام المؤرخ عبد القادر زلوم .

٢ ـ خت : تلفظ بالخاء المعجمة والتاء المثناة .

حافة جبال عمان ، غير أن الحالة المادية صعبة لاتشجع القوم على ذلك ، لأن هذا يتطلب أموالاً طائلة .

قال : وتقع اطلال جلفار القديمة شمال رأس الخيمة ، بين الرمس والمعيريض ، ولها ذكر في الفتوح الاسلامية لفارس ، وإليها ينسب الملاح العربي الشهير أحمد بن ماجد ، المعروف بأسد البحار . صاحب المصنفات البحرية ، والذي أرشد فاسكو دى جاما إلى طريق الهند من أفريقية ، وكان هذا الملاح من أكبر المغامرين في اجتياب البحار ، وكثرة الاسفار ، فكان له ولع شديد ، وحب متغلغل ، في ذلك ، حتى صارت له شهرة واسعة ، واقتبس من ذلك مزيد اطلاع على طرق الأبحر في ذلك الزمن الذي قلت فيه وسائل العصر . وكاد أن لا توجد فيه المسهلات لاجتياز هذه الأبحر الطامية ، فكان بن ماجد أوحد الرجال المغامرين ، الذين تحدث التاريخ عنهم ، ويرجع فضل تاريخه لعمان ، فيكون لها السبق في هذا الميدان . كما سبقت في ميادين عديدة ، هذا ماحرره ذلك المؤرخ الشهير عن رأس الخيمة ولغيره من الكاتبين عن الامارات الساحلية العمانية كلام طويل .

وللبوريني أيضاً في ذلك اطلاع عال ، وكلام سام ، ولا يسعنا نقل كل ما يقال في هذا المجال .

وقد جاء في بعض الرسومات أن امارة رأس الخيمة هي أولى الامارات من ناحية الشرق ، أو بالأحرى هي أقصى جزء من المشرق العربي ، تقع بين خطي عرض ٢٥ و ٢٦ شمالاً ، وخطي طول ٥٥ و ٦٠ شرقاً ، وتطل على مشارف مدخل الخليج العربي (ومضيق هرمز) باب السلام .

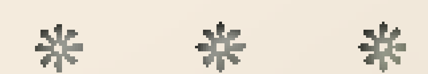
تضم الامارة عدداً من البلدان والأرياف يمتـــد بعضها على الشريط الساحلي والبعض الآخر على سلسلة جبال عمان وسفوحها ، وليس هناك احصاء رسمي لعدد سكان الامارة ، إلا أن عدد هؤلاء السكان يقدر بحوالي خمسين ألف نسمة ، وتكثر في رأس الخيمة المزارع والبساتين والأشجار البرية كالغاف ونحوه ، التي تضفي على المنطقة جمالاً طبيعياً ، كما تتناثر الأبراج المخروطية الشكل ، الاثرية ، فوق كثير من المرتفعات ، تحكي عظمة الماضي وأمجاده ، على مسيرة الحاضر التقدمية في الزراعة والعمران والصناعة والتجارة .

ورأس الخيمة في طبيعتها الحلوة تجتذب سكان الساحل العماني ، والمناطق المجاورة ، الذين يفدون إلى بلدان الامارة في شتى الفصول ، للتمتـــع بمناظرها الخلابة وجبالها الشاهقة ، وينتشر الزوار عادة في مزارع وشواطىء شعم ، وغليلة ، وبساتين الحران ، والدقداقة ، وتتمتع مدينة رأس الخيمة بمركز مهم على الساحل العماني من حيث الموقع والطبيعة الجغرافية ، إذ يشق المدينة لسان مائي عميق (يعرف في عمان مثل هذا اللسان باسم الخور) ، ويعتبر هذا الخور ملجأ للسفن ومراكب الصيد ، وعلى شاطىء الخور ترسو السفن والمراكب حيث رصيف الميناء ودائرة الجمارك ، والمخازن ، ومعدات العمل ، والتنزيل والشحن ، وتنقسم مدينـة رأس الخيـمة إلى جانبين ، يضمان عدداً من الأحياء ، ويفصل بينهما الخور .

ومن هذه الاحياء القديم ومنها الحديث . أما الجانب الغربي ويعرف برأس الخيمة ، ففيه المدينة القديمة التي يتوسطها الحصن وعلى أطرافهـــا مجموعة من أبراج الحراسة ، وأما الجانب الشرقي ويعرف بجانب النخيل ،

فيقع فيه حي العربي القديم ، والحديبة ، والمعمورة ، التي تضم قصر الحاكم ، وبعض الدوائر ، وأحياء سكنية لكبار المسؤولين ثم حي المعيريض الشعبي ، ومنذ بضع سنين بدأت في المدينة نهضة عمرانية حديثة ، فقد قامت العمارات والمدارس والأبنية الضخمة ذات الطوابق المتعددة ، والشوارع العريضة ، والأسواق ، والمحلات التجارية الزاهية ، كما أن هنالك تخطيطاً هندسياً للمدينة ينظم اتساعها ، ويتضمن عدداً من المشاريع لانشاء الحدائق والميادين العامة ، وينسق مراكز الخدمات والمواصلات ، وكذلك مشروعاً لبناء جسر يربط جانبي المدينة مباشرة ، ببعضها البعض ، بالاضافة إلى الطريق البري وزوارق العبور ، وفي مدينة رأس الخيمة عدد من الفنادق ، أحدثها فندق جديد من الدرجة الممتازة اسمه فندق رأس الخيمة ، يضم أكثر من مائة غرفة ، مزودة بكل وسائل الراحة ، بالاضافة إلى عدد من الصالات للعروض الفنية ، وهناك أيضاً فنادق أهلية دون الأول معدة للوافدين إلى البلاد ، مما يدل على تجدد العمران فيها ، وبثير حركة النشاط بها ، وفيها أيضاً أماكن أخرى تتنوع فيها الهوايات العصرية ، ومن أجمل مرافقها التي تستحق الذكر ، شعم ، التي تقع على مرتفع يطل على ماء الخليج ، وهي تبعد عن رأس الخيمة حوالي ثلاثين كيلومترا تحيط بها المزارع والبساتين الغناء ، وقمم الجبال من كل ناحية . وتتوفر فيها المياه الطبيعية العذبة ، ذات المذاق الحلو ، وبعدها أيضاً خت ، وهي بلدة سياحية من بلاد الساحل العماني الشمالي ، تقع إلى الجنوب من رأس الخيمة ، على بعد حوالي ٢٥ كيلومتراً ، ذات نخيل جميلة وينابيع معدنية حارة ، يقصد إليها المتنزهون والمتفرجون في أنس وسرور ، وانشراح للصدور ، بريفها الحسن الرائق ، ومنظرها البديع الفائق ،

وبلاد أخرى تمتاز بطابع مرغوب ومنظر مستحسن في ذلك الساحل ، وقرى متناثرة زراعية ممتازة بحاصلاتها وحقولها الجميلة مثل : الحران ، والدقداقة ، والمسافي ، والرمس ، والحويلات ، وخورخوير ، وكلها تابعة لرأس الخيمة ، كما تتبع رأس الخيمة أيضاً جزر لها أهميتها بسبب موقعها من الساحل ، مثل : الطنبين الكبري والصغرى ، والحمراء التي ارتبطت منذ فترة بجسر أوصلها بالمدينة ، وطريق معبد أيضاً ، وأكثر دخل هذه الجزر من صيد السمك ، ومنه معاشهم ، وهو من أهم غلاتهم الحيوية .



٢ - آثار رأس الخيمة وأهمية موقعها

إن رأس الخيمة كسائر مدن عمان الأخرى وقراها ذات آثار حضارية تدل على ماض مجيد وتاريخ عربي عريق ، ومن هذه الآثار الحصون ، والقلاع ، والأبراج ، والمصانع التي تعبر عن عهود مضت ، لها أهميتها العربية العريقة ، والآثار تدل على أهالي الديار ،

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وقد بقيت بعمان آثار مضت عليها آلاف السنين ، وفي رأس الخيمة من الآثار ما يدل على سابق مجد لها علمه البعض ، وجهله الآخرون ، وبطول الأيام تتبدل الأعلام ، وتتغير المآثر والأوضاع ، والدهر من طبعه التقلب والأيام تتداول بين الناس ، وتلك سنة الله في عباده .

ومن آثار رأس الخيمة وتوابعها حصن ضايه ، وهو حصن جبلي يقع في المنطقة الجبلية إلى الشرق من بلدة الرمس ، ولا تزال آثاره باقية حتى الآن ، ولاتزال معالمه دالة عليه ، وكذلك قصر الزباء ، ويقع في مرتفع جبلي ، وقد حفر أمامه مجرى حتى النهر ، بقيت معالمه تدل عليه ، ويقال ان الزباء المعروفة في التاريخ العربي كانت تحكم هذه البلاد قبل عشرات القرون . وقد امتاز حكمها بالاستبداد والقسوة ، ومن بواقي القصر أجزاء

من السور المحيط بـه ، وبعض البرك وخزانات المياه واحدى الغرف والقاعات .

أما الأبراج القائمة في رأس الخيمة فهي غير بعيدة المدى في تأسيسها ، وهي متناثرة في البلاد ، كانت تستخدم للحرس الخاص بأمن البلاد ، كما في بقية البلاد العمانية ساحلياً وداخلياً ، التي منها العامر ، ومنها البائر ، ومنها ما يدل على غابر مهم ، وسالف مجيد ، وتوجد في وادي أم الغاف آثار ، تعبر عن أحوال تاريخية ، وهناك كتابات قديمة ومنحوتات على الصخور ، ويوجد في خت أيضاً ، معبد صنمي ، كان معبداً وثنياً قديماً بنى عنده صنم كبير يدل على امم استوطنت المكان ، ثم هدم هذا المعبد من عهد غير بعيد ، وما زالت الغزوات العمانية تفتح باب الدخول لعمان من رأس الخيمة ، كما ذكر التاريخ ، حتى أن غزوات شيبان وخازم بن خزيمة الذي جاء بجيشه إلى عمان فالتقاه الإمام الجلندي بن مسعود (رحمه الله) بها ، وقد قتل الإمام وجيشه معاً ، ولم ينج منهم إلا من شاء الله ، وجاءت أيضاً جحافل محمد بن نور المعروف عند أهل عمان بابن بور والي البحرين فحلت من عمان في رأس الخيمة ثم اتصلت بعمان ، وآخر غزو لعمان ، الغزو الإيراني الذي قاده سيف بن سلطان اليعربي في القرن الثاني عشر الهجري ، فكان بعمان ما كان ، مما ذكره التاريخ العماني ، وعلى كل حال ، ان الغازي إذا تمكن من أن يحل في رأس الخيمة حل في حصن منيع بالنسبة إلى الساحل الشمالي ، إذ هنـــاك الجبال العالية ، والمرتفعات الحصينة التي يلتجىء إليها الغازي إذا خاف ، ويتحصن بها ، ثم يذهب منها إلى داخلية عمان .

قال بعض الكاتبين : وبسبب الحروب التي شنت على رأس الخيمة الملاصقة لمدينة جلفار ، تمكنت الاساطيل الغازية عبر المعارك العديدة من تهديم المدينة ، فتركها من بقى من سكانها أطلالاً وأكواماً غطتها الرمال طوال الأيام والليالي ورحلوا عنها إلى غيرها ، (أي وتركوا جلفار لكثرة الغزوات وتألب الغزاة) ، ولا تزال بعض معالم جلفار باقية رأى العين ، ومعتبراً للآتي من السياح والمؤرخين وتوجد في جانب منها برك للماء تخزن فيها المياه أيام الحروب ، وتجمع فيها أيضاً ، مياه الأمطار للري ، وأشياء أخرى لايزال التخمين فيها جارياً ، وكذلك لجلفار خور معروف تؤمه السفن الواردة إلى المدينة ، بقي معتبراً للناظرين ، وقد اندثر الآن ، واندفن أكثره إلا ما شاء الله ، وكان يقيم على جانبه العالم البحري أحمد ابن ماجد السابق الذكر[1] .

* * *

١ ـ هو الذي دل البرتغاليين على الطرق البحرية للوصول الى الهند ، فكانوا يأتون على حسب تعاليمه حتى نجح البرتغاليون في مهمتهم بالهند وجنوب شرقي آسيا ؛ وكانت شهرة ابن ماجد عالمية واسعة .

٢ - الشيخ صقر بن سالم القاسمي

حاكم رأس الخيمة

تتقدم رأس الخيمة ، الآن ، بهمة الشيخ الامير الصقر الذي له من الأخلاق الحميدة ما يحيي رميم أخلاق العرب ، وذكر الزعماء المقدرين ، وعلى كل حال ، ان الأخلاق الفاضلة هي التي تعيش الأمة تحت ظلها ، وتتقدم البلاد بها على غيرها .

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ⁂ فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وأخلاق الأمير بطبيعة الحال تؤلف المأمور وتستخدمه من صميم قلبه ومنبع إخلاصه ، وقل أن توجد الاخلاق الفاضلة في زعيم إلا كان محبوباً محترماً ، مقدراً ، عزيزاً ، ولذلك جاء رسول الله ﷺ ، مبعوثاً لإتمام مكارم الأخلاق ، وأخلاق أمير رأس الخيمة الحالي من جواهر الأخلاق ، ديناً ، ودنيا ، وأدباً ، وتواضعاً ، واعترافاً بما أوجب الله من الأحكام ، واتباعاً لأوامر الكتاب والسنة فمن كان كذلك لابد أن ينجح في مهمته ، قال رسول الله ﷺ : « من لانت كلمته وجبت محبتـــه وحسنت احدوثته وظمئت القلوب إلى لقائه وتنافست في مودته » ، وهذا أكبر دليـل على أن الأخلاق فعالة في السواد الأعظم ، وأنهـا ناجحة تمامـاً ، وناهيك بقوله

عليه الصلاة والسلام : « وخالق الناس بخلق حسن ، إنكم لاتسعون الناس بأموالكم ولكن فليسعهم منكم حسن الخلق » .

والشيخ صقر بن محمد بن سالم في جبهة أمراء الساحل أخلاقاً ، ولذلك يرجع عنه زائره مسروراً ، ولو رجع صفر اليدين ، لايرجع عنه إلا وهو يثني عليه من صميم قلبه ، ولقد قام بإعمار رأس الخيمة ، وبذل جهده في إعادة مجدها السالف ، كما قام ببناء المستشفيات والمدارس والمساجد ، في المدينة وتوابعها ، وما زال أهل الساحل يردون عليه زرافات ووحدانا في مختلف الأغراض .



٤ ـ نسب الشيخ صقر بن محمد القاسمي وبعض أعماله

كما اقتضته مناسبة الكلام على وجوده الحالي ، واتصل به الكلام على ذكر رأس الخيمة ، في حاضرها وماضيها ، فنقول هو صقر بن محمد بن سالم بن سلطان بن صقر بن راشد بن رحمة بن مطر بن كايد . ويقال أن رحمة بن مطر بن كايد هو أول من أسس أمارة القواسم في الساحل الشمالي من عمان ، بعد انهيار دولة اليعاربة ، وتقلص ظلها ، لأن طلاب الزعامات قاموا كلًا بجانبه ليلتقطوا من ذلك التراث اليعربي ما يتيسر لهم ، فكان من نصيب القواسم شمال عمان ، ومن نصيب بني ياس أبو ظبي ودبي ، ومن نصيب فرق عديدة في أفريقيا الشرقيـة ، المزاريع ومن معهم حتى قام لها سعيد بن سلطان فالتقطها منهم وفك أيديهم عنها وهكذا تجزأت الممالك ، ولكن من حسن حظ البلاد أن تيسر لهـا أمير ناصح ، وزعيم صالح ، فكان صقر بن محمد القاسمي من حظ رأس الخيمة وتوابعها في الوقت الحالي ، وصلاحه فيها غير خفي ، وإليك بعض كلماته المحررة :

إن أملنا أن تتناسى شعوب الامة العربية خلافاتها الجانبيه وتتجه إلى بناء وجودها ووعي مسؤولياتها ، ونتمنى لشعوب الأمة العربية أن تتخذ سياسة عربية موحدة بصرف النظر عن الخلافات ، والأحقاد السابقة ، وان

العالم يتجه بانظاره إلى هذه الأمة ، ولو بقيت امتنا العربية مجزأة على وضعها الراهن ، ومتفرقة ، ومختلفة ، فلن تقوم لها قائمة ، وستكون فريسة لاعدائها ، أما بالنسبة للخليج فأتمنى أن يدرك أبناؤه مسؤولياتهم بعيداً عن الحساسيات والنوازع الشخصية ، وأن يضعوا مصلحة الخليج العربي فوق أي مصلحة أخرى ، إننا بدون الذهنية الاستعلائية التي تفرق بين امارة وأخرى بحكم امتيازاتها المعنوية والمادية يجب أن نعلم أن مصيرنا واحد وطريقنا واحد .

هذه هي نوايا أمير رأس الخيمة ومقاصده في وقته الحاضر ، وانها لكربة في اعتبار الزعماء الصالحين ، والتوحد والاتحاد قوة متينة ، وحجة واثقة ، وهكذا يعمل الزعماء المصلحون ، وإن تكن أفعالهم مصداقاً لأقوالهم وأياديهم عاملة في انصاف الشعب قبل أن تكون عاملة في مصلحة الزعيم ، فالزعيم بالشعب وليس الشعب بالزعيم ، وهذا يفهمه ، طبعاً ، أهل العقول الصحيحة ، وصقر بن محمد ونجله أيضاً ، خالد بن صقر ، كلاهما عامل في تأييد بلاده .

وهما غير متخصصين عن امتهم بمميزات حيوية بل هما وإياها كخليط في أمة لا يعرف زعيمها من مزعومها ، ولاسيدها من مسودها ، ومن تكن نواياه حميدة نظره الله بتأييده ووفقه للقيام بواجباته ، وهذا الشيخ خالد يقول ، ونحرر عنه قوله ليكون مصداقاً لمستقبله وحجة له إن أيده بفعله ، أو حجة عليه ان خالفه بعمله ، وهو بصفته ولي عهد أبيه في رأس الخيمة .

يقول : هنالك مشاريع كثيرة نعمل على تحقيقها للنهوض بالبلاد وإحداث

التطور والرفاه لشعبنا والإزدهار لوطننا ، وإننا سنركز على المشاريع الصناعية والاقتصادية واستغلال ثرواتنا الطبيعية وتأمين المواصلات التي يعتمد عليها التطور والنمو الاقتصادي ، اننا حريصون على أن نعيد لبلادنا سابق مجدها ورفعتها .

يستفاد من أقوال الوالد والولد ، اتحاد النوايا وحسن الاهتمام بالصالح العام في رأس الخيمة ، ولم يقولا : أنا العظيم فعظموني ، أو أنا الأمير ، فاخضعوا لي ، بل إنما يقول الرجلان والداً وولداً ، إننا نعمل ونعيش عاملين ما بقيت حياتنا غير آخذين بأهداب العظمة الخالية ، التي من شأنها فقط تأييد العناصر المسيطرة .

قال الشيخ صقر بن محمد : لقد كان كل منا في السابق بشكل امارة مستقلة ، أي تحت ظل الغير ، فهي في الحقيقة كلها امارة ، وقال : أما الآن فقد تغير الوضع ، لأن المصير المشترك ووحدة الأهداف والمشاعر تضعنا جميعاً على طريق الوحدة المستقلة بطريق المصلحة الواحدة .

وتتجلى في هذه العبارة فضائل الشيخ صقر ومقاصده النبيلة ، كما تدل على المكانة السامية التي يتمتع بها مع ذويه الذين سادوا المنطقة طيلة قرن من الزمن أو مايزيد عليه . ويذهب الشيخ صقر في نظرته السياسية إلى أبعد من ذلك عندما يقول : « ان الدول العربية كلها منا ونحن منها لاغنى لها عنا ، ولا غنى لنا عنها ، وان كل ما يؤلم العرب يؤلمنا ، وكل ما يسرهم يسرنا لأننا جزء منهم » ولا أريد أن أترجم للشيخ صقر أكثر من غيره ، وإنما أريد أن أرفع عنه من نواياه نحو قومه وإخوانه ، وقد زرت رأس الخيمة في سنة ١٣٩٠ هجرية وألقيت نظرتي إلى الناحية التي يتوجه لها

الشيخ المذكور فعلمت منه مقصداً علياً نحو قومه وإخوانه غير ناس ما كان في رأس الخيمة من أعدائه الذين صار لهم الحل والعقد عمداً ، حتى انتهى بعناية الله عز وجل ، وهنـــا يجب على السيد والمسود ، الشكر والضراعة إلى الله عز وجل ، إذ أخرج ذلك التنين الذي ما كنا نظن أن يخرج وهو ذو الأنيُب العصل ، لكن لله في خلقه أسرار وفي عباده عظيم الاعتبار ، (فارجع أيها المسلم إلى الله وقف على حدود شريعتـه ، وسله عونه وتوفيقه للصالحات ، واعلم أنه هو الذي يقول للشيء يريده كن فيكون بغير شك) ولما تولى الشيخ صقر بن محمد مقاليـد الحكم في يوم ١٧ تموز ١٩٤٨ ، وصار أمر رأس الخيمة إليه ، كانت كبقية الامارات الساحلية تواجه أحوالاً سيئة من التأخر والفوضى وانهيار صروح مجـــدها السالف والانقسامات والتجزئات وعدم استقرار الأمن واضطراب الأحوال ، فكان عمله فيها أول أمره بها ، أن قام بإرساء قواعد الوحدة الوطنية بين القبائل العربية في الامارة ، وإعادة جمع شملها مرة اخرى تحت اللواء القاسمي ليعود لهم العهد الذهبي الذي كانوا يعيشون فيه . وهم قادة قومهم وامتهم ، وكان الشيخ صقر جاداً في عمله هذا بهمة تعدم المثيل ، حتى انهى الخلافات التي تتحيز من أجلها القبائل ، ويقع بها النفور والشقاق والتباعد حتى هدأت الحركات وسكنت النفوس واطمأنت الحواس ، وتحركت روح التقـدم والرقي لرأس الخيمة . وقامت تدب النشاطات بما يناسب الوقت حتى تكاملت مساعيه بالنجاح ، وعلت فيه همة الاصلاح ، وتحركت روح الاتحاد من ذلك العهد ، وبقيت مخمورة الطينة منتظراً لها وقتها ، وعندما واتت الفرصة قام لها رجال الامارات معاً ، فوضع حجر البناء في الزاوية الشمالية وبزغ نجمه في أفق التحقيق وهاهو يقول بصراحة : (لقد كان كل منا

في السابق يشكل امارة مستقلة أما الآن فقد تغير الوضع لأن المصير المشترك ووحدة الاهداف والمشاعر تضعنا جميعاً على طريق المصلحة الواحدة ، أي حيث كنا في استقلال متوحد ، فكل امارة لها استقلالها الخاص . والآن أصبحنا كامارة واحدة في طريق تقدمنا فيجب علينا أن تكون مساعينا متحدة حساً ومعنى لا يتخصص أحد منا بشيء ما مما لم يكن مختصاً به من أصله) . وعلى كل حال ان الرجال تتقدم بحسن الاعمال وصلاح العاملين ، ولا تخفى المكارم حيثما تكون ، ولاشك أن اليد المؤيدة باخوات صادقة تكون لها أعمال مهمة لابد أن تنظر إليها عيون الدهر فخراً ، والحمد لله هذه كلمتنا الوحيدة عن التعريف برأس الخيمة التي هي في الحقيقة جلفار القديمة ، أهم بلاد الساحل العماني الشمالي .



٥ ـ نسب القواسم في البيئة العربية العمانية

اعلم أن القواسم عرب عدنانيون باتفاق أهل الانساب ، وقد قال بعض نسابتهم : « أن القواسم عرب عدنانيون على الصحيح » . كما قال عبد القادر زلوم : « وأصل القواسم أو الجواسم كما يلفظها القوم الآخرون قبيلة عدنانية » انحدرت إلى الساحل من أواسط العراق منذ عشرة قرون تقريباً » كما ورد في نهضة الاعيان : « القواسم قبيلة عدنانية عريقة ، نزحت من سواد العراق ومن بلاد سر من رأى وديار بني صالح » وأنا أرى : « أنهم من أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ولعل القواسم ينتسبون إلى القاسم بن شعوة المزني ، وهو الذي أخرجه الحجاج إلى عمان يقود جيشاً لحرب عمان قبل حوالي ألف وثلاثمائة سنة ، فخرج حتى أتى عمان في سفن كثيرة ، فأرسى سفنه ومراكبه في حطاطا ، وأعني ـ مسقط ـ وهي في ذلك الوقت يشملها اسم حطاط إذ كان هذا الاسم شاملاً لوادي بوشر ، فكان وادي بوشر من حطاط ، وانفصل فيما بعد ، فصار معروفاً بعد ذلك بما تشمله واحة الحاجز وما علا منها وما سفل إلى حوزة قريات شرق وخرجت منه أيضاً مسقط حين قام لها شأن يؤيدها ، فلم يعد يعرف وادي بوشر بعد ذلك بهذا ولا مسقط لكونها عظمت شأناً وكبرت قدراً ، ونأت مكاناً ، وكان القاسم المذكور قائد

الحملة بأمر ذلك الطاغية العاتي ، وكان على عمان سليمان بن عباد بن عبد ابن الجلندي ، فاشبه[1] أن يكون القاسم المذكور جد القواسم المعروفين لان الجد قتل في تلك الحملة ، وعاد أخوه مجاعة بن شعوة لحرب عمان وافتتحها وبقي فيها هو وأجناده وأحفاده، ولا يخفى عليك حال الفاتح المسيطر ومقامه في القطر المفتوح ، فتمركز مجاعة ومن معه بعمان عهداً لا يقل عن أربعين سنة (قضاها الله على أهل عمان بلاء واصباً باختلافهم فيما بينهم ونزعات الشيطان ونفخاته بين الاخوان معروفة) وفي بعض الرسومات (أن قبيلة القواسم قبيلة عربية تنتمي إلى نزار وهم بنو أد بن طابخة بن اليـاس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان من رهط النعمان بن مقرن وزهير ابن أبي سلمى الشاعر المعروف ، وأياس بن معاوية القاضي) ويقول القائل في القاسم بن شعوة وأخيه مجاعة المزني .

متى أدع في أوس وعثمان تأتني مساعير قوم كلهم سادة دعم
هم الاسد عند الباس والحشد في القرى وهم عند عقد الجار يوفون بالذمم

قال : وقد لقبوا بالقواسم نسبة للقاسم بن شعوة الذي أخرجه الحجاج بن يوسف الثقفي على رأس جيش إلى عمان لمحاربة سليمان بن عباد الجلندي الذي أراد الانفصال عن جسم الدولة الاسلامية ،خلال الخلافة الاموية ، فخرج مع جيشه واتباعه في سفن كثيرة وأرسى مراكبه قرب قرية حطاط بين مسقط وقريات . ثم عسكر في حطاط والتقى الجيشان في ضواحي القرية ، وأصيب القاسم خلال المعارك اصابة بالغة ، مات على أثرها فتراجع جيشه ،

---

١ ـ يشك المؤلف في أن يكون القاسم بن شعوة جد القواسم في عمان .

دون أن يحقق الغاية من مجيئه وقتاله ، وبلغ الخبر الحجاج فاستدعى مجاعة بن شعوة اخا القاسم ، وانتدبه على رأس جيش آخر إلى عمان ، فوصل إليها ونزل بلدة البلقعة (قلت ليست البلقعة بلدا وانما هو مورد معروف تمر عليه الطريق) فالتقى الجيشان ، ولعل كلا منها كان يقصد المورد ليسيطر عليه ، كما ذكر الامام السالمي رحمه الله في تحفة الاعيان ، وعلى كل حال ان القواسم عرب سواء كانوا نزحوا من سر من رأى أو من غيرها من بلاد العرب ، فهم عرب عدنانيون وعلى الوجهين أيضاً هم القدماء في عهد الحجاج أو هم قريبوا عهد ، أفاضوا على الساحل الشمالي من عمان ، والذي يؤيده الواقع أنهم قدماء بعمان ذلك أنهم انتشروا في القبائل العربية واختلطوا بها في أماكن عديدة من عمان ، فهم في صور والساحل الشرقي للخليج وهم في الجصة شرقي مسقط وهم ثلاثة بطون ، على ماقيل ، تواجدوا في الساحل الشمالي وفي وادي ممايل ووادي عندام ، وفي أودية الطائيين بجوزة الرحبيين وغيرهم ، وعلى هذا لا يعقل أن الذين جاؤوا إلى الساحل الشمالي وترأسوا فيه كان لهم اتصال بهذه الاماكن كلها والعهد قريب ، لان زعامتهم بدأت على أثر انحلال دولة اليعاربة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للهجرة كما ستراه في محله إن شاء الله .

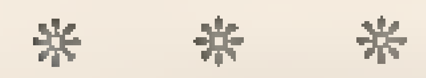
* * *

٦ - المواقع التي يسيطر عليها القواسم

إن أهم المواقع التي يسيطر عليها القواسم ، هي رأس الخيمة (التي قامت على أطلال جلفار) وخور فكان ، والشارقة ، وأعرق هذه البلاد بكل معنى الكلمة ، رأس الخيمة ، لأنها هي الكرسي الذي يقعد عليه حاكم الواحة الشمالية من عمان ، لعدة أسباب أشرنا إلى بعضها في مقالنا ، وأسباب أخرى يعرفها المعنيون بأحوال التاريخ الاستراتيجي العماني ، ورأس الخيمة هي العمود الذي يمشي على متنه الزعماء في الأفق الشمالي ، كما عرفت ذلك من أحوال الغزاة لعمان جاهلية ، واسلاما ، وتتبع القواسم بلاد اخرى ، وجزر كثيرة ، ومن بلادهم . . . شعم ، وغليلة ، والرمس ، وخت ، وكلبا ، ودبا وغيرها ... ومن الجزر .. الجزيرة الحمراء الملاصقة للبر جنوب رأس الخيمة ، وجزيرة أبو موسى ، وطنب الكبرى ، وطنب الصغرى ، التي لا تزال بريطانيا تعترف بها للقواسم ، وحافظت عليها باسم القواسم ، وهي التي شنت حرباً على القواسم لتقضي عليهم في عقر دارهم ظلماً وعدواناً لتمهد طريقها في مياههم الاقليمية ، ورأت أنها صاحبة الحول والطول فرفضت دفع الرسوم المقررة بينها وبين القواسم على المرور في الخليج ، وعلى المحافظة على سفنها والإعتراف بها ووضع الأمن لها بموجب القوانين الوضعية في الدول الأجنبية ، وهذه هي أول خيانة منها . ولا يستنكر ذلك منها فإنها ترى أن مثل هؤلاء العرب الضعاف مادة وسلاحاً القائمين على شظف العيش

في هذه الأماكن لاأهمية لهم ولا ينبغي أن تطيل لهم الأمان إلى شيء أبدا ، استخفافاً بهم وذلك دأبها في الأسر العربية أينما وجدتها إلا إذا رأت نجماً رصداً ، وسهماً حاداً ، ويداً قوية ، وقلوباً واعية ، فإنها تسير معها على نهج السياسة الهادئة وبذلك تنال مرادها وتبني أمجادها ولا تعدل إلى الحرب إلا إذا استهانت بالأمر ، أو رأت أن لا بـــد لها من ركوب المصاعب ، ولا نجاح لها إلا بذلك ، وهذا الحال أبعد شيء عندها ، ومن دأبها خلق المشاكل بينها وبين الأمم . وقد عرفها بذلك العالم كله بما فيه الدول الاسلامية والأفرنجية وقد عانى منها العمانيون ساحلا وداخلا ، شروراً ودهاء ومكراً وحيلا طويلة وعريضة ، لا يسع المقام لذكرها ، إلا أن الله لها بالمرصاد ، فقد سلخها من الممالك ، وطوى علمها من الأقطار التي استعمرتها شرقاً وغرباً ، وراحت تعض أصابع الندم ، ولكل شيء غاية ينتهي إليها ، أما مراكز القواسم فهي رأس الخيمة كما قـــدمنا ، وهي أولها ، ثم الشارقة وهي تليها في معانيها ، ثم خور فكان وهي التي أصيبت بتلك الموقعة من السيد سعيد بن سلطان وعمه قيس ، وقد وقع فيها ماوقع ، مما جعلها أحدوثة العالم ، ثم كلبا ولها أهمية إذ هي تتاخم الحدود البوسعيدية لسلطنتها العمانية ، ولايخفى ان مابعد رأس الخيمة تبع لها حتى رماها الانجليز بنيران مدافعهم الكبيرة ، وقضوا عليها نهائياً ، وبذلك قضوا على الزعامة القاسمية ، ولا يخفى ذلك على أحد ، وان اقتسمت العائلة القاسمية المناطق التي تسيطر عليها ، فجعلت الشارقة والفجيرة وغيرها مراكز مستقلة وكذلك أم القيوين وعجمان ، وجزأت الجسم الوجودي لهذه البلاد ، أجزاء متعددة جعلت لها استقلالها عن رأس الخيمة للغرض الذي رمت بـــه الزعامة القاسمية ، وهو مبدأ « فرق تسد » ورأس الخيمة هي نفس جلفار القديمة

إلا أن العمارة اقيمت بجانبها الغربي من حدودها فهي طبعاً ووضعاً ، وقد علمت جلفار في التاريخ القديم بما لامزيد عليه في الساحل الشمالي العماني ، وقد ذكرنا عنها طرفاً منه في العنوان ، وتمتاز رأس الخيمة على سائر بلاد القواسم ، بل على سائر البلاد الشمالية حتى دبي وأبو ظبي بأشياء لا توجد في غيرها ، إلا أن دبي أشرقت في هذا الوقت بموجات تجارية فاضت عليها فأفاضت الخير الذي عمها وأصبح فقيرها غنياً وزعيمها حاكماً ، ولا يخفى أن الديار بعظم قدرها بالأموال وبها تتبختر وتختال ، وكذلك أبو ظبي في قحالة أرضها وبعدها عن الأماكن الغنية بالزرع والغراس ، ووجود النخل الذي تعتاش منه الأمة العمانية غالباً ، كان عضداً وسنداً في معاشها ، إلا أن البترول الذي تدفق عليها أصبح يرفع علمها على أعلام الأمارات الساحلية في شمال عمـــان وأصبح شيخ أبو ظبي زعيماً كبيراً ، وأميراً مطاعاً ، يدير شؤونا ذات أهمية ويسيطر على مسافة أولها حدود السلطنة العمانية في الشرق وآخرها في الجهة الغربية الشمالية الشارقة ، ويمتد نفوذه أحياناً حتى يصل إلى الحدود القطرية .



٧ - بزوغ تاريخ القواسم

كان الشيخ سلطان بن صقر القاسمي أكبر شيوخ العائلة القاسمية وأدهى رجالها ، وقد لاقى صعوبات كبيرة ، وأحاطت به حوادث يتضاءل لها أحياناً ويطأ على هامتها أحياناً أخرى ، كما سوف يراها القارىء ، تتجلى في تاريخه وقد صدق الله عز وعلا حيث قال في بعض كتبه المنزلة « من ثمارهم تعرفونهم » وقد سيطر القواسم على خط واسع ، كانت عواصمه ، تلك البلاد التي سبق ذكرها وكرسيها الموقر رأس الخيمة ، كما عرفت عند الكل ، وقد سمت هذه البلاد في ذلك العهد ، الذي كان يحيط بها رجال لهم أهميتهم الكبيرة ، ونواياهم الحارة .

اشتهرت رأس الخيمة في عهد العراك البريطاني الذي تصدى له القواسم ، فكان داعية الدمار لرأس الخيمة ، على أيدي أولئك المستعمرين ، الذين لا يخافون ولا يرحمون ، ولا يرون لأهل الساحل العماني حقاً إلا خضوعهم وضراعتهم للأساطيل المارة بخليجهم ، فلم يرض القواسم بذلك ، ورجعوا إلى القانون ، وإذا هو لا أثر له إذا لم تكن له مدافع مفتوحة الأفواه ، مشتعلة النيران ، لها دوى يدهش العالم ، ويقيم على الأفق غيوماً ركيمة ، ويرمي بشرر صاعق ، فعند هذا يصدق القانون وتقوم له دعائم عملية . ولذلك اتفق رأى القواسم على أخذ حقوقهم القانونية ، ولكنهم لم يلتفتوا

إلى ما يخبأ لهم ، وجردوا حـدى السيف والعزم لرد الاعتراض واسترداد الحقوق ، وعلى كل حال فإن الرسول الأعظم الذي القى الله عز وجـل إليه مقاليد أحوال الحياة أعلن لأهـل العقول بقوله : « ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا » فكان على القوامس أن يقاتلوا حتى إذا انغلبوا أمام قوى تفوقهم رغم عزمهم القوي وحماسهم الشديد ، فإن المنتعـل أقوى على المشي في حر الشمس من الحافي الذي لا نعل له ، والتفكير قبل الوقوع ، فإذا وقع فلا تفكير .



٨ - بدء تاريخ القواسم ببدء وجودهم

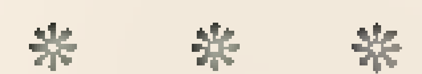
أما وجود القواسم بالساحل الشمالي من عمان بمعنى الزعامة ، فبعد انحلال دولة اليعاربة التي انتهت بالنصف الأول من القرن الثاني عشر للهجرة والثامن عشر الميلاد ، قامت القبائل العمانية تتحزب في أماكنها ، لما بثه الزعيمان خلف بن مبارك ومحمد بن ناصر من الشر بعمان ، وقامت كل قبيلة تحاول السيطرة الفعالة على مواقعها ، وتروم القهر لمن حولها ، والحقيقة لا يتعاطى هذا المقصد إلا الناشئون في أحضان الزعامة ، وغالباً العريقون فيها ، أما الشاذ فلا حكم له .

ولابدع إذا كان القواسم من ذلك العنصر الفاتح لعمان أن يطلب أنجاله الزعامة ، لأن الناس معادن ، وقد اغتنم الكل ضعف الدولة العمانية فتمزق العلم العماني وتفرق إلى أعلام عديدة،وانتشر ذلك في الساحل والداخل ، وقام الصراع بين هذه القبائل العمانية والسلطان الجديد أحمد بن سعيد ، الامام الذي خلف أئمة آل يعرب وتولى تراثهم ، وقام بملك عمان ، وقد طال هذا الصراع وتطور في الذربة وقامت له عوامل تقيمه وتقعده[1] ، وفي هذه الأثناء قام الشيخ رحمة بن مطر القاسمي بزعامة القواسم في رأس الخيمة ، ولا يخفى أن الأمور تبدو أولاً ضئيلة حتى تضخم سداتها ولحمتها ،

---

١ ــ سيأتي تفصيلها في محله ان شاء الله .

فإذا قدر لها التقدم عظمت في الأمة وأصبحت ترفع الحجاب ، وتبني القباب ، فتناطح السحاب ، وإذا قارنها سوء الطالع رجعت القهقرى ومشت إلى الورى ، إلى أن تعود كأن لم تكن ، وهذا شيء مفروض جرت به العادات واعترفت به الدول الكبرى لاالدويلات ، وعلى كل حال إن التقوى والعدالة وحسن معاملة الناس أمر له مابعده ، ومن يقرأ التاريخ يدرك ما قلناه ، كما هو الحال في كل الدول صغيرة أو كبيرة ، وقد أشار إلى هذا القرآن الكريم والمراشد النبوية ، وأصل كل شيء هناك ، وعلى كل حال ان لكل زمان رجالاً ، وان لكل رجال أعمالاً ، وبذلك يتفاضل الناس .



٩ - قوة القواسم العسكرية

اعلم أن القواسم صارت لهم قوة عسكرية في ساحل عمان[1] بعد أن تفرقت الكلمة بانتهاء دولة اليعاربة ، وضعف جسم الدولة ولو أن عمان اجتمعت تحت راية امامة واحدة مخلصة لله كالتي مضت ، والتفت كلها تحت رايتها الوحيدة لرجع كل شيء إلى مستقره ، ولم تقم في الساحل ولا في الداخل عدة امارات ، لأن الكلمة إذا توحدت أبت أن يكون ذلك ، أما إذا ما تفرقت انتجت ذلك طبعاً ، وأثارت الشرور ، واهلكت الناس افراداً وجمعاً ، وقد بقيت عمان في هذه الآونة تتناحر في قلبها وتتقاتل في عقر دارها ، بما لا يعود على أي فرد من أفراد رجالها بمنفعة . بل لرئاسة خلف بن مبارك ومحمد بن ناصر ، وكل واحد منهما جمرة متقدة هوى وعصبية ، فوضع من قدر عمان وهدم من بنائها الوطيد ، وأخرها عن ذلك التقدم الهائل الذي أحرزته في تلك الآونة الوجيزة ، وضيق من عيش أهلها وأورثها فقراً مشت به بين هناوي وغافري ، وأصبحت فريسة السيف بعضها على بعض ، وعلى كل حال فقد صارت ممهدة لبناء امارات تتناثر هنا وهناك . وتتهالك على غير شيء سوى الهلاك ، والقوة إذا

---

١ ـ في الوقت الذي تشاغل فيه العمانيون بالانقسامات والصراع بين غافري وهناوي .

صارت قوى هانت على العدد ، ووهنت في حد ذاتها ، وهـــذا شيء معقول لا ينكره إلا فاقد العقول ، ولكن الغنى والعز والشرف تورث أهلها البطر إذا لم يكن للدين اصغاء ، ولا للحق اتباع .

قال الشيخ الشيبة في نهضة الأعيان ، وهو يصف القـواسم : امتـاز القواسم في الخليج بالصلابة والشجاعة ، وحب المغامرة ، فأقلقوا بريطانيا ، في ذلك الوقت ، أكثر مما أقلقتها أية دولة أو منطقة أو أمة في الخليج العربي فكانوا يهاجمون كل سفينة تحمل العلم البريطاني ، سواء كانت للهنود أو للانجليز وكانت مناقبهم تجل على العدّ والاحصاء . ولا يُتعرض لها بالاستيفاء والاستقصاء ، جمعوا بين البأس والندى ، وقمعوا من اعتـدى من الأعداء ، زاحم القواسم أسطول شركة الهند في وقتها ، وهي في صدر قوتها وجيوش الانكليز البرية ، ولم تكن أعمالهم أعمال قرصنة كما حسدهم الخصم ، فوصفهم بها ، وإنما كانت حرباً دفاعية لاجلاء الانجليز عن السواحل العربية لرفضهم دفع الضرائب والرسوم المتفق عليها مع شركة الهند حين دخول سفنها إلى الموانىء العربية . وقد خاض القواسم معارك عنيفة أسروا فيها السفن الانجليزية وصادروها علانية ، ودمروا الكثير منها ، ولم يكتفوا بطردها من موانئهم وشواطئهم العربية بل طاردوها في البحر ، وسواحـل الهند وأفريقيا ، حتى أن حاكم بومبي الانجليزي استجار بحكومته ، عندما هاجمت قوات القواسم إحدى السفن الانجليزية ، على بعـد ستين ميلا من بلاد بومبي نفسها في أوائل سنة ١٨٠٥ ، فشكى إلى دولته قائلا أن سفن القواسم تلحق السفن الانجليزية أحياناً حتى شواطىء الهند ذاتها فتغلب عليهـا ، أي ولم تزل تطاردها بجرأة وإقدام فائق . وعزم متين وقد تفوقت شمس

الحكومة القاسمية في أواسط القرن الثامن عشر . وفي مستهل القرن التاسع عشر تميزت بالسيطرة على القبائل الأخرى . لا في البحر وحده فقط بل في المدن الساحلية . وامتد نفوذها على منطقة ساحلية طولها أكثر من نحو مائة وخمسين ميلاً وقد ذكر بعض المؤرخين الأوربيين أن قبيلة بني باس التابعة لسلطنة مسقط خضعت للقواسم في ذلك الوقت ، وكانت امارة / القواسم / في حدود قطر ، إلى ماوراء خور فكان . أي أنهم سيطروا على هذه الرقعة الشمالية من عمان كلها ، حتى أن شناص كانت تابعة لهم ، وقد حمى حصنها من المدفعية البريطانية موقعه الطبيعي ، وفي ذلك الوقت بلغت قوتهم البحرية الذروة حيث قدر أحد ضباط الاسطول الهندي البريطاني عدد المراكب التي يستخدمها القواسم بثلاث وستين سفينة من الحجم الكبير ، وثمانمائة من الحجم الصغير[1]

وقال الشيبة : ان سلطان بن أحمد ، جد سلاطين مسقط وأفريقيا ، صار ضحية معاداته للقواسم وذلك سنة ١٢١٩ هـ – ١٨٠٤ م ، قلت : أن سلطان بن أحمد لم يعاد القواسم ، وانما قتل على ماقيل خطأ إذ كان القواسم قد قطعوا البحر على بريطانيا فجاء سلطان خارجاً من البصرة فلما رأى القواسم السفينة اعترضوها وهاجموها وهم لايعلمون ان سلطان بن أحمد فيها ، أو هو صاحبها ، فكان من قدر الله أن دارت رحى الحرب بين الطرفين وأطلقت المدافع على متن البحر ، فقدر الله قتل سلطان ، ولما علم القواسم بقتله وأنه هو الذي كان صاحب السفينة تلاوموا ، ولات

---

١ – حاقت الاضرار الكثيرة بسلطنة مسقط في الوقت الذي كان القواسم فيه يتوسعون في سيطرتهم ويزدادون قوة .

حين مندم لأن القضاء قد نفذ حكمه ، ولا راد لأمر الله عز وجـل وهذا أولى بما يقال أن القواسم أرادوا قتل المذكور .

قال السالمي : وقد كان قتل سلطان بن أحمد بلنجة من الجانب الشرقي للخليج . وذلك لما كان راجعاً من البصرة فارسى مراكبه بهـا فخرج القواسم عليه في ليلة ١٢ شعبان بالتاريخ المتقدم هجرياً فقتلوه . وبعد قتله قام السيد سعيد بن سلطان وعمه قيس بن أحمد حاكم صحار ، وقرروا الزحف عليهم بخور فكان سنة ١٢٢٢ هجرية ، فكانت الحملة التي فيها قيس من جهة البر ، والحملة التي فيها سعيد بن سلطان من جهة البحر ، وقاتلهم القواسم حتى أصبحت خور فكان بحيرة من دم ، أي وقعت فيها معركة عنيفة كثر فيها القتل الذريع ، حيث أن الكل التقوا على السلاح الأبيض غالباً ؛ وكان الجنود قد أحاطوا بالقواسم من كل جانب فكان الهجوم والالتقاء أعنف فقضى الله بحكمه بين الطرفين بقتل قيس بن أحمد أخ السلطان المقتول ، وعم السلطان الثائر ، وهلك في القضية كثيرون ، وقتل قيس بن الامام وكثير من جنوده ، وقد مات أكثرهم غرقاً . لأنهم أرادوا أن يلتجئوا إلى السفن فلم يدركوها . وبعد ذلك قرر السلطان الانتقام من القواسم بمساعدة الانجليز ، فكان الأمر في حد الخطورة البالغة . هذا ماذكره الشيخ الشيبة في هذا المقام ، وهو يدل على عظم شأن القواسم وشدة مراسهم ، ومتانة سطوتهم ، وضخامة شكيمتهم ، فتراه يقول : امتاز القواسم بالصلابة والشجاعة وحب المغامرة ، وركوب الأخطار ، والترفع والتعالي ، وانظر قوله : فاقلقوا بريطانيا مع أن بريطانيا « بلقبونها العظمى » وخصوصاً في ذلك العهد ، هي في نشاطها الضخم في الشرق

الأوسط ، فكانوا يهاجمون كل سفينة تحمل العلم البريطاني ، مما يدل على قوتهم الحسية والمعنوية وطول أيديهم العربية ولا يتعاطى العظيم إلا العظيم ، ولا يرد عليهم انهزامهم فيما بعد ، فان الحروب سجال ، وهـــذه الدول الكبرى تسقط في الحرب مع توفر أحوالها واستقامة أمورها وتمام أنظمتها ، فلا تزال الحرب بين الامم كلها سجالا ، حتى بين الأنبياء وأعدائهم ولا فخر لبريطانيا بهزيمة قوم كالقواسم بالنسبة إليها ، وهي في حد قوتها ، ورقيها في أعلى ذرى الدول الكبرى ذات السيادة العالمية . وقد تجرأ القواسم على حرب الأساطيل البريطانية الضخمة المزودة بالمعدات الدولية والسلاح والعتاد والجنود المدربين ، وقابلوها بقلوبهم العربية الحرة التي لاتعرف الذعر ولا تهاب العدو ، بعدده ، أو بعدته ، وهذا يسجل للقواسم الفخر الخالد لأنهم كانوا يناطحون الجبـــل القوى في البحر ، فكم أسروا من السفن البريطانية وقادوها صاغرة ، رغم عدتها الموفورة بها ، وذهبوا بها إلى أماكنهم راغمة . في حين كان العالم خاضعاً لها ، واعزز بقوم يغيرون على بريطانيا في موانيء الهند ، ويحتلون سفنها حتى يضيق الوسيع على قناصلها ، وقادة أساطيلها فتستصرخ لندن ، لتعزز لها دعائم وجودها هنا ، مع أن القواسم لم يكونوا مع جيرانهم على وفاق ، ولا مع الدول على اتفاق ، فهم مازالوا في حرب داخلية بالاضافة إلى حرب انجليزية هندية ، وقد مدوا لهم امارة من حدود أعمال مسقط ، إلى حدود قطر ، بحيث سيطروا على هذا القسم من القطر العماني ، وأكرم بحكومة يقوم لها في البحر العربي ثلاث وستون بارجة حربية كبيرة بالاضافة إلى ثمانمائة سفينة صغيرة تناصرها ، ولو كان للقواسم من الأساطيل بعض ما لبريطانيا لما رأت بريطانيا بحر العرب بعينها ، وقد صارع القواسم سلطان بن أحمد مع علمهم بأنه سلطان عمان ، حتى

قضوا عليه . ولقد انتصر عليهم آل سلطان بن أحمد بالانجليز ، ولولا الانجليز لكان خطب القوم كبيراً بالنسبة إلى مسقط . ولسوف ترى العراك الدامي بين القواسم ، وبين سائر أعدائهم ، من الافرنجيين والايرانيين والعرب أيضاً ، وقد هاجموا البحرين وطردوا جنود حاكم مسقط منها ، حتى قررت بريطانيا أن أعمال القواسم هذه مدفوعة من الرياض ، وإذا سلمنا أن الرياض أعانت القواسم بالمال والسلاح أو بهما معاً ، فهل أعانتهم بقلوب يصارعون بها أكبر الأخطار العالمية إذ ذاك . لاوربك لكن القوم أبطال معال ، ورجال شرف . وأفعالهم تدل عليهم ، والحق يقال ، وسوف ترى أيها القارىء الكريم عنهم ما تقضي به العجب ، بما حكته بريطانيا نفسها عنهم . ولم يذكره المؤرخون في عمان ، حيث ان الناحية الشمالية انفصلت عن الداعي العماني ، وأصبحت تبني وتشيد وحدها ، معلنة بذلك انفصالها كسائر امارات الساحل بجانبيه العربي والفارسي ، وعمان مشغولة في داخليتها بهناوي وغافري ، والسلطان والامراء يتنافسون في الملك ، كالجبري وأتباعه ، ويشقون العصا وينقضون الحصى ، وهم بين بكاء وعويل ، وبذلك تجزأت عمان فأصبحت دويلات وامارات ومشيخات ، ساحلية وداخلية ، وهكذا حتى لعبت بريطانيا بها وقضت على الامامة العمانية ، ليسهل لها قياد الكل ، وترى صالحها في مبدأ / فرق تسد / ولنترك الآن ماجاء للشيبة من الأقوال إلى حينه عند الكلام على ما للقواسم من الأعمال مع بريطانيا والدول الافرنجية . ومما يدل على بسالة القواسم بين القبائل الأخرى أنهم صارعوا ايران صراعاً عنيفاً استمر طيلة قرون ، وحاولوا ضم البحرين ، وطردوا جنود سلطان مسقط منها ، وأغاروا على عمان حتى هاجموا الرستاق في سنة ١٧٨٢ ميلادية ، وهي من العواصم الكبرى بعمان الشرقية ، ولعب

القواسم دوراً هاماً مع الوهابيين ، للاستيلاء على عمان الغربية المتبعثرة أيام اختلاف أهل عمان ، وتناحرهم ، لاسيما أيام فتن الهناوي والغافري . وقد قبض القواسم على السفن البريطانية الهامة منها السفينة المسماة / لاي / ثم قبضوا على السفينتين (شانون وتريز) ثم السفينة العظمى المسماة / مورننجتون/ المسلحة باثنين وعشرين مدفعاً ، وهي من أضخم السلاح البحري البريطاني ، وما أغنت مدافعها عن سطوة القواسم عليها بل قادوها راغمة . وكان الانجليز يسمون القواسم قراصنة تصغيراً لقدرهم وهضماً لشرفهم ، وينشرون عنهم ذلك في المجلات العالمية ، أمثل هذه الأعمال يقال لها قرصنة ؟ ويقال لاصحابها قراصنة !. ولكنه لا يضر السحاب نباح الكلاب ، لكن الاستعماريين تقتضي سياستهم هضم الأمم التي يريدون هدم عزها وكسر قواها ، إذا خافوها على أنفسهم ، ومثل هذا كثير ، مما يقوله الاستعماريون خصوصاً في العرب الصلاب الأشداء الذين يحكمون السيوف في الاعناق ، فيطيرون الهامات عند التلاقي ، ولا يضر السيف إذا قيل أنه صنع من سيء الحديد ، وهو إذا مر على الهدف قضى عليه ، فلقد اضطر القواسم بريطانيا أن تجهز أسطولاً ضخماً في الخليج ليقاوم القواسم فكان الاسطول مكوناً من ثماني طرادات من سفن شركة الهند المسلحة بالسلاح الفعال الضخم ، ومعها سفينة صاحبة الجلالة المسماة / فوكس / التي بقيت مرابطة في الخليج تلاحظ حركات القواسم وسكناتهم ، وهذا كله يقرر أهمية القواسم في حواس الدولة العظمى التي لا تخفى أهميتها على أحد في الشرق . ومما يؤيد أهمية القوم هجومهم على السفينة المسماة (ليفلي) على ساحل كوجرات خارج الشاطىء ، وان لم تنجح العملية القاسمية إلا أن الارادة نفسها لها قيمتها ، فلا يحاول هذه المحاولات إلا الرجال الأبطال ، فالسفينة المشار إليها كانت مسلحة

بأسلحة ثقيلة ، فألقت قذائفها وأورت نيرانها لدفع العدو المهاجم ، كما قضوا على السفينة المسماة / منيرفا / بعد اشتباك حار ، دار بين الطرفين ، فكانت أمنية الليوث القواسم تقسم المنايا على من بها وأردفوها بأكبر منها ، وهي سفينة الشركة المعظمة المسماة (سيلف) ، وتبلغ حمولتها ثمانية وسبعين طناً ، وعليها ثمانية مدافع . وقد حال بين الفريقين وصول الاسطول الذي كان يقل سير (هاربفوردجوني) عائداً من ايران أثناء الحادث . وبعد ذلك صال أسد الخليج واعتلوا ظهرها رغم كل صاد ، فأوقعوا على ظهرها مذبحة ، كما نحدث أهلها عنها حين عدت عليها الاسود القاسمية بعزائم تعدم المثيل لها ولم ينج إلا قائدها (جراهام) حيث اختفى بجراحه العميقة على ظهرها والسكرتير الايراني الذي اختفى في إحدى سلكها ونجا هذان بسبب ظهور سفينة صاحب الجلالة فظن القواسم أن مددا قد حضر ، فخافوا من خطر السفينة « بيريد » التي يقودها القائد « كوربيت » وهي سفينة ضخمة ، ذات أهمية كبرى ، ومسلحة بستة وثلاثين مدفعاً ، ولما رآها اسطول القواسم هرب منها وترك سيلف وراءه . وقامت السفينة المسماة (بيريد) بطاردة الاسطول القاسمي ، ولكن الخوف استولى عليها فلم تقدر على الاقدام الفعال ، وكل يرى الموت صعباً ، وانما غاية ماعندها التهييب على القواسم لتكون لها السلامة ، فقس على هذا أحوال القواسم الابطال .

قال الخبير عن نفس القضية وهو الكاتب الانجليزي لوريمر المطلع على الحوادث الخليجية في كتابه دليل الخليج[1] وأكثر النقل منه ليكون على القوم حجة وأقوى دليلا وأوضح محجـــة : وقعت في مثل

---

١ ـ كتاب دليل الخليج المطبوع بقطر باللغة العربية .

الاول ، سفينة للشركة في رصد القواسم ولكن قائدها بدأ باطلاق نيرانها مشتعلة ودام الاشتباك بالمدافع حوالي ساعة ، حتى فر الاسطول العربي وتبعته السفينة المقاتلة المسماة ، « نوتيلوس » بنيرانها إلى مسافة ، ولو تساوت الحالتان لكان هناك اعتبار الوزن فان القواسم عزل بالنسبة إلى الرجال الانجليز الذين لا يدخلون الا بأسلحة هائلة ضخمة ، فيصادفون هذه الاخطار التي لا تزال الغلبة عليهم فيها على أكثر الأحوال . قال[1] المؤرخ : استفحل الخطب القاسمي على العدو ، وبلغت جرأة القواسم في الخليج العربي ، واستهتارهم حدوداً لا يمكن تجاهلها ووضح اتجاه هذه القبيلة في مطلب قدمه شيخ رأس الخيمة ، حوالي هذا الوقت ، يطلب فيه أن تدفع له حكومة بومبي أجر الخدمات والتسهيلات التي يقدمها لسفنها في الملاحة بمياه الخليج ، وقد قدر عدد اسطول القواسم في ذلك الوقت بحوالي ثلاث وستين سفينة كبيرة وثمانمائة وثلاث عشرة سفينة صغيرة ، وهذا كبير بالنسبة إلى القواسم في ساحل عمان لأن هذا العدد من السفن لا يكون لأحد غالباً إلا وهو في الذروة العالية بين الزعامات .

قال : وكان على ظهور هذه السفن جميعها أكثر من تسعة عشر الف رجل ، وهذا الجيش من أعظم جيوش الدول العربية في الخليج . أيقال لمثل هذا قرصنة ؟ كما تقول بريطانيا في القواسم ، ويطلق على هؤلاء القوم قراصنة ؟ بينما هم أبطال تلك الحرب التي اسهرت بريطانيا واطارت النوم من أعين رجالهـــا ، فانظر أيها العاقل في تصغير هؤلاء القوم « الانجليز » لرجال العرب ، وهل هذا في الحقيقة ، الا ملك عظيم يمشي على متن البحر بأساطيله الضخمة وسفنه الفخمة ، ورجاله البواسل ، فان جيشاً عربياً في

---

١ ـ ورد ذلك في الصفحة ٩٨٤ من كتاب دليل الخليج .

ساحل عمان يمخر عبابه حاملاً تسعة عشر الف رجل لعظيم ، عند من يعتبر الامور على اصول الاعتبار ، وان له لشأنا وهذا شيء ننقله في هذه الصحائف عن رجال بريطانيا ، لانه كان سراً مخفياً لايذاع للاطلاع عليه ، ولايكشف له بين العرب قناع ، فاظهرته الاقدار ، وقد علم ان الجيوش بقدرها تقدر زعامتها وامراؤها ، ولو زحفت بريطانيا بقواهـا الباهرة ، لكانت النتيجـة قاسية عليها وعلى عمان كلها ، لأن القواسم استبسلوا وعشقوا القتال ، ولا نريد الان ان نستطرد في موضوعنا هذا ، وقد قدمنا سير الكتاب كما أردناه ، ولكننا جئنا بـــه كاستدلال ورد على من يظن ان أمر القوم ، « أي القواسم » كان غير بعيد المدى وانه قرصنة فقط ، لا أهميـة له من الوجهة الدولية ، مع ان له عظيم الأهمية كما رأيت ، فلقد خاض القواسم معارك تضع على هامتهم طغرى الشرف وعنوان المجد ، حيث بلغ جيشهم مدى بعيداً في العدد والعدة ، وأخذ من الشجاعة حظـه حتى روع هـذه الدولة العظمى فأقبلت عليه بكل مالديها لتمحوه من الوجود ولم تستطع ، وان ضعف ، فالدهر يتقلب هكذا ، وتلك الايام نداولها بين الناس ، ولولا القواسم لفعلت « بريطانيا » في ذلك العهد أفعالاً شنيعـة ، ولطغت على العرب في الشرق ، لكنها لما رأت نيران القواسم تلتهم ماتلاقي ، وتشتعل بشدة ، خافت على نفسها ، وقدرت أقدار العرب ، ونظرت اليهم بأعين الكبر ، وجاملتهم مجاملة وافية بالمقصود ، ولاريب فان القوم اهل امجاد عريقـة ، ولا يخفى ان العرب فتحوا الممالك الكسروية في أيام عزها ، وقضوا على المعالم القيصرية الرومانية في حال قوتها ، وهم في غاية من القلة بالنسبة إلى عدوهم ، ففتحوا مصر بنفر يسير ، وفتحوا دول الشام وتغلغلوا في المغرب إلى حيث لا يخفى مقامهم ، وأهل عمان من أولئك ، والقواسم من أهل عمان ، فلا بدع اذا أخذوا حظهم ، ممن انبتته أراضيها الحرة ، وأنجبته أعراقها الطيبة .

الفصل الثاني

١ ـ أعمال القواسم مع الايرانيين

٢ ـ القواسم يهاجمون السفينة باسين

٣ ـ القواسم يهاجمون السفينة شارون وتريمر في فارو

٤ ـ القواسم يهاجمون السفينة مورننجتون وما اليها من السفن

٥ ـ العلاقة بين سعيد بن سلطان والوهابيين

٦ ـ القواسم والعودة الى القتال

٧ ـ القواسم يزحفون على الاعلام البريطانية

١ - أعمال القواسم مع الايرانيين الأقوياء

عندما كان القواسم يحاولون الزعامة الكبرى ، وراموا ان تكون لهم سلطنة ورئاسة في الخليج العربي العماني ، قاموا بمهاجمة السواحل الايرانية ، ومطاردة الايرانيين ، ليقبضوا على أزمة الامور ويتملكوا النواصي القوية .

جاء في دليل الخليج[١] : استولى الشيخ راشد بن مطر القاسمي وهو حاكم رأس الخيمة على باسيدو ، في جزيرة قشم ، وهناك أقام قاعدة أثرت تأثيراً كبيراً على عائد التجارة في بندر عباس ، وكانت في ذلك الوقت مقسمة بين الانجليز والايرانيين ، وقد أدى ذلك إلى قيام حملة بحرية بريطانية على الشيخ راشد ، في ابريل سنة ١٧٢٧م ، يقودها وكيل شركة الهند الشرقية في بندر عباس ، وكانت السفن المستخدمة في هذه الحملة ، تضم الفرقاطة بريطانيا ، والسفينة المسلحة بنجال وسفينتين صغيرتين ، من نوع الاولى ، وكانت النتيجة ان استعادت السلطات البريطانية نصيب شركة الهند الشرقية ، حيث ارغمت الشيخ راشد على التأخر عن صدده لتكون هي الصايد بعدما كانت المرادة عن عوائد بندر عباس ، من الشيخ

---

١ ــ الصفحة ٩٦٦ من الجزء الثاني من كتاب دليل الخليج .

المذكور ، والمعنى انهم اتفقوا واباه على ذلك ، فرأى ان القوم تألبوا عليه بشدة ..

وقال لوريمر[1] : اقام القواسم على الساحل الايراني وجزره ، وعقب موت نادر شاه في سنة ١٧٤٧م ، وجد ملا علي شاه نفسه ، وهو حاكم بندر عباس وما جاورها ، والقائد البحري العام بمنطقة الخليج ، مطالباً بدفع الجزية لأكثر من ناحية ، وهو معرض للتهديد أيضاً ، من جانب ناصر خان حاكم (لار) الوارثي ، فتحالف مع القواسم وتزوج ابنة شيخهم راشد بن مطر القاسمي تعزيزاً لهذا التحالف ، وفي سنة ١٧٥٩ جاء ملا علي بسفن من هرمز لمناصرة شيخ القواسم على امام عمان ، وفي السنة نفسها ، أي سنة ١٧٥٩م قامت بعض سفن القواسم ، وكان مفروضاً انها تقوم بجولة ضد المير مهنا زعيم قراصنة ريج على الطرف الشمالي للخليج ، باضطرابات في بندر عباس وأوقعت بعض الخسائر الجسيمة بالعاملين بالوكالة البريطانية هناك ، ولم يقدم أي تعويض من جانب الحاكم القاسمي حيث كان مقصوداً بالذات .

قال لوريمر : وفي يوليو سنة ١٧٦٠ م قام القواسم الذين يتضح أنه كانت لهم قواعد (على جزيرة قشم وبلدة لافت) وكذلك في لنجة ، إلى ان قال ، وفي هذه المحاولة قدرت قواتهم ، أي القواسم ، بحوالي ألف رجل يقودهم الشيخ راشد بنفسه ، ورداً على ذلك فان حاكم (لار) قام بمظاهرة بحرية على لنجة ورأس الخيمة ، لكنه وجد كلا من الموقعين محصنا

---

٢ ـ الصفحة ٩٦٧ من الجزء الثاني من كتاب دليل الخليج .

تحصيناً كافياً ، أي أن القواسم كانوا في يقظة ترعى الديار ، إذا جاءهـا العدو المفاجيء ، ووجد القوم على اهبة الاستعداد ، لكنه نجح على أي حال في تدمير قشم ، بعد أن ضربها بالمدافع ، وذلك لأن القوم تأهبوا للقائه في لنجة ورأس الخيمة ، فراح عنها إلى قشم ليجدها في غفلة ، فنال غرضه منها . وفي سنة ١٧٦١ م استدعى ملا على عرب رأس الخيمة لمعاونته ، في الهجوم على هرمز ، وكان اهل هذا المكان ومعهم عرب بني معين قد اسروا عائلته ، أي عائلة ملا علي ، في قلعتها ، التي تدعى قلعـة هرمز ، وحدثت هجمتان عليها ، لكنهما فشلتا ، ولم يتمكنا من الاستيلاء عليها تماماً .

قال لوريمر : وفي خلال هذه الاضطرابات استولى القواسم على بعض السفن العائدة لمسقط ، كانت تحمـل ارزاً وغيره من السلـــع للوكالة البريطانية في بندر عباس ، وشارك ملا علي شاه في هذا العمل ، قلت : وهذا خطأ في السياسة حيث أن هذا يدخل الحرج في قلوب أهل مسقط ، وان كانت سياسة القواسم ترى أن هذا الحال يزيد عدوهم قوة ، ولكن بالنظر إلى حكومة مسقط وهي سلطنة عمان العربية العريقة[1] ، فيكون القواسم قد عادوا الجانبين وهذا غير مرض في السياسة الوقتية التي وقع القواسم بين أظهرها ، وفي سنة ١٧٦٣م عقد صلح ثلاثي بين معين من ناحية وبين القواسم من ناحية ثانية ، وبين ملا علي شاه من ناحية ثالثة ، وكان من شروط هذا الصلح تنازل شيخ رأس الخيمة عن السفينة الرحماني ،

---

١ ــ كان القواسم يرون ان حكومة مسقط في حينها متحالفة مع البريطانيين الذين هم أعداؤهم وأعداء شعب الخليج العربي (الشارح) .

التي كان قد استولى عليها الشيخ المذكور وهي من أعز سفن اسطول سلطنة عمان التي فتحت فاو البصرة ، ثم تم تقسيم عوائد جزيرة قشم بالتساوي بين الأطراف الثلاثة ، وقد وقع على هذا الصلح بريطانيا نفسها أيضاً ، إذ هي صاحبة الأمر والنهي .

وقال لوريمر[1] : إنه في اكتوبر سنة ١٨١٧م قام القواسم بغارة على جزيرة الشيخ سعيد فنهبوا واحرقوا القرية الكائنـــة في طرفها الغربي ، وساقوا كل الماشية الموجودة فيها ، وذبحوا عدداً كبيراً من أهلها ، وبعد ذلك بقليل دخلت سفنهم مضيق عسالوا واستولت على خمس سفن وطنية ، كانت هناك ، يقدر ثمنها وما عليها من حمولة بأكثر من ثلاثمائة الف روبية ، وكان هذا اذ ذاك مبلغاً ضخماً ، وقد اعدموا بحارتها جميعاً ، وبعد أن مكث اسطول القواسم مدة يومين في عسالوا ، قام بهجمة على كانجون ، كما هاجم (دايثير) أيضاً ، لكن أهل هذا الميناء الاخير صدوه واجبروه على الخروج إلى عرض البحر ، ولم يتمكن منهم بشيء ما ، وكانت هذه الاعمال على طول خط الساحل الايراني ، الذي كادوا ان يجتاحوه قريباً من بوشهر ، وقد أشاعت هذه الاعمال الذعر في المدينة وبذل حاكمها جهوداً كبيرة لاقناع الناس بالبقاء فيها ، وعدم الفرار إلى الداخل ، أي داخل ايران ، وطمأنهم برد العدو المهاجم ، واسكن من روعهم وقلقهم ، وان لا خوف عليهم ، وهذا واجب كل امير ، في كل ازمة تحل بالمواطنين قريباً من دارهم ، وقد نجح الامير في مسعاه .

---

١ ـ الصفحة ١٠٠٣ من كتاب دليل الخليج .

٢ ـ القواسم يهاجمون السفينة باسين

في العاشر من شهر مايو سنة ١٧٩٧م هاجم اسطول القواسم بقيادة الشيخ خالد امير الرمس ، المؤلف من القوارب ، السفينة المسماة (باسين) واستولى عليها ، رغم انها رفعت العلم البريطاني عندما رأت القواسم يزحفون عليها ، فلم يكن ذلك رادا لاسود البحر من اقتناصها رغم ارادتها ، والمضي بها الى رأس الخيمة ، حيث أحتجزت مدة يومين ، ثم اطلق سراحها بأمر من الشيخ راشد القاسمي ، وتلك العملية اهانة كبرى لبريطانيا صاحبة الحول والطول في الشرق كله لا في الخليج وحده ، ولو أنهم أعادوها ، فانهم لم يدفعوا التعويض الذي يمكن أن يخفف من آثار تلك الاهانة .

وبعد ذلك كر القواسم على السفينة الاخرى المسماة (فيبر) ، ففي خلال شهر اكتوبر من تلك السنة ، عندما كان اسطول قاسمي يقوده الشيخ صالح شقيق الشيخ راشد ، راسيا في بوشهر بقصد قطع الطريق البحري على سفن صور في أثناء عودتها من البصرة ، تلقى نبـأ طلب ممثل الحكومة الهندية ، في بوشهر ، كمية من البارود ، وطلقات المدافع من سفينة الشركة المعظمة (شركة الهند الشرقية) « كما يقول المؤرخ الانجليزي لوريمر ، وهي السفينة المسماة (فيبر) المسلحة بأربعة عشر مدفعاً ، وهي عبارة عن حصن

عظيم موفور العدة سلاحاً ومؤونة ، فقبض القواسم على هذه العدة كلها ،
وبعد تسلم هذه الذخيرة الهامة ، قام اسطول القواسم ، بغتة ، كما يقول
الانجليز ، بمهاجمة السفينة المشار اليها وهي راسية في الميناء لاقتيادها في
أثناء انشغال بحارتها بتناول طعام الصباح ، الافطار ، وبسرعة ومهارة رفعت
السفينة مرساها وابحرت حتى تتفادى صعود القواسم على ظهرها ، ووقع
الاشتباك بين الطرفين ، وعقب ذلك لم تفلت (فيبر) من مطارديها فقط ،
بل واستطاعت أيضاً اجبارهم على الهرب ، ثم ذهبت إلى عرض البحر ،
تطارد الغزاة ، وفي هذا الاشتباك قتل قائدها الشجاع الملازم (كاروتون)
وعدد من بحارتها تعداده ، على أقل تقدير ، اثنان وثلاثون رجلاً ، وقد كان
عدد بحارتها قبل المعركة حوالي خمسة وستين رجلاً ، ويقال ان الشيخ صالح
القاسمي شقيق الشيخ راشد قد راغم أخاه في هذا ، أي كأنه وقع بدون
رضى الشيخ المذكور ، ولعله حيث ارجع السفينة الاولى إلى أهلها راغمه
اخوه بهذا الفعل الدامي ، حيث أعطى البريطانيين كلاما يرى وجوب
الوفاء به ، بينما يرى الشيخ صالح ان البريطانيين لاذمة لهم ، وانما هم حرب
على المسلمين ، كيف كانوا ، واينما كانوا ، والصلح معهم نوع من السياسة
لا يراها الشيخ المذكور ، وهذا يدل على شجاعة القواسم البالغة حدها .

وفي سنتي ١٨٠٤ و ١٨٠٥ عندما كان الوهابيون في البريمي زاد القواسم
من أعمال القرصنة — على حد تعبير الانجليز — والخروج على القانون في
البحر ، مما كان يوصف لدى حكومة الهند بأنه يرجع إلى نفوذهم ، قلت :
لأنهم يصفون أنفسهم بذلك ، والمقصود بحكومة الهند بريطانيا ، وهي التي
تقول بالقانون المشار إليه ، وتدعي الاحتفاظ بالبحر ، والمراد أن تؤمن

طريقها إلى الهند ومرورها في البحر العربي ، وتفرض عليهم قوانينها ، وتضع على كواهلهم الامها ، غير أن الدراسة المتأنية للحقائق ، بعد ان انقضى ذلك أكثر من مائة عام على وقوعها لا يؤيد الرأي الذي كان سائداً في ذلك الوقت والمعنى ان النظر في فواعل ذلك القانون وعدم العمل به من جانب القواسم .

قال : والذي يقول ان الاحداث التي وقعت لم يكن القواسم فيها – سوى أداة تقوم بالعمل رغماً عنها – فان هذا القول يصدر عن دخيل أجنبي ، وانظر خطأ قوله – ما القواسم إلا ادوات بحركة للعمل المشار إليه – وقوله – فالطابع الحقيقي للقواسم كما يكشفه مسلكهم في سنتي ١٧٧٨/١٧٧٩ ، أي في السنتين المذكورتين معاً ، والمعنى ان الحقيقة الفعالة هي القواسم ، وان كانوا قد استنشقوا نفحات وهابية حركت نشاطهم ، فالفاعل الحقيقي هو العزم القاسمي لاغير ، كما يدل على ذلك ما يأتي في تاريخه ، وما تكشفه ايضاً سياسة حكومة بومبي يؤكد لنا أن أية محاولة للبحث عن تأثير أو نفوذ ليس إلا جهداً سطحياً لا يفيدنا في شيء .

في سنة ١٨٠٤م كان عدد من السادة الانجليز ، وجماعة من رعايا الهند البريطانية ، قد أسرتهم سفينة فرنسية ثم اطلقت سراحهم في بوشهر ، ومنها ركبوا سفينة وطنية لتنقلهم إلى بومبي وفي الطريق بين جزيرة طنب ورأس مسندم امرهم قراصنة القواسم ، فانظر أولاً في هذا التعبير ، إذ يقول في البريطانيين « سادة من الانجليز » وفي القواسم « قراصنة القواسم » والحقيقة انه لايضر السحاب نباح الكلاب ، فاذا كان الانجليز سادة ، فالقواسم في بلادهم من السادة أيضاً ، وان كان الانجليز بعيداً عن بلادهم قراصنة ، فالقواسم في بلادهم يدافعون عن حريتهم وأموالهم .

قال : وبعد أن خرج بعضهم في حركة المقاومة ، وكان عدد منهم تابعين لسفينة الشركة المعظمة (فلاى) التي جنحت إلى جزيرة قيس في أثناء مطاردة السفينة الفرنسية لها ، والقيت الخزنة إلى كانت فيها ، والرسائل التي كانت تحملها ، إلى مكان ضحل المياه ، وفي أثناء عودة هؤلاء الافراد الهابطين في الخليج حاولوا البحث عن الخطابات لاستعادتها ، فحصلوا عليها ولكنهم اضطروا لابقاء الخزنة في مكانها ، وحين وجدوا أنفسهم اسرى في رأس الخيمة دون بارقة أمـــل في اطلاق سراحهم ، تطوعوا في مقابل الحصول على حريتهم ، بأن يرشدوا القواسم إلى حيث كانت الخزنة ، وقد تم هذا بالفعل ، لكن العرب أخذوا الخزنة بالاتفاق مع أهل جزيرة قيس ثم رحلوا بعدها تاركين الاسرى لمصيرهم في هذه الجزيرة المقفرة ، والمعنى أن القواسم اسروهم وقادوهم إلى رأس الخيمة ، حيث بقوا تحت راية الاسر ، حتى فكوا أنفسهم بذلك . وغنم القواسم الخزنة الطائلة في تلك السفينة ، وشاركهم فيها أهل جزيرة قيس ، وقد هلك الاكثر من بحارة السفينة وركابها ، اذ غرق بعضهم وقتل بعضهم ، بينما ذهب البعض الآخر ضحية الارهاق والتعب .

* * *

٣ - القواسم يهاجمون السفينة شانون وتريمو في فارو

في عام ١٨٠٥م هاجم صقور البحر العماني ، القواسم ، السفينتين شانون وترير ، وكانتـا سفينتين بريطانيتين يملكهما مستر مانستي ويقودهمـا كابتن بابوك ، وكابتن كمتجر ، مقيم شركة الهند الشرقية المعظمـة في البصرة ، قرب جزيرة فارو واستولوا عليها ، بعد ماقضوا على من فيها ، واعدموا بحارتها الهنود الذين كانوا عليها جميعاً وحكموا على الكابتن بابوك بقطـع ذراعه ، اذ رأوه يطلق النار من بندقية خلال الاشتباك ، فضربوه بالسيف تنفيذاً للحكم ، فقطع ذراعه ، أما بقية الاسرى الاوربيين فقد نقلوا إلى الساحل العربي حيث استطاعوا الفرار واحداً بعد الآخر ، حتى خرجوا من الاسر جميعاً .

وبعد انتهاء الواقعـة أصبحت السفينـة شانون من نصيب القواسم في ريبج ، في حين أصبحت ترير من نصيب أهل رأس الخيمة ، ثم تحولت كلتا السفينتين إلى سفينة حربية ، وأصبحتا تستخدمان بانتظام في عمليات القرصنة ، ويبدو أن النصر لم يكن بكثرة السلاح والقوة ، فحسب ، بل النصر بيد الله يضعه حيث يشاء ، لا كما يقـــول العصريون ، حيث يقولون ، ان النصر يأتي اليهم بأعمالهم ، وليس للانسان ان يحقق امراً من غير باعث سماوي ، بل النصر من عند الله عز وجـل يضعـه حيث

بشاه ، ثم راح المستر مانتي يشكو ما وقع عليه إلى الوهابيين في الدرعية ، ظاناً أن عمليات القواسم تنبعث من الوهابيين ، وان بامكانهم اصدار الامر اللازم لرد السفن المشار إليها لأهلها ، ولم يكن الامر كما ظن ، وانما كان القواسم أهل الحل والعقد في هذه القضايا وبيدهم ازمة امورها ، ولم يكونوا اداة للوهابيين ، بل هم اليد الحديدية التي تتناول النار ، وتخمد اللهب رغم القوة البريطانية .



٤ ـ صقور البحر يهاجمون مورننجتون

وغيرها من البواخر

لقد وضعوا على الشركة الانجليزية اسم «الشركة المعظمة» لكونها من عمل بريطانيا العظمى ، وكانوا يضعون هذا الاسم لها اجلالاً واعلانا لعظمتها ، وفي نفس السنة التي غزا فيها صقور البحر القواسم سفينتي «شانون وتريمر» عام ١٨٠٥م هاجموا «مورننجتون» باسطول ضخم ، يتألف من أربعين سفينة ، وقد أحاط هذا الاسطول بتلك الباخرة الكبيرة المسماة باسم الشركة المعظمة والمسلحة باثنين وعشرين مدفعاً من الطراز الوقتي ، وحاولوا الاستيلاء عليها ، ولكن الهجوم فشل ، وتراجع الاسطول المناوىء لها لأسباب عدة . هذه هي أعمال القواسم صقور البحر ، الذين تسميهم بريطانيا قراصنة ، والواقع ان بريطانيا لم تلق مثل هذا من أية أمة من أمم العالم ، عدا الدول الكبرى ، فكيف يسوغ لها وهي الدولة العالمية العظمى ، المتمدنة في العالم ، ان تسمي القواسم قراصنة ، لقد اضطرت بريطانيا أن تجلب عليهم بخيلها ورجالها وسفنها ومدافعها الثقيلة وترحف عليهم بأعظم قواتها ، وكانت تستغل الهند ، وتعزز قواتها لتأمين طريقها خوفاً من القواسم ولتأييد جيوشها ، ولو كان للقواسم جناح واحد

من الاجنحة التي تطير بها بريطانيا ، لما رأت في السماء الا القواسم وحدهم ولكنها مطبوعة على تصغير الاهميات العربية .

أقول : وذلك أمر تقتضيه السياسة في الاجيال وكم صغر العرب من أهمية أعدائهم لكن بغير الصفة التي تنتهجها بريطانيا ، فلقد صغر خالد بن الوليد من أمر الروم بحيث أقسم الا يلقى جيشهم الذي هو ثلاثون ألفاً إلا بثلاثين راكباً ، وذلك أمر شهير عند أهل التاريخ والسير ، لكن خالد بن الوليد وغيره من زعماء العرب لم يقل مثل ما تقوله بريطانيا ، وذلك يؤيد ماقلناه ، لقد كانت هذه القضايا معها مخفية ، وراء ستار ، ولا تسمح بالاطلاع عليها إلا لقناصلها ورجال حربها فتخبرهم بها للقوم من الأهمية ليكونوا على حذر واستعداد .

قال لوريمر : وحتى هذه المرحلة كان اتجاه حكومة بومبي نحو القراصنة متساهلاً إلى حد لا يمكن تفسيره ، أي اظهاره ، لئلا يؤثر على قلوب سامعيه ، فيدهشهم ويؤثر عليهم ، كانت بريطانيا تود اخماد هذه الفتن التي يشنها القواسم ضدها بغير طريقة الحرب وكأنهم يتغافلونها حتى لا يفهمها العرب الآخرون فيقومون ضدها من جانبهم ، لأن بريطانيا وضعت كل اهتمامها بالهند ولا تريد من العرب إلا الامان في طريقها فخوفتها صقور القواسم ، وأطاروا النوم من أعينها وأصبحت مهددة من جانبهم ، في كل يوم وكل حين ، ولا تمر لها أية سفينة في البحر الا على خوف متزايد ، ورعب وقلق ، لأن القواسم يتهاوون عليها كما تتهاوى الصقور على فريستها ، فكدروا عليها الصفو ، ومازالت الدماء تصب في البحر ، بسيوف القواسم .

وجاء في دليل الخليج : ان بريطانيا كانت قد تساهلت مع القواسم ،

لا في ضوء الأحداث التي سبقت ولا في ضوء الأحداث التي ستلي ، والمعنى ان الحكومة في الهند قد تساهلت معهم إلى حد بعيد ، قلت : هذا كما يقول الدليل : رجاء للقواسم ان يكفوا بأسهم عنها ، ولكن القوم كانوا يطلبون حقاً ، عاقدتهم عليه ، فخانتهم فيه ، ولذلك تجردوا للتهاوش معها ، وذلك أنها اتفقت معهم على أداء ضريبة المرور في مياههم الاقليمية ، ولم تف لهم بذلك ، وبقيت تراوغهم روغان الثعلب ، فراوغوها روغان الليوث الكواسر .

قال لوريمر : ويبدو أن هذه الحكومة كانت قـــد أصدرت أوامر مستمرة وثابتة بأن لا تطلق أية سفينة من سفنها في الخليج ، النيران إلا بعد أن تطلق عليها ، أي أن السفن البريطانية كانت مكلفـة بأن لاتطلق النار ابتداء على الغزاة حتى يبتدئوا باطلاق النار عليها . وكان هذا يجعل الطرادات الصغيرة والمفردة في خطر دائم بالنسبة لأعدائها ، في طريقتهم المفضلة ، وهي النزول إلى ظهر السفينة ، أي أنهم أمروا أن يتركوا الغازي حتى يظهر على السفينة التي يهاجمها ، لأن ذلك يحقق اعتـداءه ، فلا يستطيع أن ينكر أو يتعلل بشيء ما بدون ريب ، وهذا واضح وطيب إلا أنه أقرب لايقاع الخطر على السفينة والتمكين منها ، وحينئذ إذا حصل الالتحام على ظهر السفينة فويل للنازل من الداخل ، وان صح ذلك فهو خطأ في السياسة ، وغلط في الحزم ، وكان المقصود ، كما قلنـا ، أن السفينة قد اعتدت عليه ، وهذا معلوم ، لكنه رأي مصاب باخطر الامور . وان قيل بأنه ربما تعلل بأنه كان ماراً في البحر فكان عليه ما كان ، فليس هذا بشيء ، وقد صرح الأثر الاسلامي ، بأن من تيقن ان احداً يقصده

لقتله أو لأخذ ماله جاز له قتله قبل أن يصل إلى هدفه ، لكن من حيث ان بريطانيا لها سياسة غير سياسة الاسلام ، وهي بذلك ما كانت تهوى وقوع الشر بين رجالها ورجال الخليج ، وفي عملها هذا ان صح كف لجنودها بريطانيين كانوا أو غيرهم من الاعتداء على الناس ، إلا ان القواسم استنخونوها ، وغاب عنهم انها دولة أقوى منهم ، واوسع ميدانا ، وأعظم عدة وعدداً ، وكانت دول عظيمة تتحاماها وتتباعد عن شرها ، أما القواسم فتهاووا على سفنها أسراً وقتلاً واغتناماً غير حاسبين لها أي حساب .

ويقول لوريمر : وكان الذين يخرجون على هذا الامر معرضين دائماً لتوقيع العقوبات عليهم[1] ،وفي إحدى المرات قام الملازم « جوان » من السفينة « فيرى » المسلحة بستة مدافع ، باطلاق النيران على عدد من القوارب التي تجمعت أمامه ، وحين رجوعه إلى بومبي تلقى نقداً حاراً من الحاكم العام نفسه ، لأنه تجرأ على الاعتداء على العرب الابرياء المسالمين في في هذه المياه .

قلت : ويظهر أن هذا الرجل قد أطلق النار على أناس لم يعرف ماعندهم ، وانما ظنهم بخوفه المتزايد الذي يراه بعينيه ويسمعه باذنيه ، يريدون الهجوم عليه ، فابتدأ بفتح الشر بينه وبينهم .

قلت : ويظهر من هذا ان الحاكم العام ما كان يأمر البريطانيين في الخليج إلا بالمسالمة ، وانما بعض البريطانيين كانت طبيعتهم تهوى الشر

---

١ ـ أي الذين يهاجمون من البريطانيين قبل أن يهجم عليهم خصومهم .

والخداع والمراوغة على نير الاكاذيب بخلاف الزعامة الكبرى ، لاسيما أن بريطانيا لم تر من العرب شراً ولا عرقلة لمساعيها ولا لشيء منها مطلقاً ، وكل همها اذ ذاك امتلاك ناصية الهند بالدهاء والمكر ، وقد كان ذلك تماماً ، حتى أصبحت بريطانيـــا زعيمة الهند من حيث لا يشعرون ، الجاذبة الدم من حيث لايحسون ، وأظهرت لهم المظاهر وأبهجتهم بالبهارج في تلك الليالي ووعدتهم بمواعيد أشبه بحلم النائم ، وهي تسرى فيهم سريان النار في الهشيم .

قال لوريمر : وفي مارس سنة ١٨٠٥م وحسب اقتراح الكابتن (دافيد ستون) الذي كان قد أرسل إلى مسقط كمقيم المرة الثانية ، بعد موت السيد سلطان قررت الحكومة مساندة مسقط في القضـــاء على القواسم . وقال : وكانت عداوة قديمة بين القواسم ومسقط قلت : وليس الأمر كما قال ، وانما قتل القواسم سلطان بن أحمد حاكم مسقط اعتماداً على أن السفينة بريطانية ، وكان الالقاء ليلا وكانت المهاجمة بعد الفجر ، فلف القواسم على سفينة سلطان ، وكان سلطان بطلا من أبطال العرب ، أثارته حفيظته لمباشرة القتال فكان القضاء والقدر حاكمين عليه ولابد للمرء من أمر محتوم عليه ، فلما قتل سلطان وتحققوا من الامر انصرفوا متأثرين وراح بسلطان خدامه إلى لنجة ، وهي تابعة إذ ذاك لمسقط . ولو كان القواسم يعلمون أن السفينة لسلطان أو أن سلطاناً فيها لما قاتلوها ، وهم يعلمون أن عمان وراءه وهو سيدها ومليكها وهي أمس بهم وأضر من غيرها ، هذا هو الاحتمال الواضح عن الأمر ، يدلك عليه أنهم لما علموا الواقع تركوا السفينة ، ولم يناوشوها كعادتهم ، ولو ناوشوها بعد قتل

سلطانها وربما غلبوا عليها وهي محصورة بين سفن عديدة ، وانما يتمشى البريطانيون مع المصالح ، على حساب الغير ، وعلى ضوء الاستغلال لكل حركة ، والا فأي عداوة بين سلطان والقواسم ؟ نعم كانوا يخافون سلطان كما كانوا يخافون أباه ، ولكن من حيث كونه سلطان عمان وكون القواسم عمانيين ، وبالامس كانوا تحت ظل راية الامامة أيام أئمة آل يعرب ، وان كانوا يحبون الاستقلال في بلدانهم وحب الرئاسة يثيرهم ويقعدهم لعلمهم بأن الأمر جلل ، ولكن رغبة القواسم كانت مطاردة البريطانيين في مياههم الاقليمية ، وبقتل سلطان وقع القواسم في باقعة هي التفاف مسقط على حرب القواسم مع بريطانيا ، والقضية تمشي في صالح بريطانيا على أي سبيل اذ يكون لها العمانيون عونا على عدوها الذي أطت منه وأنت وعلى أي مقصد وقعت فان عمان وهي تتألف من القبائل الكبيرة ذات الغيرة والحماس على قتل سلطان ، وسلطان هو ملكها وسلطانها ، والمقرر لابد من وقوعه ، هذا مابلغنا من قضية قتل سلطان كما قصه شاعر الدولة البوسعيدية في قصيدته الهمزية . فان القاتلين غزاة القواسم الذين تجردوا لقتال بريطانيا ، فكان قتل سلطان دماراً عليهم .

قال لوريمر : ولما قررت الحكومة مساندة مسقط في القضاء على القواسم أحيط القرار بكثير من الارجاء لدرجة أفقدته كثيراً من فاعليته ، والمعنى أن بريطانيا وافقت سلطان مسقط على مهاجمة القواسم لكنها موافقة كلامية لا مفعول لها ، وماذا يضر بريطانيا قتل سلطان ، بل ربما سرها إذ ذاك ، بل قد أشرنا إلى أنه من مصالحها التي لازالت تتمناها ، فيكون للقواسم شاغل عنها من بني جلدتهم اذ هي ساعية في كسر القوة العربية

أيا كانت ومهما كانت لكنها لا تتظاهر بذلك في ذلك الوقت ، ولأن لها في مسقط مآرب أخرى وآمالاً تحاولها ، فلذا قررت مساندة مسقط من جهة وأن تتغافل من جهة أخرى ، وهذا الذي ننقله كله عنها وعن رجالها .

قال لوريمر[1] : لقد كان على الكابتن ستون أن يكف عن عمله هذا كله ، الا لو علم واقتنع تماماً بان أمير الوهابيين لن يتدخل لمعارضة هذا ضد القراصنة ، بل وأيضاً كان عليه القيام بعمله باعتدال وقصد عظيمين ، ومحاولة الوصول إلى السلام عن طريق المفاوضات ، وعليه أن يتفادى إلى جانب ذلك أية أعمال من شأنها أن تؤدي إلى تعقيدات مع الحكومة التركية أو الايرانية ، ثم هناك صعوبة أخرى وهي أن يؤدي عمله هذا بالاتفاق مع مايراه مستر مانستي المقيم في البصرة ، ومع مايراه أيضاً الملازم بروس المقيم في بوشهر ، وفي حقيقة الامر فان الكابتن ستون الذي أبحر من مسقط على السفينة (مورننجتون) في ٢٨ مايو سنة ١٨٠٥ قد سمح لنفسه للأسف وسوء الحظ بأن يستدرج قبل أن يقوم بأي عمل ضد القواسم لمعاونة السيد بدر بخدعة محكمة الحبك ضد بني معين المالكين لبندر عباس ، وهي عملية احتجت عليها السلطات الايرانية ، فيما بعد ، واعتبرتها عملاً عدائياً موجهاً ضدها ، ولكن قبل توجيه هذا الاحتجاج بالفعل كان كابتن ستون قد وجد الفرصة الملائمة لتصفية حسابه بعض الشيء مع القواسم . والمعنى الحقيقي أن بريطانيا قررت ضرب القواسم انتصاراً لثأر سلطان بن أحمد وانثارها أيضاً وما تراعيه في القضية خلقت أنظاراً طويلة عريضة جعلت لها أطرافاً متنوعة

---

١ ــ الصفحة ٩٧٧ من كتاب دليل الخليج .

الصبغة من قبل الوهابيين ، لئلا يتحركوا لتأييد القواسم والانضمام إلى جانبهم . ولقطع خط الدعم عن القواسم فلعل القواسم يلجأون للوهابيين ، وصورت صوراً تبرز ذلك الاجراء للتأخير من جهة ، وليتأكد العداء المرير بين مسقط والقواسم من جهة اخرى . كانت بريطانيا تبدي في مفاوضاتها هذه الأمور المزعومة ، ولو رأت سكون القواسم عن معارضتها لما قامت مع سلطان مسقط بل ولصدته عن صدده وردته وخلقت له أشباحاً بعيدة المدى ، وهذا شأنها ، وهي في هذه الصناعة مشهود لها بالبراعة .

قال لوريمر : في الخامس عشر من شهر يوليو تحرك الاسطول العماني البريطاني إلى مدينة القشم ، بعد أن وصلته أخبار بوجود أسطول القواسم راسياً في جزيرة قشم ، ليصادم القواسم هناك ، وقد انكشف كذب هذه الأخبار ، وعدم صحتها . ونظراً لوجود القواسم بأعداد كبيرة على البر مما لا يسهل الهجوم عليهم من البحر ، فاذا اراد الاسطول الهجوم عليهم في البر كانوا أمكن منه فيقضون عليه ، فقد رجع الاسطول إلى قواعده ثانية ، وفي ٢٥ يوليو سنة ١٨٠٥ م دخل اسطول صغير يتكون من ثلاثين قارباً تحمل حوالي ألف رجل إلى مدخل جزيرة قشم وهناك حاصره الكابتن ستون والسيد بدر مباشرة ، وفي المفاوضات التي أعقبت ذلك قام بدور الوسيط ، ملا حسين شيخ جزيرة قشم ، وطلب كابتن ستون في بداية الأمر أن يدفع القواسم تعويضاً عن سائر الاضرار التي أصابت السفن البريطانية ، ولكن حين أبلغوه بأنهم لايستطيعون أن يدفعوا أكثر من عشرة آلاف روبية وعلى أقساط ، أهملت مشكلة التعويض في الوقت الراهن ، وأخيراً تم الاتفاق على أنه إذا أعاد القواسم للكابتن السفينة /تريمر/

خلال خمسة وعشرين يوماً ومعها خطاب لحاكم بومبي يعتذر فيه القواصنة عن مسلكهم ويعلنون عجزهم عن دفع التعويضات ويتعهدون بالكف عن مثل هذا المسلك في المستقبل ، فمن الممكن عقد الهدنة معهم حتى تجيء أوامر الحكومة ، وإذا أعلنت الحكومة عن رضاها بهذه الاتفاقية فستعيد السفينة ، ويعلن السلم ، وكان ملا حسين يلح في ضرورة أن يلتقي كابتن ستون شخصياً بشيخ القواسم سلطان بن صقر الذي كان موجوداً آنذاك ، ولكن كابتن ستون تحاشى هذا اللقاء ، وهنا يظهر للمفكر الغواص[1] ، ماقلناه عن قصد بريطانيا وعن اهمالها تنفيذ قرارها بمساندة سلطان مسقط ، لكن القضاء والقدر يغلبان تفكير البشر .

وقد تحاشى الكابتن ستون لقاء شيخ القواسم سلطان بن صقر لأنــه يعرف أنه سيواجه ضغطاً من أجل الموافقة على شروط بالسماح للقواسم بزيارة الهند وهو لايرى السماح لهم بذلك ، وكان السيد بدر قائد الحملة متلهفاً للعودة إلى مسقط ، وربما كان للهفته هذه دور في الميل بالمفاوضات الجارية ، والمعنى أن بدراً رأى نضوج مقاصد القوم واحتراق الناضج ، إلا أن بريطانيا تروم إنضاج الحجر في الطبخ وان ينضج بعد . وكان بدر مقتنعاً بأن الهدنة ومدتها سبعون يوماً كافية جداً ، وهو بعد ذلك كما زعم سيقوم بالهجوم على القواسم انتقاماً منهم لمقتل السيد سلطان ويجليهم عن المواقع التي يحتلونها في قشم ، وفي سواها ، وأثناء وجود أسطول مسقط أمام بندر عباس حاول بعض القواسم القيام بعدة غارات على صور وشوادر[2] ..

---

١ ـ المفكر المتعمق ، المتبصر .

٢ ـ تكتب شوادر في بعض المصادر بالجيم الثقيلة جوادر .

فانظر أخي القارىء في عزم القواسم هنا ، هــل كان قرصنة ، كما يقول البريطانيون ، أم أنهم لما رأوا وقوف الاسطول في البحر وفهموا منه ما فهموا لم يقعدوا مكتوفي الأيدي بل أرادوا أن يخلقوا له فتناً تشاغله وحرباً تجذبه إلى ذلك الطرف فيرتحل عن الحوزة[1] . وأنظر هـل تقول أن الروع استولى عليهم وهذا حالهم ، بل حاولوا غزو صور وشوادر حتى لا تضيع أيامهم في البطالة . وأني لا أبرىء بريطانيا من ذلك وهي ذات الدهاء البعيد المدى لأن لها دسائس تبني عليها مقاصـد عظيمـة الجدوى ، وكيف لا يتصدع رأس بدر قائـد حملة مسقط لذلك وهو يرى الأحوال بعيني رأسه .

وأخيراً في أكتوبر سنة ١٨٠٥م وصل وكيل عن ملا حسين إلى مسقط للتفاوض باسم القواسم ، وطلب كابتن ستون تعليمات من حكومة بومبي ، وجاءت هذه التعليمات تحدد الاتفاقية التي تعتقد بأنها يجب أن تكون شاملة ، تسري على منطقــة الخليج كلها ، أما بالنسبــة للتعويضات عن الخسائر السابقة فيجب أن تطلب كاملة مهما كانت الحالة ، ثم حاولت بريطانيا عقد المعاهدة مع القواسم سنة ١٨٠٦ ورأت أن الشروط التي تروم توقيعها لا يقبلها القواسم ، لأن هذه الشروط التي لم تكن تتلاءم أبداً مع عقليـة العرب في الخليج وقتذاك قد ثبت استحالة تنفيذها إلا بعد القيام بعمليات عدائية على نطاق واسع ، أي لن يخضع عرب الخليج ومن بينهم القواسم للشروط الثقيلة إلا بعد ما يرون شدة الوطأة عليهم ، فهي تروم

---

١ ـ الحوزة : المنطقــة .

أمراً أقوى من الامر الحالي الذي يخطبه ملا حسين وعلى هذا فقد وقع كابتن ستون اتفاقية بسيطة مع القواسم في بندر عباس ، يوم ٦ فبراير ١٨٠٦ م وصدق عليها الحاكم العام في الهند بتاريخ ٢٩ أبريل التالي ، وفي هذه الاتفاقية أعلن السلم ، وتعهد القواسم بان يدفعوا غرامة قدرها ثلاثون ألف روبية في حالة خرقها . أما السفينة المسماة (تريمر) فقد تمت استعادتها ، ورفضت الحكومة البريطانية مناقشة التفاصيل الخاصة بعدد المدافع التي كانت فوقها ، أو طاقم الرجال الذين كانوا يعملون عليها ، وتعهد القواسم بمعاونة السفن البريطانية التي تزور شواطئهم أو تمر فيها ، كما تعهدوا أيضاً بأن يقدموا انذاراً مدته ثلاثة شهور قبل أن يقوموا بخرق السلم إذا كان لابد منه .

وأخيراً وبعد التصديق على هذه الاتفاقية ، وهو ما حدث بعدها مباشرة، أصبح للقواسم مطلق الحرية ، كما كانت من قبل ، في التردد على الموانىء الهندية ، ولم يستشر أي من الطرفين أمير الوهابيين في هذه الاتفاقية ، وقبل توقيع الاتفاقية أعيدت السفينة شانون أيضاً ، لكنها كانت في حالة سيئة ، وفي هذه الاثناء توقف رجال القواسم عن الانقضاض على مرّاء البحر من البريطانيين ولعل مرد ذلك تراجع القوة البريطانية وقوة الساعد كما يقال ، وفي خلال السنتين التاليتين بعد توقيع المعاهدة المشار اليها ، لزم القواسم الهدوء وكفوا عدوانهم على الاقل عن التجارة والسفن البريطانية ، وأبدوا نواياهم الطيبة ، التي تبدت في الاتفاقية ، والالتزام بها عززه وجود أسطول مكون من ثمانية طرادات من سفن الشركة[1] المسلحة في

---

١ ــ شركة الهند الشرقيــة .

منطقة الخليج خلال سنة ١٨٠٧م ، وقد كانت هذه السفن مرسلة بشكل أساسي مع سفينة صاحب الجلالة فوكس لتهديد البصرة نتيجة الأعمـــال العدائية التي كانت متبادلة بين بريطانيا وتركيا في أوروبا ، ولكن بدلاً من أن تتراجع بعد أن أدت مهمتها ظلت راسية لمدة سنة كاملة في مياه الخليج . فترى لوريمر ينسب ذلك الهدوء والاطمئنان إلى سفن صاحب الجلالة ولم يقل أن العرب أهل وفاء لا يرضون اذا أعطوا عهداً أو أماناً لأحد أن ينقضـــوه بغير موجب بل جعـــل مرد ذلك الامن للطرادات الموجودة في البحر مع سفينة صاحب الجلالة ، وان القواسم ماسكنوا إلا لذلك ، وغاب عنه ان القواسم لم يخافوه اذ هو في جيش من السفن وفي أبهر القوة ولكن القواسم رأوا نزول الوهابية في الميدان ، فاذا صارعوا بريطانيا في البحر نزلوا عليهم ، فاجتاحوا بلادهم وتملكـــوا عليهم ، وهم لا يريدون من الوهابية ذلك ، وإنما يريدونهم أنصاراً على بريطانيا ، وأضداداً لمسقط إذا قامت عليهم لما صار منهم فيها ، بقتل سلطانها ، ولمـــا نزل الوهابية على سلطان بن صقر وأخرجوه من أمارته وأقاموا عنه حسين بن علي شيخ الرمس ، رأوا أن سلطان يحاول ضد محاولة القوم وأن شيخ الرمس أطوع لقيادهم وأسرع لاجابتهم ، أما سلطان بن صقر فيحاول أن يكون سلطاناً اسماً ومعنى ، ويريد من الوهابية فقط أن يعززوا موقفـه فلذلك كان الامر بعزله من مشيخته المعروفة ، وكان أمير الوهابية في ذلك الحال أقوى على سلطان حيث أن بريطانيا عدوة سلطان المذكور وهـذا الامير الوهابي يقضي على رئاسته فلا يجد سلطان مناصراً لمهمتـه ، وقـد جعلت الوهابية حسين حاكماً ، وجابيـــاً للضرائب ، التي يتهالكون عليها ، وهي المهم الاكبر اذ ذاك ، وكانت نوايا الوهابيـة ضـد القواسم وراء

الستار ، أي يظهرون أنهم يعززون موقف الشيخ القاسمي ، ويضمرون السيطرة والقهر على الزعامة تماماً ، ولما رأوا أن سلطان بن صقر زعيم جمهورية القواسم يقوم بالامور بنفسه عن قوة نفسانية ، ولا يتعلق بهم صارعوه فصرعوه وكان قد قضى على جنود السلطان سعيد بن سلطان ورد الجنود إلى سفنهم وأوقع بهم خسارة كبيرة ، وهذه الناحية تهدد سلطان بن صقر القاسمي وتجعله في أروع المضايق التي تحيط به فهو بين نيران مشتعلة من كل جانب ، وباشتعال تلك النيران المشار إليها انطفأ هو ، والنصر من عند الله ، وكان قيس عم السلطان سعيد بين القتلى ، فتولى سلطان بن صقر خورفكان ، وكان السلطان المذكور قد وضع يده على خور فكان وبنى فيها قلعة ، فقام شيخ خويرة إلى سعيد بن سلطان[1] ، يحركه على حرب سلطان بن صقر في خور فكان ، حيث قال له : وانك اذا لم تقم لسطان الان ، فانه يخشى منه الانسحاب إلى الساحل الشرقي ، فقام سعيد بن سلطان لهذا الامر ، وصال سلطان بن صقر من جانبه ليدافع عن خور فكان فساعده الحظ ، فاغتاظ الوهابيون من سلطان بن صقر ، وكانوا يرومون وضع السلطة عليه ، ولو خرب الساحل العماني ، وهم قائمون له وهم اذ ذاك في نشاطهم ، وكان البريطانيون يعتقدون ان أيام سعيد بن سلطان لا يطول مداها ، وان الرجل صاحب غطرسة ، وتتجلى عليه ثورة الشباب وهو بهذه الأحوال ربما قضى عليه أحد أبناء عمه ، لأنه قتل بدرا في بركا ، ويعدون عليه أنه دس لأجل قتل عمه قيس في خور فكان وكان قصده أن يزول عنه هذان السيدان .

---

١ ــ سلطان مسقط .

٥ ـ العلاقة بين سعيد بن سلطان والوهابيين

قال لوريمر : قام سعيد بن سلطان وسط مجموعة من الأعمال غير الشريفة وكان معظم عمان باستثناء الساحل يسيطر عليه الوهابيون ، قلت : هذا خطأ ، انما كان الوهابيون أيام سعيد بن سلطان أنصار محمد بن ناصر الجبري ، وذلك ان الجبري كان قابضاً على بعض الحصون في الداخلية فأخرجه سعيد بن سلطان منها فخرج إلى الرياض مستنصراً ، وجاء بمطلق ابن محمد المطيري مناصراً له والداء الدفين الذي ساعد الجبري ومهد له الطريق هو الصوت الغافري إذ كان ضد الصوت الهناوي ، وكان أكثر زعماء الهناوية أنصار سعيد بن سلطان ومن جملتهم عيسى بن صالح الحارثي ، وأكثر رجال الهناوية معه وكان الفريق الغافري بعيداً عنه ، فجاء المطيري المذكور ، ولما نزل البريمي كان أكثر رجال البريمي غافرية . فالتف معه الكثير ، وجاء المطيري والجبري أمامه فتخاذل عن سعيد بن سلطان الذين يعول عليهم ، وساعد الجبري والمطيري نحس طالع سعيد بن سلطان والهناوية ، فتسلط المطيري والجبري على داخلية عمان خصوصاً بالغافرية على الهناوية ، ولم يكن من سعيد بن سلطان في الجبري أثر يذكر ، فبقي المذكور متسلطاً على أهل عمان والمطيري يناصره ، والحقيقة فان الشق الغافري هو الذي أيد المطيري ليطير على الافق العماني ، ويتجبر الجبري على الأمة

وكان ذلك وأهل عمان متخاذلون ، وكان المطيري يظلم العباد على مايهوى خصوصاً الجانب الهناوي ، وبعد ان ينال ما يريد من المال يخرج إلى البريمي ويرفع أمره إلى الرياض ، والرياض تؤيده ولم يقبض حصنـــاً ولا تولى حكومة وانما يأتي اضريبة يطعم اياها على رأس الحول في الهناوية ، ثم يذهب إلى البريمي والرياض . وبسبب هذا الخلاف بين العمانيين وجـــد المذكور طريقاً يبساً لا يخاف فيها دركاً ولايخشى . حتى قتله الجحوبون في شريعة الواصل من بديه . وانتهت قضيته بذلك .. ولو كان مسيطراً على أهل عمان لكان الأمر في يده وله أنصار . وربما أيده أصحابه ، وبقتله انتهى أمره ، فهو أشبه بغاز دخل الحمى ، فأخذ ما وجد وخرج إلى قومه بما وجد فكان المطيري والغافرية بلاء على الشق الشاني حتى انتهى بموت المطيري قتيلاً في بديه . وبموت محمد بن ناصر الجبري انحل أمرهما . فلم يكن لأهل نجد غير هذا ، أما الحصون التي فيهـا الولاة فهم باقون على أمرهم . ملازمون لأوامر السلطان . فهم أي الوهابيون يحتجون بهذه البادرة فهذه لا تزال تكون على الزعامات المتضادة فكم جاء الغزاة لعمان من ايران ومن العراق وغيرها ، ثم ذهبوا وعادت البلاد لأهلها . وقد ذكر التاريخ جميع ما أشرنا إليه ولم نعلم أن راية رفعت على أي مركز بعمان للوهابية ، أما وجودهم في البريمي فقد أشرنا إليه في كتبنا السالفة . لأن البريمي نفرت عن سلاطين عمان الذين يميلون إلى الشق الهناوي وهي بطبيعتها غافرية يجد الوهابيون فيها مأمنا وأغلب الظاهرة غافرية فلذا يكون الرائد الوهابي مؤيداً في مقامه ضد حكام مسقط ، وهذه الأعمال التي قام بهـــا الجبري وواطأه عليها الغافرية واستصرخوا نجـــدا فانجدتهم بمطلق بن محمد

المطيري[1] المذكور ، والحقيقة الناصعة ان الغافرية هم الفاعلون ، وهم عمانيون خاصة ، وجرت في عمان معارك دامية تولى الغافرية أكثرها بزعامة محمد بن ناصر الجبري[2] ومحمد بن ناصر بن سيف بن ناصر بن محمد[3] وحميد بن راشد بن بن محمد بن ناصر العطابي[4] القابض على حصون الظاهرة وبهلى ، وقد اقتسم هؤلاء ملك عمان ، وكان عزم الكل على قتال سعيد بن سلطان .

قال لوريمر : يبدو أن أمير الوهابية الذي لم تهزم جيوشه في معركة من قبل كان مصمماً على بذل كل جهد لاخضاع عمان ، وانه في الوقت نفسه بدأ يعتقد فيما أعلنه سعيد بكل تبجح من اتهام نصيره السابق محمد ابن ناصر باغتيال بـــدر بن سيف الامام . قلت : ذكر ابن رزيق ، أن القاتل لبدر هو سعيد بن سلطان ونسبها هو إلى محمد بن ناصر الجبري ليتمكن بذلك وليتظاهر به مع بني عمه .

قال لوريمر : ولهذا شبك لمحمد بن ناصر بهذه المكيدة ليخرجه من حصني سمائل وبدبد اللذين كانا في يده بصفته مسؤولاً عنهما كحاكم فيهما من قبل الحاكم الاعلى ، فقام سعيد بن سلطان على محمد بن ناصر ليلقي القبض عليه ، قائلاً له إنا نحن تركناك على ما أنت عليه وهذه أفعالك ، أي قتلت بدراً ، المذكور ، فخرج به مأسوراً في بركا إلى بدبد وسمائل ، وأخرج الحصون

---

١ ـ مطلق بن محمد المطيري .

٢ ـ محمد بن ناصر الجبري .

٣ ـ غافريها محمد بن ناصر بن سيف بن ناصر بن محمد .

٤ ـ عطابيها حميد بن راشد بن محمد بن ناصر العطابي .

من يده راغماً بمساعدة بعض أعـداء الجبري ، واذ ذاك هو موضوع في الحديـد . ونسب أيضاً إلى محمد بن ناصر المذكور الاستجابـــة لمطالب الوهابيين ، وأنه مستعد لدفع الجزية لهم . قال ابن زريق : ووعـــد السلطان سعيد بن سلطان بأن يسمح باقامة حامية وهابيـة خاصة في بركا ، بدل هذه التي فوت منها عقب اغتيال بدر في بركا .

* * *

٦ - القواسم والعودة إلى القتال

لقد استطردنا لذكر القضية بسبب ما وقـع من سلطـان بن صقر على خور فكان وعزل الوهابيين له عن مشيخة القواسم ، وجعلهم بدلاً له حسين ابن علي شيخ الرمس ، وجعلوا حامية في خور فكان ، وهنا اتهم القواسم بريطانيا بأنها أثارت الوهابين عليهم ، بعـــد ماهدأوا ووانقوها ، وبذلك رأوا عدم الالتزام بالاتفاقية ، وفي هـذا الاتفـاق ثاروا على غزو السفن البريطانية ، ومما يقوله صاحب الدليل لوريمر : يبدو أنه قبل عزل سلطان ابن صقر كانت النوازع العدوانية عند القواسم قد عادت إلى الظهور في أعالي البحار ، وخرقوا اتفاقية سنة ١٨٠٦م ومما زاد هذا الأمر قبحاً أن الاعتداء قد ارتكب إلى جوار شواطىء الهند ، ففي شهر ابريل سنة ١٨٠٦م وخارج شواطىء جوجرات هاجمت السفينة الصغيرة / ليفلي / التي يقودهـا الملازم / ماكدونالد / أربع سفن من سفن القواسم كل منهـــا أكبر من / ليفلي / وأكثر في عدد المدافع والرجال ، وحاول المهاجون النزول إلى ظهر السفينة ، لكن نيرانها استطاعت صدهم واجبارهم على الرجوع ، وبعد ذلك اكتشفت ثلاث من سفن القواسم في صورات ، فنقلت إلى بومبي ، أي قبض عليها مقابل هذا العدوان ، ورغم وجود الرجال الجرحى من أثر

المعركة على ظهورها ، والتحقق من اشتراكها الفعلي في الجريمة ، إلا أن الحكومة قررت اطلاق مراحها ، لتساعد السفن الساحلية التي قد تجنح إلى الشاطىء ، وأدت السفن هذا العمل بكفاءة فعلا ، لأنه خلال عام ١٨٠٨ وقعت أكثر من عشرين سفينة وطنية غنيمة في أيدي القراصنة العرب على الساحل الهندي ، أي اختطفها صقور البحر من بين أيدي أهلها البحارين وعضوا عليها بأنيابهم الحادة ، وفي حوالي سنة ١٨٠٨ استولى عدد من سفن القواسم على السفينة التجارية المسماة (منيرفا) التي يملكها مستر مانستي المقيم في البصرة ، وذلك بعد أن دار اشتباك بين الجانبين استمر عدة أيام متوالية ، وقد حوصرت السفينة وهي عبارة عن قلعة بحرية ، وكانت المدافع فيها تشتعل نيرانها صباحاً ورواحاً وليلاً ونهاراً وكل آن وصقور البحر تتهاوى عليها لتختطفها حتى وضعت حربها أوزارها ، وخضع رجالها لمخالب الصقور الضارية فصعدوا على ظهرها كما يقول لوريمر في دليل الخليج ، واستطاعوا الاستيلاء عليها ، ويقال إنهم أعدموا بحارتها ، الذين كانوا على ظهرها بطرق تنم عن التعصب الديني الشديد ، ولعلهم ضربوا أعناقهم ، كما صرح بذلك لوريمر ، ولم ينقذوا من أهلها ، إلا ثلاثة أنفار : أحدهم القائد الثاني للسفينة ، والنجار العامل فيها ، وامرأة أمريكية ، هي زوجة الملازم تيلور مساعد المقيم السياسي في بوشهر ، وقد احتفظوا بهم أسرى ونقلوهم إلى رأس الخيمة ، واستطاع الملازم بروس بعد عدة شهور افتداء السيدة تيلور ، أما رفيقاها الأقل حظاً فيبدو أنهما لم يحصلا على حريتهما بعد ذلك أيضاً . والمراد أنهم جعلوهما مملوكين خادمين وسمحوا لتيلور وبعلها بالمغادرة ، هذه أعمال صقور البحر القواسم الذين يقول البريطانيون عنهم أنهم قراصنة ، وهذا

التعبير لا يليق بدولة ذات سيادة ، اذ تصف الاشياء بغير صفاتها ، قلت وهذا دأبها حتى في أخبار أهل عمان كالعلامة الجليل سعيد بن خلفان الخليلي والشيخ العلامة الأمير صالح بن علي وهم من أجلة أهل زمانهم علماً وعملاً وديانة ، تطلق عليهم بريطانيا لفظ المتمردين ، وتهضم جانبهم بما ترميهم به ، وهكذا في أكثر أخبار أهل عمان ، كما يقول لوريمر في دليل الخليج الذي أكثرنا النقل عنه ، وعلى بريطانيـــا وهي دولة ذات حضارة مضت عليها قرون ، وخالطت العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، أن لا تعتبر الرجال بناقص الاعتبار فانه من العار الخالد أن بريطانيا يقلقها القراصنة ، ويروعُها غير الاكفاء ويسحبون رجالها ونساءهـا مماليك يستخدمونهم ، في بيوتهم ، طهاة وعبيداً ، وقد ذكرت ذلك بنفسها وأعلنت عن زعامـة القواسم ، وصراعهم ، وقامت بعقد المعاهدات معهم وتغاضت لهم عما لا تتغاضى عنه لغيرهم ، وحاولت إرضاءهم بما عز وهان ، بل ينبغي أن تنزل الرجال منازلهم أما الانهزامات فليست بعار عليها ولا عليهم ، والغلبيات بين الجيوش الكثيرة ، بشرذمة قليلة شيء مشهود به عادة ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله منذ العهد القديم حتى الآن في كل العوالم ، والأقوى عادة يغلب الأضعف بطبيعة القوة ، وهذا هو الغالب ولكنه غير مستحيل أن ينعكس الأمر ، وأن الله ينصر ضعيفاً على قوي ليريـه عجزه فهـذا غير مستنكر في سنن الله تعالى ، فان أمر الله عز وجل غالب على العباد ، كما جاء عنه عز وعلا قوله : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » الآية ، والله يؤيد من يشاء من الأقوياء والضعفاء وقد غلب المسلمون دول النصارى من قياصرة وغيرهم وغلبوا الفرس أيضاً ، وهكـــذا الدهر فما

لبريطانيا تقول لصقور البحر قراصنة ولوجالها سادة ، ان هـذا ليس من الانصاف في شيء ، لكن كما قال أبو اسحاق أن الافرنج يصغرون الأهمية العربية إلى حد بعيد وكل شيء من خصال العرب أو المسلمين يقضون عليه بأهون القضاء ويحكمون عليه بالاحكام السالفة ، وإلا فما للقوامم وللقرصنة ، وهم يسحبون الأساطيل المسلحة بالمدافع ، ويجرون جيشاً يبلغ عدده عشرين ألفاً من الرجال البواسل ، ويصفونه بالقرصنة ؟ ان هذا الوصف غير اللائق بعيد بعد الثريا عن الثرى ويجب على الكاتبين الانصاف ، كما يجب على الحكام ذلك .



٧ ـ القواسم يزحفون على الأعلام البريطانية

لا يخفى أن (سيلف) كانت من أعظم السفن ومن أشدها قوة ، على صراع البحر في عهدها ، وكانت حمولتها ثمانية وسبعين طناً ، وعليها من الاسلحة الرهيبة ثمانية مدافع ، ولا مزيد على ذلك ، فان مدفعاً يكفي لحمايتها إذا هاجمها عدو ، أو إذا أرادت هي مهاجمة الأعداء ، فكيف بثمانية مدافع من الطراز العصري مع قذائفها البعيدة المدى ، اعترضها القواسم في ٢١ اكتوبر سنة ١٨٠٨م ، وراموا أن يردفوا بها السفينة (منيرفا) لأن (سيلف) كانت سفينة الشركة المعظمة ، فزحف عليها القواسم لاحتلالها وهاجموها رأى العين ، أي في مكشوف من الوقت والمكان ، وقبل أن يقضوا عليها اعترض الميدان وصول الاسطول الذي كان يقل سير هارفورد جونز وبعثته ، وكان عائداً من إيران فحال بين القوم وبين مايشتهون ثم راح هذا الاسطول (كما يروى الحادث محمد حسين خان أحد الأعضاء الايرانيين في بعثة سير جونز ، وكان على ظهر السفينة في ذلك الوقت) قال إن السفينة امتنعت بحكم القوانين البحرية عن اطلاق نيرانها فترة طويلة ، لم تستطع بعدها مقاومة العدو الكبير من العرب ، وليس الأمر كذلك فان القوانين وقت الحرب يلغيها الافرنج بل والعرب ، ولكن رأت من صقور البحر ماهالها وفضلت الخضوع ، قال : وكانت النتيجة مذبحة

على ظهرها ، والمعنى أن الصقور قد علوا عليها بغير خوف ولا رهب والشجاعة أصلها للعرب قبل غيرهم وانما الغير تبع لهم فيها ، وقد تسابق الرجال في تقاحمهم على ظهر السفينة وملكت أيديهم أزمتها وأطارت رؤوس عدد من رجالها الذين كانوا يطلقون نيران مدافعها ولكنها لم تغن شيئاً .

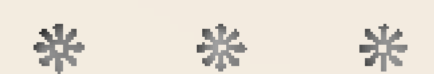
قال لوريمر : وكانت مذبحة على ظهرها شملت معظم بحارتها . ومن القلة التي قدرت لها النجاة ، والمعنى بقية القليل من رجال السفينة . ولعلهم الذين اجتنبوا العداء مكاناً قصياً . قال : ومن هذه القلة قائد السفينة (جراهام) ، الذي رقد على ظهرها مثخناً بالجراح ، أي كان مجروحاً فلما أثخنته الجراح وقف أسير القدر ، وكذلك السكرتير الايراني الذي اختفى ، عمدا ، في احد ممرات السفينة . وأنقذ حياة هؤلاء الباقين ظهور سفينة صاحب الجلالة (نيريد) وهي سفينة مسلحة بستة وثلاثين مدفعاً ، ولدى رؤيتها عمد أسطول القواسم إلى الفرار تاركا السفينة (سيلف) وراءه ، وقامت (نيريد) بمطاردة الاسطول الهارب دون أن تحقق نجاحاً ، والمعنى أنها خوفته بعض الشيء ولم تفعل شيئاً له أهمية ، وقد فعل القواسم فعلتهم ، وأين ذات المدافع العديدة ؟ والقواسم في البحر لم تكن لهم أجنحة يطيرون بها ولكن الموت مرهوب» والمعادى شديد وغاية ما عند / نيريد / التملص وترك القتلى يخورون في دمائهم وأكبر عار على تلك المدافع العديدة ذات القذائف الشديدة ان لا تحقق نجاحاً في أعدائها . وهذا كله ننقله عن الكاتب الانجليزي الذي يروي القضايا العربية رغم الرغبة ، لكن لابد للحق من ذاكر ولابد للعدو من اعتراف . وبعد هذه الحادثة الرهيبة أي حادثة السفينة (سيلف) بثلاثة أيام فقط ، كانت سفينة الشركة المعظمة المسماة (نوتيلوس) مهددة

أثناء عبورها مضيق جزيرة هانجام بأسطول مؤلف من سفينتين كبيرتين وأخريين صغيرتين للقراصنة .

قال لوربو : إنه نتيجة الأوامر التي تحظر على السفن البريطانية البدء باطلاق النار . اضطر الكابتن قائد السفينة حبس نيرانه حتى أمكنت رؤية البحارة العرب ، وهم يرقصون رقصة الحرب وينشدون أناشيدهم الحماسية ، ويطلقون صيحات الحرب حينذاك ، والعرب يزدادون اقتراباً في زحفهم للقاء عدوهم . عند ذلك أصدر الكابتن أوامره برفع العلم البريطاني ، والبدء في اطلاق النار . وركزت المدافع طلقاتها على السفينتين القاسميتين الكبيرتين وبدىء بالمدافع فاطلقت نيرانها وبقي الحال على ذلك ساعة ، وبعد ذلك أخلد الاسطول العربي إلى الفرار . وتبعته (نوتيلوس) بنيرانها إلى مسافة طويلة ، قلت : هذا واجب كل حر يخشى العار الذي يشين سمعته .

قال لوربو وهو يؤيد البريطانيين بما لا مزيد عليه ، ويوهن أمور عدوهم صقور البحر العربي : هنـــا بلغت جرأة القواسم واستهتارهم حـــدوداً لا يمكن تجاهلها ، ومعنى ذلك أن خطب القواسم قد بلغ حده وأن جرأتهم تزايدت وأصواتهم علت إلى حد بعيد . ووضح اتجاه هذه القبيلة في مطلب قدمه شيخ رأس الخيمة حوالي هذا الوقت ، يطلب فيه أن تدفع حكومة بومبي له أجور الخدمات والتسهيلات التي يقدمها لسفنها الملاحة في مياه الخليج ، وقد قدر عدد أسطول القواسم في ذلك الوقت بحوالي ثلاث وستين سفينة كبيرة ، وثمانمائة سفينة صغيرة ، وثلاث عشرة سفينة أيضاً ، على ظهورها جميعاً أكثر من تسعة عشر ألف رجل .

انظر إلى هذا الجحفل البري الجرار الذي يقوده القواسم بهذه العدة والعدد ، أيقال لأهله قراصنة ؟ ولا فعاله قراصنة ؟ إنها والحق يقال مملكة عربية عمانية قامت على الخط الشمالي من عمان ، كان القواسم أعمدة أركانها وبناة مجدها ، بنوها بالسيف على متن البحر العماني رغم أعداء العرب ، فلله در القوم والدهر لا يبقى على حال .



الفصل الثالث

١ ـ عزم بريطانيا على تدمير القواسـم

٢ ـ صدور الاوامر بالزحف عـلى القواسم

٣ ـ تقرير القوة البحرية لضرب القواسم

٤ ـ بيان القوة البرية التي كانت تساند القوة البحريـة في الحرب القاسمية

٥ ـ قصف رأس الخيمة بالمدافع الضخمة

٦ ـ القضاء على رأس الخيمـة

٧ ـ خسائر القواسم في الحرب البريطانية

٨ ـ الانجليز يحاولون تدمير قوات القواسم

٩ ـ القوة القاسمية تعود أدراجها في راس الخيمة

١٠ ـ القواسم يعيدون الكرة في الحرب البريطانية

١١ ـ القواسم تشتد شكيمتهم على بريطانيا

١٢ ـ القواسم يهاجمون عدة سفن بريطانية

١٣ ـ اسطول بريطانيا يهاجم رأس الخيمة مرة أخرى

١٤ ـ الحملة البريطانية الكبرى على القواسم

١٥ ـ معاهدات السلام والصلح

١٦ ـ بريطانيا تبلغ اربها في القواسم

١٧ ـ بريطانيا تفرض شروطها على صقور البحر

١٨ ـ بريطانيا تسيطر على الخليج ضد القواسم

١٩ ـ لوريمر يندد بأعمال القواسم

١ ـ عزم بريطانيا على تدمير القواسم

لقد همت بريطانيا ، وهي ذات الحول والطول في الشرق كله ، بتدمير القواسم ، ولكن هل تحقق لها ذلك ؟

قال لوريمر :[١] في هذه الظروف أصدر الحاكم العام في الهند أوامره باعداد حملة بحرية عسكرية ، كان الهدف الرئيسي لها تدمير القواسم ، بتدمير القوة البحرية لهذه القبائل العربية المشتغلة بالقوصنة ، ولا يسمي العرب إلا لصوصاً ، أسف على العلم والأدب ؟ ، وان كانت الحقائق تقوم بالتحدث عن الواقع بنفسها ، وان قال الاعداء ماشاؤوا ، فانما بافعاله يعرف الفاعل ، قال : وأهمها ، أي أهم القبائل المشار إليها ، التي تروم بريطانيا القضاء عليها قضاء مبرماً ، القواسم ، أي تروم للقواسم تدميراً نهائياً بحيث لاتبقى لهم حركة يقدرون على معاداة بريطانيا بها ، وهي تعلم أنها مالها معارض إلا القواسم الأبطال ، صقور البحر ، الذين لا يخافون ولا يخشون ، وقد جربتهم بريطانيا وجربوها ، وإذا هم جمرة محرقة وشجى في الحلق .

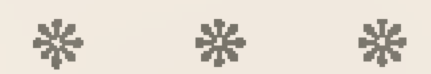
قال : وبعد تدمير القواسم ، أي ذلك التدمير الذي صار عليهم ، واطلاق سراح الرعايا البريطانيين وسواهم ممن وقعوا ضحايا : قلت : كيف

---

١ ـ الصفحة ٦٨٥ من كتاب دليل الخليج

يقعون ضحايا القراصنة ؟ ولا يعبأ بهم ، انما الضحايا يقعون للجيوش العسكرية ، لا للقراصنة الذين يسرقون الشاة أو البعير من الفلاة أو نحو ذلك من البحر ، إنما هم صقور البحر ، يفترسون الرجال باسم الجهاد في سبيل الله ، لأن العداء بين الشعوب المتباينة معلوم من الأحوال المختلفة ، والطاعة وحسن المعاملة معهم شيء غير سيامي أبداً .

وقال لوريمر : ان آخر ضحايا القواسم في هذه المرحلة كانت السفينة « داريا دولت » التي يقودها الكابتن « فيلمنج » وقد استولوا عليها في يوليو سنة ١٨١٩ م ، وهنا عزمت بريطانيا بكل ماأوتيت من قوة ، على القضاء على القواسم قضاء ساحقاً ، وان تحكم عليهم حكماً ماحقاً ، حتى لا تبقي ولا تذر اسماً للقواسم إلا إذا كان ضئيلاً مقهوراً ، ويتابع لوريمر قوله[1] : وقد صدرت الأوامر ، أي من حكومة بومبي المعروفة بالهند وتحت ستار هذا اللقب ، وكان أمراً منوياً ، ومن هنا يظهر أن البريطانيين يصغرون الاسم القاسمي ويعظمون معناه ، أي يرون معناه عظيماً حيث رأوا وسمعوا ما صار منهم ، فهم يظهرون للناس تهوين أمرهم ، ويكتمون الحقائق التي يعرفونها عنهم ، وذلك دأبهم طيلة تلك الأيام .



---

١ ــ الصفحة ٩٨٦ من كتاب دليل الخليج



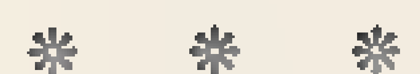
جنود الحملة البريطانية ينزلون من اسطولهم الى شواطئ مدينة رأس الخيمة بعد أن قصفتها مدفعيتهم بنيرانها وذلك في الحملة البريطانية الثانية على القواسم في عام ١٨٠٩م



٢ ـ صدور الأوامر بالزحف على القواسم

بالتاريخ المتقدم صدرت التعليمات من حكومة الهند البريطانية للقادة البحريين والعسكريين في الحملة بهذه الأهداف جميعها عدا واحداً هو حماية سلطان مسقط من الضغط الوهابي . وهـذا الهدف إذا صح أنه كان من بين أهداف الحملة ، فقد كان مقنعاً وبشكل غير مباشر بالنسبة للقائمين بالأعمال ، وصدرت التعليمات تؤكد بشكل خاص ضرورة تدمير سفن القواسم ، ومن الناحية السياسية فقد تم الالتزام بأقصى جانب ممكن من الحذر والحيطة ، والمعنى أن الحملة لم تترك شيئاً مما يتعلق بالحذر في الحال الا جاءت به مع الكتمان الشديد ، والاستار الغليظة التي تخفي بها المقاصد إخفاء كاملاً ، فقد ملأت البحر برجالها وأساطيلها وهيأت المعدات الكافية ، ومنعت العمليات البرية بقدر الامكان ، وخاصة ما يثير صراعات مع القوى العاملة بأمر أمير الوهابيين ، وهذا هو مطلق بن محمد المطيري الذي جاء مع الجبري مناصراً له فتمركز في البريمي لكونها غافرية ، والجبري ضد السلطان سعيد بن سلطان فوجد الأمير الوهابي مكانا آمناً ومقراً معززاً يطمئن فيه عند القيام بعملياته ، وكذلك على الحملة أن لاتفصح عن أي نوايا عدائية نحو هؤلاء ، وعليها تجاهل أي روابط قائمة بين القواسم والوهابيين ،

وعليها معاملة القواسم ، كقوة مستقلة بـذاتها ، وعليها مراعاة السيادة التركية والايرانية بقدر الامكان ، وأن تقدم تأكيداً للسلطات التركية إذا لزم الأمر بأن هدف الحملة تأديب القراصنة ، وهي لا تعني أي مطالب او مطامع اقليمية ، وفي « لافت » ورغم أن المكان لم يعد تابعاً لسلطان مسقط فيجب أن لا تدمر الحملة سفن القراصنة الموجودة هناك قبل أخذ الموافقة الصريحة على ذلك[1] .



١ ـ وردت هذه الاقوال في كتاب دليل الخليج لمؤلفه لوريمر .

٣ - تقرير القوة البحرية لضرب القواسم

كانت القوة التي أخرجت لضرب القواسم شديدة جداً فوق مستوى الشدة .

قال لوريمر : كانت القوة البحرية التابعة للحملة تحت قيادة القائد « ج ونيرايت » الذي يقود سفينة صاحب الجلالة « تشيفون » وتسليحها ستة وثلاثون مدفعاً ، فكيف تقدر عليها رأس الخيمة الواقعة على الساحل ؟ فيعترض الاسطول لها في البحر ، ويطلق عليها طلقاته النارية وهي غالباً مبنية بسعف النخل الذي تشتعل فيه النار كاشتعال البارود ، بالاضافة إلى السفينة « كارولين » وتسليحها ، أيضاً ، ستة وثلاثون مدفعاً فيكون المجموع في هاتين السفينتين فقط ، اثنين وسبعين مدفعاً ، وطرادات الشركة المعظمة « مورننجتون » وتسليحها اثنان وعشرون مدفعاً ، و « تيرنيت » وتسليحها ستة عشر مدفعاً و « اروى » وتسليحها أربعة عشر مدفعاً و « برينس اوف ويلز » وتسليحها أربعة عشر مدفعاً ، و « ميركوري » وتسليحها أربعة عشر مدفعاً ، و « نونيليس » وتسليحها أربعة عشر مدفعاً و « فستال » وتسليحها عشرة مدافع و « فيورى » المسلحة بثمانية مدافع ، ثم قاذفة القنابل « سترمبولي » ، وقد كان مجموع السفن في الحملة البحرية احدى عشرة سفينة من عظائم السفن البريطانية ، وفيهن من المدافع خاصة ،

كما ذكر المؤلف الانجليزي لوريمر (١٨٤) أربعة وثمانون ومائة مدفع من الطراز العصري الفعال . هذه هي الحملة الثانية التي حملتها بريطانيا على القواسم لمحوهم من الوجود ، فكأنها حملت على ألمانيا أو روسيا ، لأن السفينتين الاولين المسلحتين باثنين وسبعين مدفعاً تكفيـــان لمحو القواسم من كل الساحل الشمالي ، فكيف بهما على قواصنة كما تقول الدولة العظمى ، فتحمل على القواسم بهذا العتاد العظيم ، والسلاح الهائل ، من هنـا تتجلى أهميـة القواسم في نظر بريطانيا ، ومن هنـا يعلم ، قدر القوم في ميزانيتها ولهم الفخر مع هذا ولو غلبوا ، أو دمروا ، عن بكرة أبيهم ، فإنهم صاروا كفؤاً لأن تحمل عليهم بريطانيا هذه الحملات الرائعة ، أضف إلى ذلك أن القوة البرية التي تساند هذه القوة البحرية ، كانت مؤلفة من أوربيين وهنود وغيرهم ، ممن تستخدمه بريطانيا من المرتزقة من سائر الأجناس ، كما سوف ترى ذلك فيما بعد ، ولعل ذلك فعلته حين رأت الأمير الوهابي في البريمي ، فأرادت أن تظهر قوتها . على كل حال إنها دولة قوية عظيمة لايجهـــل قدرها في العالم ، وبذلك يفخر القواسم ، حيث أقبلت عليهم ، هذه الدولة الكبيرة بهذه الجحافل الحامية .

* * *

٤ - بيان القوة البرية التي كانت تساند القوة البحرية في الحروب القاسمية

حقدت بريطانيا على القواسم حقداً كبيراً وهمت بسحقهم سحقاً بالغا ، وذاك الحقد ثمرة للحروب التي خاضهـــا القواسم ، والغزو الذي مازلوا يمارسونه طيلة تلك المدة ضدها والخصم كبير لا يستهان به . وقـد رأى القواسم من بريطانيا في تلك الحملة التي حملتهـا على رأس الخيمة قوتهـا مع علمهم أنه على سيف البحر لبريطانيا سلاح فعال يدوخ أعظم الدول ويهشم الجبال إذا وجه إليها . ويتحدث لوريمر عن قوة بريطانيا البرية فيقول : أما القوة البرية فكانت تشمل أربع ناقلات جنود كبيرة ، يقودها الملازم كولونيل بول سميث من فرقـة صاحب الجلالة الخامسة والستين ، وتضم ألفاً وأربعمائة واحد عشر جندياً ، ومن المشاة ثمانمائة وثلاثة وثمانين أوربيا ، وخمسمائة وثمانية وعشرين هنـدياً ، وكان الجزء الاوربي من الجنود يضم بعض فرقة صاحب الجلالة الخامسة والستين ، وفرقة صاحب الجلالة السابعة والأربعين ، إلى جانب فصيلة من مدفعية بومبي ، ويصل عدد الهنود إلى ستمائة وثمانين هندياً ، ويصل تعداد القوة كلها بالتالي إلى ألف ومائتي جندي ، وكانت الحملة ككـل القيادة المشتركة للكابـتن ونسرايت ، والكولونيل سميث ، أي باشتراك القائدين المذكورين في هذه الحملة ، وكان من قدر

الله عز وجل أن أرسل النقمة على القائد الكابتن ستون المقيم في مسقط ، قبل اقلاع الحملة بشهر ، إذ أدركته الحمى ، في البصرة فقضت عليه فاستراح القواسم منه ، وصدرت الأوامر لمستر بروس الذي يشغل مكان الهالك ، الذي يحتمل أنه لم تكن لديه خبرة محلية كافية مثل سلفه ، إذ كان ذاك أبصر وأمهر ، بالمواقع القاسمية والأهداف المحلية ، ولكن القدر سبق إليه فانهى حياته ، وما كان الثاني بأهل لأن يظل في مسقط لأن الموقف المسقطي مهم جداً يحتاج إلى مجرب من الرجال خصوصاً في ذلك العهد ، وقضي السلف ، كذلك قبل نهاية العام فأراح الله العباد من بليتها ، وكان ذلك في صالح القواسم والأمور تجري بمشيئة الله عز وجل .

خرجت الحملة من بومبي يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٩ م سراً ، خشية ان يتصل الخبر بالقواسم فيستعدوا له أو يعالجوه ، وحتى لا يشعروا بما يدبر ضدهم من جانب هؤلاء الأعداء حتى يفاجئوهم ، وهم على غير أهبة للقاء هذا الخطر الداهم الكبير ، وقبل أن تنقضي أربع وعشرون ساعة على خروجها من الميناء سقط قاع قاذفة القنابل (سترمبولي) وهوت في البحر ، وغرق أحد ضباط المدفعية ومعظم بحارتها ، وكمية كبيرة من الذخيرة المعدة لاستخدام الحملة ، وكان المحمول فيها شيئاً عظيماً من العدة التي لم تطقها ، فقضى الله عليها بذلك ولله في خلقه ارادة ، إلا أن النفوس الغليظة لا تبالي بما تلاقي ولا تكترث بل تعتقد أن الأمور تجرى على الطبيعة الوضعية . .

وصلت الحملة إلى مسقط في ٢١ اكتوبر سنة ١٨٠٩ م ولحق بها إليه هناك كابتن (باستي) وغيره من أعضاء بعثة سير جون مالكولم إلى إيران ،

وكانوا آنذاك في طريقهم اليها ، وقد عرض هؤلاء السادة خدماتهم تطوعا ، فتقبلتها قيادة الحملة منهم (فتراه يصفهم باسم السادة ، وأما القواسم فيصفهم باسم القراصنة) وكان هؤلاء السادة متطوعين بأنفسهم للجهـــاد في حرب القراصنة ، وكان السيد سعيد بن سلطان في حالة يائسة وساخطة ، ويرى أن الحملة أصغر من أن تقوم بالمهمة الموكلة اليها ، أي أنه كان مستصغراً للأمر ، ويرى أنه من تلاعب بريطانيا ، لاسيما حين لاحظ أن الامير السعودي موجود في البريمي ، وأن هذه الحملة لاتعمل شيئاً ، إذا زحف عليها القواسم لأنهم سيصطادونها ، كما هي عادتهم ، وغاب عنه أن الحملة ستفاجيء القوم على حين بغتة منهم ، وهم على سيف البحر ، لا يقدرون أن يمتنعوا منها إذا تعرضت الأماكن المقصودة ، وكان الامر يدور في فكر السلطان على خلاف المقصود والأمر لله من قبل ومن بعد ، والحرب كما قيل ، تارة لنا وتارة علينا ، دون النظر إلى الكثرة ونحوها ، وإنما هو أمر الله يفعل فيه مايشاء فانه هو الرامي الحقيقي ، وبه تكون الامور رغم سائر الخلق ، وقد رسخ في فكر السلطان سعيد أن هذه خزعبلات وتلاعب فقط ، بالنظر إلى ماجربه منها فيما سبق ، لكن الأقدار سماوية تجرى بحكمة الفعال الحكيم ، فلا غرو أن إنتصر العدو على خصمه ، فالحرب هذا حالها مع الناس أيا كانوا حتى مع النبيين وأعدائهم ، ومع الأولياء والصالحين ، ومع الكفار والمسلمين ، وكل ذلك لحكمة سامية ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من يحيا عن بينة .

ويقول لوريمر : أنه في هذه المرحلة لم يعرض السيد سعيد تعاونه مع بريطانيا وتم الحصول على قوارب الاستكشاف المطلوبة ، وخرجت الحملة من مسقط يوم ٥ نوفمبر وقد انضم اليها ضابط موفد من شيخ الكويت

يقود كل عمارته البحرية وعرض تقديم مرشدين يعرفون مداخل جميع موانيء القرصنة ، لكن كابتن ونيوايت رفضهم ، ثم ندم على عمله هـذا في عدم قبولهم ، « ولعل شيخ الكويت كان يخشى صولة القواسم أن تأتي عليه فتحتل بلاده » فلذلك جاء بهذه المساندة ، أو تقدم بها إلى الجانب البريطاني ، لتكون له يد في ذلك عليها » . وعلى أثر رفض الكابتن المعونة المعروضة أسف أسفاً كبيراً ، فيما بعد ، لأن الموشدين الذين صحبوه من مسقط ثبت أن لا جدوى منهم ، لأنهم لا يعرفون المواقع المقصودة كما ينبغي ، وقد وصلت الحملة إلى رأس الخيمة بعد ظهر يوم ١١ نوفمبر ، أي انها بقيت في البحر منذ خروجها من مسقط ، مدة ستة أيام ، لكن ضحالة المياه أرغمت السفن على أن تتخذ موساها على مسافـة تتراوح بين ميلين إلى أربعة أميال ، أي أنها اضطرت أن تتوسع في البحر بعيداً عن الشاطيء وعن المدينة نظراً لحجم سفن الحملة حيث كانت سفنا ضخمة ومثقلة بالأحمال والعدة ، فاذا كانت كل واحدة تحمل ستة وثلاثين مدفعاً من ذلك الطراز العصري ، بالاضافة إلى باقي المعدات والركاب ، فهي عظيمة جداً ، وكانت السفينة « منيرفا » التي استولى عليها القواصنة (أي صقور البحر) ثم جهزوها بعشرين مدفعاً منطلقة في سبيلها ، تمشي في البحر بجولة استطلاعية ، لكشف أخبار العدو وطليعته في البحر العربي ، وذلك أنهم مازالوا في خوف من العدو ، مع علمهم بقوته وقدرته وسطوته ، وحين وصل الاسطول البريطاني إلى رأس الخيمة ، وبمجرد أن شاهدت السفينة منيرفا الاسطول عمدت إلى الاحتماء ببر دائري كبير ، يبعد حوالي ميل إلى جنوب المدينة ، وفي هذا الموضع هاجمتها السفن الصغيرة في الحملة واستولت عليها . . قلت : (ثم

هنا بدأ انقلاب النصر للعدو المهاجم) .. لكن النيران القوية المتواصلة من الشاطىء ، منعت سفن الاسطول من سحبها ، فاحترقت في مكانها بعد أن اشتعلت فيها النيران من الجانبين ، فذهبت ضحية النار ، وفي محاولة لتطويق « منيرفا » ذهب الطراد برنس أوف ويلز حولها ، فجنح إلى الأرض ، وكان البريطانيون قد أرسلوه ليطوقها تمهيداً لسحبها اليهم ، فلم يفلح ، وأصابته النيران الصادرة عن القواسم من الشاطىء ، فهلك تبعاً لمنيرفا ، بما فيه من قوة ، إذ أصابته النيران إصابات كبيرة مباشرة .



٥ - قصف رأس الخيمة بالمدافع الضخمة

عند ذلك توجهت القوات البريطانية لضرب رأس الخيمة ورتبت أنظمة الضرب واثبتت قواعدها ، وفي اليوم ١٢ من الشهر نفسه اصطفت السفن لضرب المدينة من كل جانب ، واطلقت النيران فقصفت مدافع السفن الاصغر حجما المدينة ، لأنها استطاعت الاقتراب منها إلى أقصى ما يمكن ، لكن المدافعين ظلوا يطلقون قذائف مدفعيتهم الصغيرة ، واغلقوا الخليج ووقفوا عليه كسور من الحديد ، بحيث لم يستطع جنود العدو التقدم أقل شيء في الميدان .. وفي الصباح الباكر من يوم ١٣ نوفمبر قامت مظاهرة بحرية عند مدخل الميناء من طرف المدينة الشمالي ، وخلف هــذا الستار نزلت قوة المشاة البريطانية وبعض القوارب البحرية ، عند الطرف المقابل في مياه تصل إلى منتصف قامة الرجل ، واعترض هذا الانزال حشد من الرجال بالسيوف والاسلحة الخفيفة ، لكن نيران المدافع التي اطلقت عليهم من القوارب المسلحة استطاعت تشتيتهم ، وقــد ركزت بريطانيا مدافعها وسفنها في البحر على السور ، وأطلقت نيرانها عليه فانقض واندثر ، ولم يستطع الثبات لتلك المدافع الثقيلة التي تدك الجبال لو واجهتها ، ومنذ الساعة الثانية بعد اشراق الشمس إلى مابعد الظهر والمدافع الرنانة تعمل عملها ، حيث تم احتلال وسط المدينة ، بعد أن دمرت المدفعية المباني ،



ميناء لنجة التابع للقواسم يتعرض لحملة عدوانية بحرية من القوات البريطانية

١٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٠٩ م



وخربت المنازل ، وهدمت السور تماماً ، وذهب القواسم عن الميدان بعيداً حيث لاطاقة لهم على رد الواقع عليهم من أفق البحر ، وهم في مدينتهم . وعند ذلك نزل الجنود البريطانيون ورفعوا العلم على بيت الشيخ إيذانا باتمام الاحتلال ، وإظهاراً لانتصارهم ، والنار تلتهم المدينة من كل جانب ، ولم يبق منها إلا ماشاء الله .

قال لوريمر : والأجزاء الشمالية فقط في شبه الجزيرة بقيت في أيدي العدو (أي القواسم) وفي الساعة الرابعة أحرق بحارة الاسطول البريطاني خمسين سفينة راسية على الشاطىء ، تابعة لرأس الخيمة ، وكأنهم لم يستطيعوا سحبها عندما نزل العدو على الساحل المذكور ، ولعلها كانت خالية فارغة من كل شيء ، منها ثلاثون سفينة كبيرة ، وأصبحت المدينة نهباً للنيران ، وقد نهب أفراد من الجنود بعض الأسلاب ، ولكن لم يسمح بأعمال النهب العام ، وبعد شروق الشمس في يوم ١٤ نوفمبر وصل تقرير يفيد باقتراب حشد كبير من القوات العربية في الداخل ، فبـــادر الكولونيل سميث للالتزام بالتعليمات الموجودة لديه بتجنب أي اشتباك مع الوهابيين ، وأصدر الأوامر بصعود الجنود إلى ظهر السفن باسرع ما يمكن ، ولم تحصل الحملة على تسليم بالهزيمة من العرب الذين سرعان ماعـادوا إلى احتلال الشاطىء ، ومن الواضح أن القائد عندما رأى الرجال يقتربون من الساحل ظن أنهم من الجهة السعودية ، وكانت لديه تعليمات من حكومة الهند بأنه إذا دخل الحرب مع القواسم سعوديون فعليه إيقاف الحرب ، ولذلك ابتعد الجنود البريطانيون ، وحل محلهم في الميدان رجال المدينة الذين سرعان ما عادوا إلى احتلال الشاطىء ، وكأن شيئاً لم يحدث ، وهناك مايحملنا على الاعتقاد

بأن القائد الوهابي مطلق تحرك لنجدة رأس الخيمة بمجرد وصول أنباء مهاجمتها اليه ، وفي ضوء هذا الاعتبار ، وفي ضوء ماحدث بعد عدة أسابيع قليلة في شناص ، لا نستطيع توجيه اللوم إلى القائد البريطاني لاتخاذه هذا المسلك الحذر ، ولعل القائد المذكور يظهر خلاف ما يضمر لأن كل ما عنده كان خصومة سلطان مسقط ، ولذلك وقع جيشه على الساحل الشمالي واحتل منه مكانات من أعمال شناص وما اليها عندما قامت القائمة على رأس الخيمة ولعل هناك نوايا لم تظهر بعد .

* * *



ميناء شناص يتعرض لحملة عدوانية بريطانية
٣ كانون الثاني (يناير) ١٨١٠م



٦ - القضاء على رأس الخيمة

إن المنتصر يحكم هواه في المغلوب ، وهذا أمر طبيعي مالم يكن هناك وازع ديني ، وأين ذلك الوازع من هؤلاء الناس ؟ نحن لا نقول كما يقول العدو ، بل نقول ، إن نشوة النصر تحمل المنتصر على عدم المبالاة بعدوه ، ولما سقطت رأس الخيمة بمدافع بريطانيا ، ورأى البريطانيون أنهم قد إنتصروا على عدوهم ، حين قضوا على قوة القواسم ، وانهارت المدينة ، وهي بعد في بادىء أمرها ، أي في أول سقوطهـــا ، بانهدام حيطانها وبيوتها . ولكن لم يعرف هل تحقق خضوع أهلها ، أم أن وراءهم أمورٌ آخر ، أما المدينة فقد تحقق سقوطها ، ولم تزل معرضة لنيران مدافع العدو المنسابة اليها من كل جانب ، أمـا القوم فقـد بقوا في جدران مدينتهم ، والمدافع المعادية تدقهم بمثل الرعـد القاصف ، وهم لا يصلون إليها ، ولو أنهم هاجموها في مرساها كما هي عادتهم ، لاقلقوها ، واطاروا روعها والقضوا عليها قبل أن تقضي عليهم . ولهذا فان القواسم بقوا يزدحمون على الشاطيء ، ومدافع العدو تقضي عليهم ، وهو متغلغل في عرض البحر ، إذا رأى رداً شديداً عليـه ابتعد في البحر بحيث لا يناله عـدوه ، وتلك حكمة إلهية من الله يخص بها من يشاء من عباده ليرى الناس عجزهم ، حتى يعلم العاقل أن الأمور كلها بيد الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريـد ، ولابد المرء من تفكير لمستقبله كماضيه ، والأيام في الحقيقة دروس صحيحة

تبرهن للعاقل عن واقع الحياة ، ولاشك أن عدواً أقوى منك عدة وعدداً ينتصر عليك بحكم القوة ولو بعد حين ، وقد جعل الله للنصر أسباباً ، ومن أسباب النصر توفر القوى وتفوقها ، وذلك واضح تقضي به العادة في الأمم ، فإن جاء النصر على غير هذا الطريق كان كالنادر أو كان معجزة لنبي ، أو كرامة لولي من أولياء الله كذلك ، أما جمهور الأمة فإن الله جعل النصر فيها غالباً رهين القوة ، فلذلك أمر الله بها في كتابه العزيز إذ قال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » أما في أمثالنا فتحقيق النصر من أسبابه القوة ، وتوفر القوى هو الذي ينبغي أن يقدم ، وكانت قوى بريطانيا بالنظر إلى قوى القواسم شيئاً فوق الحد ، والعادة تقضي بالانتصار عليهم خصوصاً على سيف البحر وبلاد القواسم معرضة لمدافع العدو ونيرانه ، وإذا لم ينتصر القوي اليوم فلا بد أن ينتصر غداً ، مادامت قوته باقية ، وإذا ذهبت قوته الحاضرة إستعاد النصر بقوته الغائبة ، وهذا أمر مشاهد لا بد منه ، ولا مناص عنه ، وقد وقع هذا كثيراً في عمان نفسها ، إذ جهز الحجاج الجيوش إلى عمان ، والعمانيون يهزمونها ، حتى إذا وهت قوتهم والعدو في نشاطه أدركهم ، والأقدار حاكمةٌ على الإنسان ، وقد قتل الامام الجلندي في رأس الخيمة ، وأنصاره وأعوانه ، إذ تلقوا العدو الذي داهم البيضة ، بفئة قليلة ، وكان اللقاء على الظاهر للتفاهم ، أو لأن الظن بالعدو غير كبير الأهمية ، فانحل جيش الامام الجلندي لقلته ، وقتل القوم كلهم ولم يبق منهم إلا الإمام رحمه الله وقاضيه ، فقاتلا غير آملين بالنصر ، بل ليلحقا بالقوم ، مفضلين الموت على الحياة ، والعمل في سبيل الله مع العلم بأجر الشهيد ، واحتل العدو الداهم البيضة ، فداس على كرامة المغلوبين وقضى على زعامتهم ، وكم لهذا من أمثال في عمان

نفسها ، دع عنك غيرها ، وكان أعداء القواسم وغيرهم من الاستعماريين سواء كانوا انجليزا أو إفرنسيين أو برتغاليين أو اميركيين ، ونحوهم ، قد تمرنوا على الحروب ، وجعلوا لها دروساً في قوانينهم يزنون بها قوة أعدائهم ولا يتعرضون لخطر يرون له تفوقاً من وجه حتى يتخذوا له ميزانه ، وهكذا فإن الوبال يحيق بالأقل عدة وعدداً ، وهذا دأب الأمم كلها إلا النادر ، ولا نقول عن النادر شيئاً إذ له حكمه ، وقد أشار إلى هذا القرآن الكريم ، وصرح به من علماء المسلمين كثيرون ، ونُقل عن جمال الدين الأفغاني ، أنه سئل ، أين يوجد العدل ؟ فأجاب : حيث تتكافأ القوى ، وهذا واضح ، وإذا كانت قلوب المسلمين أقوى من أعدائهم بالنظر إلى قضية دينهم ، فإن الأعداء أقوى بسبب استعداداتهم ، ولا يخفى أن صاحب السيف البتار أقوى من صاحب السوط ، وإن كان قوياً ، وهكذا فدق المدفع الذي تهدم طلقته القبب وتكسر الجبال ، أقوى على غيره ممن هو دونه ، والاستعدادات قوة عالية في الأحوال البشرية ، ولولا ذلك لما دعا الله اليها ، وهي حتى في الأطعمة فإن لهم استعداداً متنوعاً ، متعدد النواحي ، ميسور المنال ، حتى في أوقات الضيق ، سهل المتناول عند الحاجة ، فالجائع ولو كانت قوته كالجبال لاتفيده ، وكذلك الظمآن ، ونحو ذلك من الأسباب التي يستدعيها المقام . وابتعد القواسم عن مصادمة العدو في البحر وبذلك صفا له البحر ، وبقي آمنا مطمئنا ، ولكن العزم القاسمي بقي يحوم حول بلاده ، وقد إتسع مجال العدو ، واغتنمها فرصة ، مشى في ضوئها ، وإذا بالقواسم يتهافتون على النار تهافت الفراش على اللهب بغير مبالاة ، لكن على غير ضوء سياسة ، بل بسبب اندفاع العربي نحو تحرير أرضه .

قال لوريمر : لا يبـدو لنا أن القتال في رأس الخيمة كان قتالاً عنيفاً ..
قلت : أما نحن فيبدو لنا أن هذا القتال كان عنيفـاً إذ أصبحت أفواه المدافع تقذف النيران من كل جانب ، وأي قتال أعنف من هذا ؟ حيث لم يستطع صقور البحر الابتعاد في أفق الأرض ، لأن النار تأتيهم محلقة في الأفق البعيد .. لكن بعض المباني لم تتم السيطرة عليها ، وبقي رجالها الأبطال يدافعون عنها ، وعندما لم تستطع مـدافعهم الوصول إلى العـدو المهاجم ، كان لابد لهم من الخضوع لهذا العدو ، بعد قتال شديد ، وبعد أن شد العدو على المباني فقضى عليها وهو في عرض البحر .

قال لوريمر : وبلغت خسائر البريطانيين من القتلى جنديان قتلا على ظهر السفينة برينس اوف بلز ، وكابتن دانزي من الفرقة الخامسة والستين المشاة الذي أصابته طعنة رمح في رقبته وهو يتسلق أحد بيوت المدينة ، ولولا ساتر الدخان الذي أحدثه احتراق المدينة لزادت خسائر البريطانيين كثيراً ، لأن الدخان حال بين القوم المتقاتلين ، فلم ير القواسم أعداءهم بسبب الدخان الذي أثاره الحريق في المدينة ، لأن المدينة التي يغلب عليها بناء السعف ، التهبت كلها ناراً وارتفع دخانها فستر البريطانيين عند هبوطهم إلى المدينة ، ولولا ذلك لكان القواسم أقوى شكيمة في الساحل وأشد استبسالاً من البريطانيين ، لاسيما أنهم يدافعون عن وطنهم ويحامون عن حريمهم .

* * *



شواطئ مدينة رأس الخيمة كما تبدو في شهر نوفمبر سنة ١٨٠٩ م



٧ - خسائر القواسم في الحروب البريطانية

لقد عرفت أن خسائر البريطانيين كانت جنديين وكابتن واحد فقط ، لأن القوم كانوا يرمون المدينة من البحر وهم على سفنهم ، دون أن ينزلوا إلى البلاد رغم هرب أهلها عنها عندما اشتعل الحريق فيها ، أما القواسم وهم المغلوبون على بلادهم وعلى أمرهم ، فلا بد أن تكون الخسائر بينهم كبيرة ..

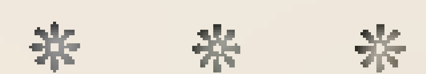
قال لوريمر : أما الجانب الآخر أي جانب القواسم فقد ذكر أن عدداً يتراوح بين سبعين وثمانين قتيلاً من هؤلاء الاوغاد قد قتلوا ، وسماهم اوغادا على المنهج التنقيصي الذي اعتاده البريطانيون ، فهم ليسوا بأوغاد ، وإنما هم أسياد ، ولكن الحرب سجال ، لا ينبغي أن تقول لهم أنت — أوغادا — . . بينما هم في الواقع من أشد الناس بطولة واستبسالاً .

قال لوريمر : أما عمليات الانزال ثم الصعود مرة أخرى إلى ظهور السفن ، فتعتبر في ضوء الخسائر القليلة التي حدثت من أنجح العمليات العسكرية حينذاك . . قلت : على كل حال إن هذه العملية من أكبر العمليات العسكرية ، حيث كان عدد القتلى من القواسم حوالي الثمانين قتيلاً غير الجرحى ، بالاضافة إلى الأموال المنهوبة والمباني المكسرة ، والأموال المبعثرة ، وهذا شأن الحرب في كل زمان ، فخسائر القواسم باهظة جداً إذ

هي أموال وأرواح ومبان ، لها قيمتها ، وهدم شرف ، وابدال العز بضده ، لهذا فهي كثيرة وكبيرة جداً ، ولكن الذي يتعهد الحرب لا يبالي كما قيل بقتل الأقارب وبذل المال .

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والاقـدام قتال

ومن طلب الحسناء لم يغلها المهر ، ومهر النصر أرواح الرجال ، واثمان العز والشرف ودماء الأبطال ، وهيهات أن تنال أمة عزاً بغير ذلك .





القتال في شوارع رأس الخيمة يمتد من بيت الى بيت بين المقاتلين العرب القواسم
وبين قوات الحملة البريطانية العدوانية في شهر تشرين الثاني ١٨٠٩م

٨ - الأنجليز يحاولون تدمير قوات القواسم

لاشك أن الغالب يقضي على المغلوب بما يناسب السياسة ، ولذا قام الانجليز بتتبع القوات القاسمية للقضاء عليها تماماً ، قطعاً الأجنحة التي يطير بها الصقور وقطعاً الأظافر والمخالب التي يصطامون بها العدو في الحروب ، أما الرجال فلن يقدروا على محوهم من الوجود ، وأما العدة والعتاد فقد قضوا عليها تماماً ، وهاهم الآن يتتبعون السفن القاسمية ومن يناصرها .

قال لوريمر : حين ذلك عبرت السفينة البريطانية الخليج إلى لنجة ، فوجدتها مهجورة ، من أهلها الذين عرفوا بنبأ وصول الاسطول الانجليزي ، خوفاً من هجومه عليهم بدعوى مناصرة القواسم أو الاشتراك معهم ، وفي اليوم السابع عشر قامت قوة صغيرة من القوات البريطانية باحتلال المدينة (أي لنجة) بعد مقاومة يسيرة ، لأن الناس إرتحلوا عن المدينة كما صرح المؤرخ لوريمر ، وأصبحت مقفرة ليس بها أحد إلا ما شاء الله ، ثم اشتعلت فيها النار ، بالاضافة إلى تدمير عشرين سفينة شراعية من بينها تسع سفن كبيرة مخصصة للحرب ، وقد قضى الانجليز على هذه السفن جميعها .

وفي منتصف يوم ٢٦ نوفمبر قامت طرادات مورننجتون وترايدات ونتوتلي لوس وفيري ، وناقلة الجنود ماري ، وبواسطة مرشدين من جزيرة قشم (أي أدلاء أخذوهم ليدلوهم على الأهداف) بدخول مضيق كلارنس

وأرست خارج ميناء لافت ، وكانت هذه الحملة تضم خمسمائة من المشاة الانجليز ، وطلبت إلى القواسم وحلفائهم أهالي قشم الإستسلام فوراً ، ولكن دون جدوى ، أي لم يكن لطلبهم هذا تأثير ولم يصغ اليه الأهالي الذين طلب اليهم الاستسلام .

قال لوريمر : في حوالي الساعة الثانية من ظهر اليوم السابع والعشرين ، وكانت الحامية لا تزال ترفض الاستسلام ، أنزل ثلاثمائة جندي إلى البر لمهاجمة القلعة ، ولكن تبين أنها كانت محصنة تحصيناً أقوى مما ينتظر ، وكانت النتيجة أن القوة المهاجمة لم تستطع تحقيق شيء ، ونظراً للنيران المستمرة من مدفع هوتيزر عيار (٥،٥) بوصة ، لم تستطع أن تنسحب ، أي أن الحملة المهاجمة أصبحت تروم الهرب من البلاد دون أن تقدر خوفاً من مدفعية القلعة ، كما قيل ، إلا عندما هبط الظلام ، وفي نفس الوقت استمر الطراد فيوري وغيره من القوارب المسلحة في اطلاق النيران إلى غروب الشمس ، وعند ذلك تمكن المهاجمون من تحويل مرصدهم إلى جهات أخرى وإذ ذاك تمكنوا من ضرب القلعة فأصيبت اصابات خطيرة ، وخسر العدو في هذا اليوم قتيلاً واحداً وخمسة وعشرين جريحاً ، وكان بين القتلى ضابط أيرلندي من الفرقة السابعة والثلاثين ، وهو الذي قام بجهد شجاع لإسكات طلقات الهوتيزر ، وفي المساء أرسل انذار إلى ملا حسين الذي كان يقود الدفاع عن المدينة بضرورة الجلاء عن القلعة قبل الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي وبقي الحصار مستمراً إلى طلوع الشمس ، وحين أشرقت الشمس ، وبرز النهار ، كان الملازم هول من بحرية بومبي ، قد استطاع أن يتسلل ليطوق القلعة من الناحية الأخرى وبذلك أتم تنفيذ

المخطط لتدميرها ، وفي هذه الاثناء قبض الجنود على سفينة تابعة الميناء فاحرقت ، أما القلعة فقد تم الاستيلاء عليها في أثناء الهجمة السابقة .

قال لوريمر : وحمل من المدينة بعد سقوطها مايزيد على مائتي الف روبية سلمت لوكيل حاكم مسقط ، لأن لنجة من أعمال مسقط تولاها القواسم ، أو لأنها ساعدت القواسم في عملياتهم . وفي السابع من شهر ديسمبر تواعدت القوات كلها على اللقاء في القاعدة التي أقيمت في بركا ، أي ان قاعدة هذه القوات كانت تتمركز في بركا لأسباب سياسية ، وذلك بالقرب من مسقط ، وارسل أفراد الفرقة السابعة والأربعين إلى جانب مائتي جندي هندي إلى بومبي .

لم تشمل عمليات تدمير السفن القاسمية القوارب الصغيرة التي لاتصلح لممارسة أعمال القرصنة ، أي لاتصلح للقتال ، وكان السيد سعيد الذي تجددت آماله وانتعشت باستعادة لافت يتلهف لقيام الحملة بتنفيذ مخطط حكومة بومبي كاملا في إجلاء القواسم عن موانئهم في شناص وخور فكان (أي كانتا في ذلك الوقت تحت سيطرتهم على حدوده البحرية الغربية) .

قال لوريمر : وتقرر أن تلبي هذه الحملة[1] الرغبات والعمليات الناجحة التي قامت في شناص بالنسبة للسلطان سعيد بن سلطان ، وبعد أن غادرت الحملة شناص رجعت إلى الخليج ووصلت الرمس يوم ١٥ يناير سنة ١٨١٠ ، وسرعان ما أحرقت عشر سفن وجدتها هناك في الساحل ثم توجهت الحملة إلى جزيرة الحمراء وهو المكان التالي الذي زارته بعد الرمس ، فأبدى

---

١ ـ ورد ذكر هذه الجملة بالتفصيل في تاريخ سلطنة عمان للمؤلف .

الأهالي فيه شيئاً من المقاومة ، لكنهم حين عرفوا أن مدينة الرمس قد انقذت (أي لم تهاجم ولم تضرب) سارعوا إلى الاستسلام وسلموا سفنهم للحملة وهي ثمان سفن احرقت بالنار ، ثم توجهت الحملة إلى الشارقة فلم تستطع أن تجد فيها سفنا كبيرة ، كما أن اسطول عجمان إذ توقع المصير نفسه ، استطاع تلافيه بالتسليم للأمر والخضوع للحملة . وفي يوم ٢١ يناير رست الحملة ، بعد ان عبرت إلى ماجو بوسى الساحل الايراني ، فوجدت فيه أربع قوارب تابعة للشارقة فاحرقتها ، وزارت الحملة تخيلو ، وشاراك ، وكنج ، وبند معلم ؛ لكنها لم تجد سفناً كبيرة في أي من هذه الموانىء ، ثم وجهت إنذاراً حاسماً إلى شيخي الميناءين الأول منهما ، وقبل عودة الحملة بعد إكمال عملها جميعه ، وكان مفروضاً أن تعود إلى الهند ، دارت مناقشة حول القيام بعمل ضد القرصان رحمه بن جابر زعيم القراصنة في قطر ، الذي استطاع بمعاونة القواسم أن يوقع الهزيمة بالقوة التي أرسلتها السلطات الايرانية ضده في بوشهر ، وكان من رأى مستر هانسكي مميث المقيم السياسي في بوشهر ضرورة إنزال العقاب به ، أي برحمه بن جابر المذكور ، لكن المشروع رفض بالنظر إلى وقوف رحمه محايداً إن لم نقل ودياً تجاه الدولة البريطانية ، أي كان في نفس الوقت محايداً لم يتعرض للدولة البريطانية أو رعاياها .

* * *

٩ ـ القوة القاسمية تعود ادراجها في رأس الخيمة

ظنت بريطانيا بعد تلك الاعمال التي اوقعتها بصقور البحر العماني القواسم ، أن الحركات قد وهنت، وان امور القواسم قد انتهت ، ولكن الامر ليس كما ظنت بريطانيا ، وليس هدم رأس الخيمة واحراقها بمثن من عزيمة القوم ، وكم أهلكت ولايات وهدمت امارات ولم يطل عهدها ، الا وهي هي بحركاتها وأعمالها .

خلقنا رجالا للتجلد والأسى   وتلك الغواني للبكا والمآتم

في سنة ١٨١٠م كان الشيخ سلطان بن صقر منفياً عن امارته بعمل الوهابيين وكان شيخ الرمس هو المسؤول عما قام به الوهابيون ، وكان سلطان بن صقر من أجلّة زعماء القواسم في ذلك العهد ، وكان القواسم في تلك الآونة خاضعين للوهابيين .

قال لوريمر : فلذلك لم تحاول الحملة (أي الانجليزية المدمّرة لرأس الخيمة والقاضية على القوى القاسمية) توقيع صلح مع القواسم وفق الاهداف التي حددتها لها حكومة بومبي ، أي لأن النظر بوجب مفاوضة الوهابيين في أمر القواسم لما لهم عليهم من خضوع ، وبالنظر إلى وقوف العمليات العسكرية في رأس الخيمة دون أن تصل إلى منتهاها بسحق القوم ، وبحقهم تماماً ،

فقد تعذر توقيع الصلح على الوضع الحالي ، لأن حكومة بومبي تروم في القواسم أكثر مما وقع ، ولأن شيخ القواسم كان غير موجود ، فهي بهذا لا تحب مدّ يد الوهابيين هنا لئلا تتطور الامور إلى مدى أبعد فتتعرقل الأعمال إلى حد أوسع ، والبريطانيون يتهمون الوهابيين بالواقع بتحريك القواسم ، أي ان الوهابيين هم المحركون لهذه الأحوال وانهم هم المدد الفعال هنا ، وان اظهروا غير ذلك ، فلذلك تعذر توقيع اتفاقية دون وقوع المزيد من العمليات أولاً ، لكنّ شعوراً ساد بين المسؤولين البريطانيين في ذلك الوقت ، بأن خطر القواسم قد انتهى ، وأن الباقي هو اتخاذ الاجراءات الكفيلة بعدم تجدد هذا الخطر ، ونصح مستر مانستي المقيم السياسي في البصرة بأن تفرض الحكومة حظراً على تصدير الأخشاب إلى مسقط وبقية موانيء الخليج حتى لا تعود للخليج قوة ما ، وفرض هذا الحظر نفسه على مسقط التي هي السلم الذي تمشي عليه بريطانيا ، لأنها تود القضاء على حاكمها يوماً ما لأنه مسلم ، ولأنه عربي ، ولأنه في الخليج ، وكل ذلك من مصالحها ، هذا فعل العدوّ وإن أبدى صداقته ، لأنه كالحية وإن تلاينت في تقلبها فهي تتحرك لتقذف السم وتهلك الوعي وتعدم الحياة ، وما ذكره لوريمر في أهل مسقط من هذا النوع لايخفى على الممارسين والمتمرسين ، وهيهات أن يصفو قلب العدو لعدوه وان تبسم ، فإن تبسمه شررٌ إذا وقع على ريق أحرقه ، ولما قرر مانستي منع مسقط والخليج من بيع الأخشاب أيده الجنرال مالكولم المبعوث البريطاني في ايران ، وصوب ذلك الاقتراح ، لكن ثبت بعد ذلك ، أنه لاجدوى فيه لأن العرب سينالون الأخشاب المشار اليها بسهولة ويسر ، لأن أبواب العالم مفتوحة ، فاذا لم يجـــدوها

في بومبي وجدوها في أمكنة اخرى ، فعند ذلك تراجع عن هذا المنع ..

قال لوريمر : منعت الحكومة البريطانية بالفعل بيع الأخشاب للعرب من ساحل مالابار وظل هذا الحظر زمنا ما ، حتى أثبتت التجربة أن العرب لايجدون صعوبة في الحصول عليها من أماكن أخرى خاصة من ترافنكور وكانت الغاية من المنع ان لايستطيع العمانيون القواسم وغيرهم انشاء سفن تمشي في البحر ، فتموت حركتهم بذلك ، ولكن فوق تدبيرهم لله تدبير ، فالعرب العمانيون من القواسم وغيرهم مصابون من جهة النفوذ البريطاني الاستعماري ، وهو في الحقيقة إذ ذاك عدو الكل ، وان نفع العدو في حال لابد أن يضر في أحوال أخرى طبعاً .

قال لوريمر : ويبدو أن ثمة خطابا أرسل لامير الوهابيين من بريطانيا يُطلب فيه اليه ، منع انصاره من ارتكاب عمليات القرصنة ، وكل أعمال العرب عندهم قرصنة ، قال : ورد الأمير رداً محملاً بالسخرية ، ذكر فيه أنه لاداعي له للدخول في عراك مع الدول المسيحية ، وانه قد أمر رعاياه بعدم التعرض للسفن البريطانية ، وقد اثنى الحاكم العام في الهند ومجلسه أيضاً على القدرة والكفاءة والحماسة التي اتسمت بها عمليات الحملة من جانب الكابتن وينرايت والكولونيل سميث حيث انتصروا على القواسم ، واعلم ان القواسم وهم جميرة عمانية متقدة كما قلنا ، لم يثنهم ما لاقوا في رأس الخيمة ، وليس القوم ممن إذا رأى الحرب كاع ، وسائر العرب هكذا ، إلا أن الدول الافرنجية تتفوق على العرب إذا استهانوا بدينهم ، وعند ذلك يسلط الله عليهم اختلاف قلوبهم وتنازع مقاصدهم ، فتذهب ريحهم ويعصف بهم عاصف سماوي لعلهم ينتبهون ، أما النصر فقد وعد الله المسلمين

به على عدوهم ، فقال عزّ وجلّ : « ماجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا »
وقال : إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . فتراه شرط في هذه
الآية أن يكون النصر لدين الله عزّ وعلا ، وبذلك ينصر الله عباده ، أما
إذا كان لأجل الدنيا فقط فهو تهاوش على الحطام ليس الدين منه في شيء ،
قال الله عزّ وجل : « وإن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا
الذي ينصركم » وقد نصر الله المسلمين على أعدائهم حتى ملكوا الدنيا شرقاً
وغرباً ، وقضو على دول كبرى طعناً وضرباً وأصبحوا سادة العالم ، لاقراصنة
العالم كما تقول بريطانيا في القواسم ، والقواسم في الحقيقة ما كانوا قراصنة ،
وإنما أرادوا أخذ حقوقهم القانونية التي واثقتهم عليها بريطانيا ولم تف لهم
بها ، وبعد ذلك حاولوا ما هو أكبر ، وراموا الزعامة الكبرى ، وأملوا
السلطنة العلياء ولا بدع فقد قيل سابقاً :

نفس عصام سودت عصاما
وعلمته الكر والاقداما
وصيرته ملكـــاً هماما

فالقواسم عرب من أمجاد العرب ، وأعمالهم من أهم أعمال العرب ،
وان حاولوا الاستقلال بالسلطنة عن سلاطين عمان آل بوسعيد بن سلطان ،
فان الاخوة أنفسهم مازالوا في عمان يقتتلون على سلطنتها حتى قتل سالم بن
ثويني اباه عليها ، فغير بعيد ولابدع أن يحاولها القواسم ان استطاعوا لها
سبيلا ، وليس الملك مخصوصاً بأمة معينة أو بقبيلة مخصصة ، انما الدنيا
كما يقول المتنبي « لمن غلب » ، وهذا أمر معروف بديهة ولتعزيز الملك كلّ

يووم العمل له ، رغم العراقيل ، ولولا ذلك لبقي الملك في أول منزل ينزل فيه ولن يتحول عنه ، ولكن حكمة الله قاضية بتداول الدنيا في أيدي أهلها ، وإذا أراد الله زوال الملك من قوم إلى آخرين هيأ لذلك أسباباً يقوم بها الطالب ويتأخر عنها المطلوب ، ولاشيء أبقى للملك من العدل ، والسير على أوامر الملك الحقيقي وهو الله عزّ وجل ، لأن العباد كلهم بين اصبعين من أصابع قدرته .

* * *

١٠ ـ القواسم يعيدون الكرة في الحروب البريطانية

لاريب أن القواسم وهم الرجال الأبطال الذين ناطحوا بريطانيا وعرفوا عنها الكثير ، كما عرفت عنهم ، اصبحوا مغمورين بالحنق على ماصار عليهم برأس الخيمة ، فهاجوا على ممارسة بريطانيا أخذاً بثأر رأس الخيمة ، وقاموا على الموانىء التي يحل البريطانيون فيها والمواقع التي يحتلونهـا ، واشتدت شوكة صقور البحر وحددت مخالبهم وفرت أنيابهم جسم البحر الذي تخوضه السفن البريطانية ، وننقل إليك ذلك عن المؤرخ الانجليزي ومن معه من الافرنج ، ليكون أثبت حجة وأبين محجة ، قـال :[1] في سنـة ١٨١١ إلى سنة ١٨١٩ م ، وغارات القواسم لم تقف ولم تنؤ ، وجمرة القوم لم تنطف ، وقد عرفوا ما حل عليهم برأس الخيمة حتى احترقت الخيمـة ولم يبق لها رأس ولا طرف وما برحت تعالج جرحها الفادح ، حتى قام صقورها وحلقوا على أفق البحر فكانوا على بريطانيا أضر من الأول ، وخلال ماتبقى من سنة ١٨١٠ وسنـة ٨١١١ م ، كان طرادا الشركة بنيارس وبرينس اوف ويلز ، مرابطين في الخليج العربي العماني ، فتوقفت القرصنة توقفاً تاماً . ولكن في سنة ١٨١٢ بدأت الدلائـــل تشير إلى عودة القواسم

١ ــ ورد ذلك في كتاب دليل الخليج للوريمر (الصفحة ٩٩٥ من الجزء الثـــاني) .

لأسلوبهم القديم ، وفي سنة ١٨١٣ م سقطت في أيديهم عدة سفن كبيرة تابعة لكانجون والبصرة ، كما قاموا أيضاً بنهب عدد من سفن التجار الهنود التي ترفع العلم البريطاني ، وأرغموا عدداً آخر منها على البقاء دون حراك في مياه (بوبندر) دون أن تجرؤ على الابحار ، وكان تجدد عمل القرصنة الذي تشير إليه الحركة البريطانية على هذا النحو ، يشير إلى أن عدداً كبيراً من سفن القراصنة قد أفلت من التدمير في سنة ١٨٠٩ م وسنة ١٨١٠ وسنة ١٨١٣ م ، وكنا قد أشرنا من قبل في تاريخ سلطنة عمان إلى اعداد السيد سعيد بن سلطان ، سلطان مسقط حملة على رأس الخيمة ، كان الهدف الاول منها إعادة الشيخ سلطان بن صقر الشيخ الشرعي للقواسم إلى مكانه من قبيلته ، وبالنظر إلى أنه وعد بأن يبذل كل مافي وسعه لقمع القرصنة ، وحسب اقتراح الشيخ سعيد وبأوامر من الحملة العمانية أن يشهد توقيع الاتفاقية التي ينوي الشيخ سعيد إبرامها مع الشيخ سلطان بن صقر ، وليرتب مع شيخ القواسم بعد إعادته إلى الحكم إجراءات تجديد اتفاقية سنة ١٨٠٦ م تمهيداً لعقد اتفاقيات مشابهة مع القوى العربية الاخرى في الخليج ، وقد تبين فشل حملة السيد سعيد من وجهة النظر العسكرية على الرغم من المساعدة التي قدمتها قبيلة بني ياس ، لأن بني ياس ساعدوا السلطان سعيد في هذه الحملة التي قام بها ، لأنهم باقون على الولاء لمسقط ، إلا أن الحملة لم تحقق شيئاً مع أن خطط بريطانيا هنا لم يكن لها أثر بل هي منهارة على ورائها ، وكل ما نقلناه وننقله أغلبه منه لأنه تصدى لتحرير القضايا وأقام على أوضاعها جهوده ، وحررها وان كان تحريره على وضع ماهم عليه من تصوير القضايا ، لكنه أفاد في الحال

افادات هامة فنقلنا أغلبه منه ، إلا شيئاً من ابن زريق العماني ، وما كان بالناحية الشمالية في هذه الآونة رجال علم يهتمون بتاريخها وكان العمانيون في شرق عمان لايهتمون بالقضايا الشمالية لبعد البلاد في ذلك العهد ، وعدم الاتصال بتلك الفتن والشرور التي تبثها القبائل وتتهاوش عليها ، والذي يسافر إلى الشمال كالذي يسافر الآن إلى اميركا وروسيا ونحوهما ، فلذلك لم نجد لأهل عمان الشرقيين ذكراً هاماً لأحوال شمال عمان إلا لمحات خاطفة ، وأما البريطانيون الذين يدونون تاريخ هذه البلاد ، فهم يهتمون بها تمام الاهتمام ، لأنهم لايزالون يتعاركون واياها عهداً أشبه بعهود العرب واليهود في العصر الجاهلي ، وهكذا من اهتم بقوم ذكرهم ، ان كان خيراً ، أو شراً طبعاً ، وكذا جاء في عمان مصيراً ومسيراً بعض الجمل التي تدل على بعض القضايا التاريخية ، وفي سجلات حكومة الهند البريطانية الشيء المحقق ، إلا أنه مصور على رغبة القوم ، كما قلنا ، ولا يخفى فضل التاريخ في الأمم ، فليت أهل عمان حفظوا حوادث دهرهم دليلاً للآتي من الناشئة العمانية ، وبرهاناً تمشي على ضوئه الأمة ، لتجعله مقياساً لمستقبلها بالنظر إلى الماضي ، ولتعلم أن في اختلاف الليل والنهار آيات لأولي الاعتبار من أهل الأبصار .

قال لوريمر[1] : ولفترة من الزمن كان المقيم السيامي على مراسلة لحسان بن رحمه الشيخ الموجود في رأس الخيمة وقت ذاك . وذلك فيما يتعلق بالغارات التي يرتكبها القواسم على سواحل الهند ، وفي نفس الوقت

---

١ ـ الصفحة ٩٩٧ من الجزء الثاني من كتاب دليل الخليج .

إستولى شيخ الشارقة ، بالقرب من جزيرة (قيس) على السفينة المسماة (أحمد شاه) وواضح أنها كانت تحمل بضائع لشركة الهند الشرقية ، ونهبت محتوياتها ، ونقل جانب من المحتويات إلى رأس الخيمة في قارب مملوك للقواسم ، ولم يرد حسان بن رحمه على الخطاب الأول الذي أرسله اليه المقيم ، بل سار إلى الدرعيّة مباشرة ، وربما ليتفاوض مع عبد الله بن سعود أمير الوهابيين وقتذاك بهذا الصدد ، وفي طريق عودته إلى رأس الخيمة أرسل حسان من الاحساء رجلاً يدعى حسان بن محمد بن غايث بخطابين أحدهما من الشيخ المذكور ، والثاني من أمير الوهابيين عبد الله بن سعود للملازم (بروس) الموجود وقتها في (بوشهر) ووصل هذا المبعوث بوشهر في الثاني من اكتوبر سنة ١٨١٤ م ، وفي هذين الخطابين أنكر كل من الشيخ والأمير أن يكون القواسم قد ارتكبوا أي اعتداء على سفينة ترفع العلم البريطاني ، ووعدا برد كل مسروق يثبت أنه كذلك وطلب كلاهما ضرورة توضيح الفروق بين الرعايا البريطانيين وسواهم ، وأضاف الشيخ مطالباً بأن يعامل حسان بن محمد معاملة الوكيل المخول بكل الصلاحيات التي تمكنه من تجديد اتفاقية سنة ١٨٠٩ م ، وطلب أيضاً النظر إلى الماضي بعين الصفح والتناسي ، وتجدد الأمل في أن يرسل حسان بن رحمه وكيلاً عنه إلى بومبي ، ليناقش امكانات عقد اتفاقية منظمة ، وقد شرح لوكيل القواسم أن السلطات البريطانية لن ترضى عن القواسم ، إلا إذا توقفوا عن أعمالهم العدائية في البحار ، كما أنهم لن يعيشوا في إطمئنان على أرواحهم إذا لم يكفوا عن هذه الأعمال ، وهكذا وقع الملازم (بروس) وهذا الوكيل اتفاقاً مبدئياً ينص على أن ترفع السفن البريطانية علماً خاصاً يميزها عن سفن العرب العامة العاملة في البحار حتى لا يتعرض لها القواسم ،

وتنص على اعادة المسروقات التي استولى القواسم عليها (انظر هل هنا مسروقات ، والمدفع الرنان قد فغر فاه ، واطلق دفعات نارية ، كاد ان يحترق منها البحر العربي ، واين أحمد بن شاه من المسروقات وقد عرفتها سابقاً) .

قال لوريمر : وأن يلتزم القواسم ببعض الشروط الاخرى ، وبهذا يسدل الستار على الماضي ، أي يعفى عنه ، (والحقيقة أن رأس بريطانيا لا يزال مصدوعاً برأس الخيمة ومابرح إلا وهو في ألم من القواسم) . وترك لهم حريتهم كاملة في التردد على موانىء الهند (أي يسمح لهم بذلك) . وفور الاتفاق رفع المقيم الاتفاقية لاعتمادها من حكومة بومبي ، وسرعان ماثبت عبث الاتفاقية المشار اليها ... أي لم يكن لها مفعول يعوّل عليه حين استولى القواسم في ميناء رأس الخيمة على قارب كان الملازم (بروس) قد أرسله يحمل خطابات وديّة إلى شيخ القواسم ، ومبعوثه حسان بن محمد بشأن عدة قوارب ترفع العلم البريطاني كان القراصنة - أي صقور البحر القواسم قد استولوا عليها - خارج ميناء (بوبندر) في اغسطس السابق ، بل وتذكر إحدى المصادر أن المبعوث نفسه قد تعرض في أثناء رحلة رجوعه من (بوشهر) إلى رأس الخيمة لأسوأ معاملة بسبب ارتباطه بالكفر ، أي كأنه عوقب من جانب القواسم ولعله أسيء به الظن .

قال لوريمر : ويبدو أن القواسم قد أحسوا بأنهم ورّطوا أنفسهم فاندفعوا إلى مظاهرة من الاعتداءات البحرية فاقت كثيراً ماارتكبوه من قبل ، ففي ميناء (بجوّ) وبموافقة أهله استولى القواسم على سفينة يملكها السيد سعيد بن سلطان ، كانت محملة بالخيول لاستخدام فرقة صاحب الجلالة



النيران المشتعلة في مدينة رأس الخيمة في أعقاب قصفها من قبل الاسطول البريطاني
خلال الحملة العدوانية الثانية على عاصمة القواسم في شهر نوفمبر ١٨٠٩ م



السابعة فرسان ، وشحنة من الكبريت للحكومة البريطانية نفسها ، كما استولى القواسم أيضاً على ست سفن وطنية على ساحل السند ، (والمعنى أنها لغير الحكومة البريطانية) .. وبعدها بفترة قصيرة حدث اشتباك خارج قريّات بين واحد من أساطيلهم يضم سفينة كبيرة وخمسا وعشرين سفينة أصغر ، وبين اسطول يقوده السيد سعيد سلطان مسقط بنفسه ، وفي هذا الاشتباك جرح السيد سعيد .. وكاد القواسم أن يستولوا على سفينته التي ترفع العلم البريطاني المسماة (كارولين) ، وفي سنة ١٨١٩م استولى القواسم على سفينة تابعة للهند البريطانية وأعدموا معظم بحارتها واحتجزوا عدداً قليلاً منهم للحصول على الفدية (أي من تأخر أجله بقي معهم أسيراً) .



١١ - القواسم تشتد شكيمتهم على بريطانيا

رأى القواسم أن بريطانيا عدوة الدين ، وعدوة المصالح الدنيوية ، ولا ترى لأحد حقاً الا لمن تخشاه أو تخافه . ومن تريد أن تتعشاه تلين له حيناً ، لتلتهمه وتستولي على سواده ، ورأى القواسم أن قتالها جهاد ، والتضييق عليها في هذا البحر عين السداد ، كما أن ترويعها ومشاغلتها عن بسط أيديها في البلاد العربية واجب يفرضه الدين ، ولا يصادق العدو الا مغلوب على أمره ، أو خالي الذهن من الدين أو ميت في حياته ، فلذلك شد القواسم على بريطانيا غزوا وصراعاً بعد أن وترتهم في رأس الخيمة ، بالأمس ، وأحرقت بلادهم ومزقت شملهم ، وفرقت جمعهم ، وأرتهم مايكرهون ، وبدأو يزحفون على سفنها ، ولا يبالون بما يلاقون ، فهاهم في السادس من يناير سنة ١٨١٦ م يهاجمون خارج دواركا سفينة الشركة التي يقولون لها المعظمة (داريادولت) وكان قائدها وبحارتها من الهنود ، واستولوا عليها ونزلوا على ظهرها رغم أهلها ، وقبضوا عليها بيد من حديد ، وكان عدد الذين قضى عليهم القواسم فيها سبعة عشر قتيلاً ، والباقون جرحى إلا ماشاء الله منهم قدر ثمانية أنفار بقوا فيها بصحة تامة ، وقد وضعوا الجرحى على الساحل الهندي ، وحملوا الباقين أسرى ، وكانت السفينة مسلحة بثمانية مدافع ، وقيل خمسة مدافع من عيار ٢ رطل ، وقد هاجموها بثلاث سفن

تحمل كل واحدة منها سبعة مدافع من عيار ٢ رطل ، وكل سفينة تحمل مائة رجل أو مائتين وهكذا (كذا يقول كتاب دليل الخليج) .

وكانوا مسلحين بذلك السلاح العصري الفعال وهم قراصنة ، أي لصوص ، نعم هم صقور البحر ، لا قراصنة ، وغاية ماعند القراصنة ان يسرقوا الناس مستخفين ، فاذا أحس الناس بهم هربوا ، أما الذين يحملون في غزوهم الأساطيل المسلحة بالمدافع فلا يقال لهم قراصنة ، الا عند من لايقدرهم والحقائق التاريخية يجب أن تقدر وتوضع في موازين العدالة عنـــد أهل التاريخ ، لا كما يقول الانجليز ، وهاهم القواسم يتقاحمون على شرر النـار ليقبضوا على ناصية السفينة (اوروا) المسلحة بأربعـة مدافع وهي سفينـة الشركة ، وقادوها من ناصيتها راغمة ، وكان قائدها الكابتن (جيكس) ، وكانت تحمي سفينة صغيرة هابطة في الخليج تحمل أموالاً إلى آخره ، فلما انقض عليها الصقور استولوا عليها بعدما دارت رحى الحرب بينها وبين الصقور ، وقد اطلقت نيرانها فأطفأتها أجنحة الصقور ، وبعد ان اغرقت بعض السفن القاسمية بضرباتها القاسية ، وفرّ بعضهـا ، أصبحت رهن إشارة القواسم رغم شدة مقاومتها .

قال لوريمر : ولم يكد يمضي وقت طويل حتى قـام القواسم بمهاجمـة السفينة الاميركية (بيرميا) وأطلقوا عليها النيران وأشعلوا الحرب عليها ، وفي هذه الاثناء أيضاً هاجموا السفينتين (ماكلوى وسنترا) وسفينة افرنسية اخرى ، كانت في طريقها من (موريتس) إلى البصرة ، رغم أنها كانت في حماية سفينة افرنسية اخرى ، وكان المجموع خمس سفن ، استولى القواسم عليها بحمولتهـــا ، ولا يخفى أن الاستيلاء على مثل هذه السفن الضخمة

المسلحة غير هين لا يجترىء عليه إلا القليل من الناس ، فعادت للقواسم بذلك قوة بحرية لاتزال تعرف ، لأن هذه السفن مع حمولتها الكبيرة ومدافعها القوية تزيد في قوتهم العسكرية زيادة محسوسة ، وتزيد في غيظ بريطانيا ولم نعرف لأمـــة في العرب من الشر لبريطانيـــا والجرأة عليها ما عرفناه للقواسم في هذه المواقف . ولقد تأصلت العـــداوة وتغلغلت بين القواسم وبريطانيا ، بشكل لايرد هذه العداوة أو يمحوها الا تخلي بريطانيا عن الساحل المتصالح ورد الأمور إلى أهلها .



١٢ ـ القواسم يهاجمون عدة سفن بريطانية

لم تمض عدة أسابيع على الواقع الذي ذكرناه ، الا والقواسم يتعاظمون في أعمالهم أكبر من الأول وأكثر ، فها هم في هذه الآونة كما قال لوريمر (ارتكب القواسم عدة عمليات قرصنة جديدة كان من بينها الاعتداء على سفينة ترفع العلم البريطاني ، لم نستطع التأكد من اسمها وقد استولت عليها خمس قوارب من قوارب القراصنة ، أي صقور البحر ، واعملوا السيف في رقاب بحارتها جميعاً) هذا النص الذي تقرأه من غير أن نخرم منه حرفاً واحداً ، وكل مانقلناه في هذا الكتاب هو النص الذي حرره المؤلف خاصة ، يعطيك صورة واضحة عن هؤلاء الابطال .

قال لوريمر : كما وقع طراد الشركة المسلحة (توراو) بين أيديهم ، ولم تغن اسلحته شيئاً عندما تقاحم عليه صقور البحر ، واعتلوا ظهره وأصبح فريستهم ، إلى أن قال : واستمرت اعتداءاتهم في كل الاتجاهات ووصلت المسألة إلى حد أن الملازم (بروس) عجز عن ان يجد قاربا يحمله خطاب انذار للقواسم ، أو قال : لرأس الخيمة ، والمعنى أن كل هذه السفن الكبيرة والصغيرة أصبحت في أيدي القواسم ، وهذا من العجب ، ولاعجب في الاقدار ، فانها فوق مستوى الظنون ، ومن يريد أن يخاصم الدول ،

يجرّد نفسه لخوض المعامع ، وأي خوض كهذا ، أمام قاذفات القنابل والمدافع والرصاص المرسل من البنادق في وسط البحر وعلى لجة الطامي الزخار ، إنها وأيم الله شجاعة نادرة ينبغي أن تقدر ، فإننا لم نجد أن الانجليز أو الجنود المدربين استولوا على سفينة واحدة للقواسم إلا بعد قصفها بالمدافع وخروج القواسم منها فعند ذلك يستولي عليها البريطانيون ، وكم رأينا القواسم يتهاوون على سفن الانجليز تحت نيران المدافع ذات الصواعق في وسط لج البحر الخضم ، انها لشجاعة ليس لها مثيل ، وما كان نفوذ البريطانيين في رأس الخيمة واخضاعها لهم إلا بعد أن احرقتها نيران مدافعهم وكسرت مبانيها من بعيد وخرج عنها أهلها .

قال لوريمر[1] : فمعظم الموانىء على الساحل الايراني وفي الجنوب حتى (ناباند) بدأت تفاخر بما يحدث في ساحل القراصنة وتتخذه قدوة لها . وأخيراً وصلت الأمور قمتها واشتد الأمر على بريطانيا وضاق وسعها في الخليج ، وانهارت سيادتها المزعومة ، ورأت أن لاخلاص لها من أنياب الصقور إلا بالصدام الحامي والصبر على المر ، وارتكاب المصاعب وهي سيدة البحار وقد كسر سيادتها القواسم الذين يقسمون المنايا حينا ، وحينا يقسمون المغانم ، والدهر كله عراك واحتكاك .

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ‏ وإن يرق أسباب السماء بسُلّم

وعندي أن ذلك يرجع إلى أن بريطانيا ، وهي قابضة على خزينة الدنيا ، تريد أن يكون طريقها في الخليج العربي آمنا وعلمها محترماً ،

---

١ ــ جاء هذا النص في الصفحة ١٠٠٠ من كتاب دليل الخليج .

وان يجلها الناس على كزازة يدها معهم ، وهذا بعيد وغير معقول ، ولو جعلت للقواسم ماوقعت عليه ،وأتمت كلامها معهم واحترمت بلادهم وحقوقهم لكانت الأحداث غير ماعرفنا ولكان الموقف مختلفاً ، ولكن هناك لله عز وجل أسرار لابد من ظهورها . ولما استولى القواسم على السفن الثلاث في البحر الاحمر سنة ١٨١٦ م وهي سفن تجارية تابعة لسورات يملكها تجار هنود ، وترفع العلم البريطاني اعلانا برعويتها لبريطانيا ذات الحول والطول ، أعدم بحارتها جميعاً ومن كان على ظهرها ، باستثناء أفراد قليلين ، هم الذين رووا القصة لصاحب الدليل[1] ، وحكوا له المأساة .. وبلغت الخسائر هذه المرة ، مايزيد على مليون ومائتي الف روبية ، وكان يقود القراصنة في هذه العملية الامير إبراهيم أحد أقرباء حسان بن رحمه شيخ رأس الخيمة في ذلك الوقت ، وكانت اعتداءات القواسم في هذه المنطقة الجديدة والنائية قد بدأت منذ سنة ١٨١٥ م ، وزاد شوط القواسم في هذه المرة وحمّ وطيسهم واشتعلت نارهم ، فكثرت غاراتهم في البحر العربي العماني ، وفي البحر على طول الساحل الجنوبي بما فيها « جزيرة كوريا موريا» و « هاسق » حتى اوحشت هذه الامكنة من الوارد والصادر ، وانعدم الانيس بهذه الاطراف خوفاً منهم ، وكان القواسم يرتكبون أعمالاً عدائية كثيرة في أماكن عديدة على طول الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية بما فيها جزر كوريا موريا على البر ، وهذه الجزر في الأصل تابعة لحكومة عمان الا أن السلطان أعطاها لبريطانيا لتجعل فيها قوة تحمي أمن البحر العربي من ذلك الجانب النائي ، إذ كان الاسطول العماني السالف يلاحظ هذه الأطراف

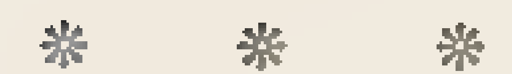
---

١ ــ أي مؤلف كتاب دليل الخليج ، وما ورد هنا من كتابته .

بدقة أيام كان العمانيون سادة البحر العربي بأساطيلهم الضخمة التي عرفها العالم ، وقد اعتبرت دولة عمان الدولة الرابعة من دول البحار .

قال لوريمر : وبلغ القواسم درجة جعلوا فيها هذين المكانين مقفرين تماماً من السكان ، وقد استغرق البحث في المسألة الابتدائية من القواسم على سفن صورات هذه وقتاً طويلاً ، وفي سبتمبر سنة ١٨١٦ م وبمجرد أن تكشفت حقائق الحادثة ، أبحرت من بومبي السفينة الحربية المقاتلة (شالنجر) المسلحة بثمانية عشر مدفعاً وطرادات الشركة المعظمة ، كما يقولون ، (ميركوري) (وفستال) وكل واحدة مسلحة بأربعة عشر مدفعاً ، متجهة إلى الخليج ، وأرسلت سفينة إلى رأس الخيمة تطلب تفسيراً لهذا العمل ، لكنها رجعت إلى بوشهر تحمل إنكاراً واضحاً من جانب القواسم للدور الذي قاموا به في البحر الاحمر ، ومع هذا الانكار تبريرات غريبة مثل قولهم ان القواسم قد وعدوا باحترام أرواح وممتلكات المسيحيين ، وهذا لا يسري بالتالي على الهندوك الوثنيين وأضافوا أنهم لايستطيعون أن يعتبروا كل أهالي الساحل الغربي للهند رعايا بريطانيين ، باستثناء أهالي بومبي ومانجالور ... وفي الصباح الباكر من يوم ٢٦ نوفمبر وصل إلى مواجهة رأس الخيمة المقيم الملازم بروس ليتفقد أحوال القوم وماهية الغرض الوحيد الذي يرومونه بهذه الأعمال ، وكما عرفت ان (شالنجر) السفينة القوية التي ذهبت تستكشف الأحوال في رأس الخيمة كانت مزودة بثمانية عشر مدفعاً ، فمثل هذه السفن التي تعتبر قلاعاً منيعة تخشى صولة القواسم ؟ ومثل هذه السفينة القوية لا يقابلها إلا مثلها ، وإذا بالسفن البريطانية تخشى صولة السلطات القاسمية بحيث لاتقدر على مجابهة القوم إلا

بشدة وعدة ، ولقد رأى القواسم تغلغل العداوة ، والدماء تورث الضغن لذلك لم يزالوا على عداء مع بريطانيا ولايرون التأخر عن معاداتها لما سبق من هدم أركان رأس الخيمة وحرقها وتمزيق القوة القاسمية ، ولعدم الانصاف تهيج النفوس المصابة إلى العداء المرير حتى ترى الانصاف فتسكن اليه ، ولم ير القواسم من بريطانيا شيئاً يحسن السكوت عليه ، فلذلك قاموا بمناوشتها حتى استفحل الخطب وأدى إلى ماأدى اليه مما دعا بريطانيا إلى احتلال بلاد القواسم بالقوة الفعالة كما ذكر المؤرخون .



١٢ - اسطول بريطانيا
يهاجم رأس الخيمة مرة أخرى

وفي كتاب النهضة للشيخ الشيبة السالمي مايلي : في أواخر شهر اكتوبر سنة ١٨٠٩ م خرجت الحملة الثانية من بومبي وهي تتألف من ثلاث سفن حربية ، وثلاث اخرى لحمل المعدات ، وبعد توقف قصير في مسقط بدأت بمهاجمة مراكز رأس الخيمة ، وبقيت هذه الحملة تتردد في الخليج إلى أول يناير سنة ١٨١٠ م حيث شدت رحالها عائدة إلى بومبي ، وفي سنة ١٨١٣ م عاد القواسم إلى الجهاد فتجرأت سفنهم على السفن جميعها ، الانجليزية منها والمحلية ، وفي سنة ١٨١٤ م امتد نشاطها إلى ساحل كنش والسند ، ورداً على أعمال القواسم حاولت السلطات البريطانية انتهاج سياسة التفاهم معهم أولاً ، فقام بروس ممثل الشركة في بوشهر بمفاوضات طوال سنتي ١٨١٥ ١٨١٦ م على أساس رد المسلوبات أو أعطاء تعهد باحترام السفن البريطانية ، ورغم ارسال مندوب عن الشركة للمفاوضة فان القواسم لم يظهروا استعداداً لقبول الطلب الاول ، وعبر وليم هنيد أحد ضباط البحرية الذين زاروا رأس الخيمة والخليج في تلك الحقبة عن هذا الرأي بقوله : ان المفاوضات مع أمثال تلك العصابات خدش للكرامة البريطانية وتنازل عن السيادة

المعترف بها على البحار ، وفي سبتمبر سنة ١٨١٨م قامت بريطانيا بوضع خطة لتدمير القواسم ، فقدمت عدة مشاريع أمام حاكم الولاية ايفان نيبيان لاختيار أحدها ، وكانت هذه المشاريع تختلف أساساً في مـــدى التدخل البريطاني في شؤون الخليج ، فمن قائل بالاكتفاء بتـدمير القرصنة وعـدم التدخل في الشؤون السياسية إلى قائل بضرورة رسم خريطة الخليج السياسية على الوجه الذي يروق لبريطانيا ، وكان نيبيان أميل إلى الرأي الثاني .

حتى تأمن بريطانيا في هندها وطريقها لا تبـالي بمن تقتل ولا بمن تمحو من الوجود وقد إختارت مشروعاً يؤيد مساعدة الدول المسالمة في منطقـة الخليـج . وذلك بأن يوطد سلطان فارس على سواحل الخليج ، ويمد نفوذ السيد سعيد على رأس الخيمة ، والنتيجة من هـذا أن تُدخل بريطانيا في هذه الشباك سلطان مسقط فتجعله محل القواسم ، ليقوم العداء بينـه وبين أهل الخليج ، وايران ، وتشغلهم بذلك ، وتبقى هي تسدد الاحوال وتصلح الاعمال فتضرب رأس هذا برأس ذاك فتنـال بذلك المقصـد الذي ترمي اليه وأن يشجع الاتراك على الاحتفاظ بالساحل الممتد من رأس الخيمـة على أن يتولى سلطان مسقط نفقات اقامة الحامية . وعنـدما أرسل هـذا المشروع للحكومة العامة في كلكتا للموافقة عليه رأت أنـه أوسع مدى مما يجب ، ولكنها وافقت على مبدأ التدخل الحربي والسياسي ، وفي ابريل سنة ١٨١٩م استقر الرأي على المبادىء الآتية :

أولاً : احترام الأوضاع السياسية الداخلية في الخليج فلا تتدخل بريطانيا لصالح أحد الرؤساء إلا إذا طلب اليها ذلك ، وحينئذ تؤيد صاحب الحق المشروع ، وعلى هذا استبعد الرأي القائل بتسليم جزر البحرين لحاكم مسقط .

ثانياً : وضع أسس لحرية الملاحة في الخليج وحـق تفتيش السفن بالاتفاق مع القبائل العربية .

ثالثاً : أفضلية جزيرة قشم على رأس الخيمة لاقامة قاعدة بريطانية ثابتة .

وسنرى أن هذه المبادىء قد وجهت السياسة البريطانية في الخليج فترة طويلة .

* * *

١٤ ـ الحملة البريطانية الكبرى على القواسم

قال : وعلى أساس هذه القرارات خرجت حملة بحرية كبرى من بومبي في ٣ نوفمبر سنة ١٨١٩ م تتألف من ست سفن حربية كبرى علاوة على السفن الصغيرة التابعة لها وعلى ظهرها ثلاثة آلاف بحار أكثرهم من الاوروبيين ، وقد عين الجنرال وليام جرانت كير قائداً لها ، ووصلت الحملة إلى هدفها الأول في رأس الخيمة في أوائل ديسمبر سنة ١٨١٩ م ورغم عدم تعادل القوات والتفاوت الكبير في الاسلحة التي يستخدمها كل من الخصمين ، فقد أظهر القواسم بسالة فائقة في الدفاع عن رأس الخيمة فظل الانجليز يضربونها بمدافعهم مدة ستة أيام من الثالث إلى التاسع من شهر ديسمبر ، قبل أن يستطيعوا النزول بها ، كما أقامت عدة حاميات كان أهمها يعسكر في رأس الخيمة ، وبعد ارهاق الاهلين بالمحرقات وعجزهم عن الاستمرار في المقاومة نزل جنود بريطانيا ، فنهبوا البلاد وسلبوها في يوم واحد كل ما وصلت إليه أيديهم .

قال لوريمر : إن كل واحد من الانجليز زادت ثروته في ذلك اليوم مالايقل عن ثلاثمائة جنيه « بل أكثر من ذلك ، كما دمرت لهم مائة سفينة حربية في الميناء . فليأخذ العرب درساً من الاستعمار وأعماله الوحشية بعد انتصاراته ، وليعلم العمانيون ما وقع على آبائهم ، وماحل في بلادهم لما دخلها

الاستعمار ، وما وقع بعد هذا على بني بو علي في جعلان ، قلت : أما ماوقع على القواسم في رأس الخيمة فشيء تسببوا له بأنفسهم لأنهم عاركوا بريطانيا وأروها من شجاعتهم ما لا يقدر عليه غيرهم ، واحتلوا سفنها ، وطواداتها ، وهدّدوها في الموانىء كلها ، حتى في الهند ، وفي البحر الأحمر ، وعملت سيوفهم في دماء القوم شيئاً يحسن السكوت عليه ، كما أنهم قبضوا على العديد من الرجال الذين جعلوهم خدماً في ظهيهم ، بخلاف بنو علي فانهم لم يفعلوا شيئاً يذكر إلا أنهم لم ينقادوا لسعيد بن سلطان ، ولم يعترفوا بسلطنته ، فجاءهم بأناس أغمار من أهل عمان ، وفيهم من لايود انتصار سعيد بن سلطان عليهم ، فلذلك قاتلهم ولم يغن قتاله إياهم شيئاً ما ؛ ثم جاءهم بالانجليز ، وبعد حرب غير بعيدة المدى خضع بنو علي ؛ وقادهم الانجليز وخرجوا بنسائهم وذراريهم ، أما القواسم فرغم أن الانجليز قد حاولوا الاغضاء عنهم ليكفوا شرهم ويرفعوا ضرهم ، وما يلاقونه كل يوم في لجج البحر منهم ، إلا أنهم زحفوا على رأس الخيمة وضربوها بالمدافع حتى غدت جمرة حمراء كلها لأجل ما معهم من القوة التي مع الخصم ، وأما بنو علي فكانوا خلاف ذلك كله .

لم تنسحب القوات البريطانية بعد تدمير الموانىء العربية ، كما فعلت في سنة ١٨٠٩ م بل أنزلت الجنود على الشاطىء وأقامت عدة حاميات فيه ، نعم ان الوقت يقتضي ذلك ، ولو لم تفعل بريطانيا ذلك لاختطفها صقور البحر القواسم ، وكان أهم هذه الحاميات يعسكر في رأس الخيمة وفي نفس الوقت ، أخذ اسطول حكومة بومبي بمسح الجزء الجنوبي لشاطىء الخليج .

* * *

١٥ ـ معاهدات السلام والصلح

عمد جرانت كير إلى توقيع معاهدات منفردة مـــع معظم رؤساء القبائل أولاً ، لأنه يريد أن يفرقهم عن كتلتهم ، أعني القواسم وبعض القبائل الذين لهم سلطة مستقرة في المنطقة الواقعة مابين قطر وحدود سلطنة عمان ، وتتناول كل من هذه المعاهدات الاجراءات العملية المناسبة بكل مشيخة من هذه المشيخات ، ففي المعاهدة المعقودة مع صالح بن صقر شيخ القواسم وضع القائد البريطاني الشروط الآتية :

١ ـ يتعهد شيخ القواسم بتسليم السفن الحربيـة الموجودة في رأس الخيمة أو في الشارقة أو في أبو ظبي ويحتفظ فقط بمراكب الصيد .

٢ ـ يتعهد الانجليز بعدم الدخول إلى احياء القبائل بغية تخريبها .

٣ ـ يرد العرب مالديهم من اسرى من الرعايا البريطانيين .

٤ ـ بعد تنفيذ هذه الشروط ، يقبل القواسم بمعاهدة الصلح العامة ، كبقية القبائل العربية المسالمة .

وهذان الشرطان الاخيران تجدهما في جميع المعاهدات الفردية المعقودة مع رؤساء القبائل الآخرين ، ولكن بينما يتعهد الانجليز للقواسم بعدم

احتلال أحيائهم يشترطون في المعاهدة الثانية المعقودة مع حسن بن أحمد احتلال موانيء رأس الخنين ومسهرة وجميع القلاع المشيدة في البلدان المجاورة لها ، ولما لم يكن لهذا الشيخ منطقة نفوذ محدودة فقد نصت المادة الثانية على الاستيلاء على جميع سفنه الموجودة في موانيء المشيخات الاخرى ، ولا تختلف المعاهدات الاخرى التي وقعت مع مشايخ المنطقة الآخرين وهم مشايخ أبو ظبي ، وبني ياس ، ودبي ، عن المعاهدة الأولى الخاصة بالقواسم ، اللهم إلا في المعاهدة الموقعة مع شيخ دبي حيث وردت مادة تسترعي الانتباه ، وهي تقول : « يمتنع الانجليز عن الدخول لساحل المشيخة أو عن تحطيم أي حصن أو برج فيها ، وذلك احتراماً للسيد سعيد » . ويستنتج من هذا أن شيخ دبي كان يعترف بسيادة عمان على منطقته ، أو بوجود صداقة ودية بينهما .

وقعت هذه المعاهدات فيما بين السادس والحادي عشر من يناير سنة ١٨٢٠ م ، وفي الحادي والعشرين من الشهر نفسه عرض كير نص المعاهدة العامة على المشيخات الخمس ، تاركا الباب مفتوحاً لغيرها ، ونظراً لأهمية تلك المعاهدة في تاريخ الامارات العربية بالخليج ، ندرج فيما يلي نصوص موادها بعد حذف بعض ماورد فيها :

المادة ١ — تمتنع الاطراف المتعاقدة عن جميع أعمال السلب والقرصنة في البر والبحر بصفة دائمة .

المادة ٢ — كل عمل من أعمال السلب أو القرصنة يرتكب بصفة غير مشروعة يعتبر ضاراً بالانسانية مادامت لاتوجد حرب رسمية بين الحكومات .

المادة ٣ – تلتزم السفن التابعة للعرب الاصدقاء بحكم هذا النص برفع علم أحمر ، يدل على جنسيتها ، ولا يجوز لهـا استعمال شعار آخر .

المادة ٤ – تنظم القبائل المسالمة علاقاتها الداخلية فيما بينها .

المادة ٥ – يجب على السفن العربية من الآن فصاعداً أن تكون مزدوة بورقة موقعة من رئيس المنطقة التابعة لها ويسجل فيها إسم المالك وحجم السفينة وأسماء البحارة ويعين فيها ميناء الخروج وميناء الدخول وإذا قابلت احدى هـذه السفن ، سفينة بريطانية وطلبت اليها إظهار سجلاتها وجب عليها تلبية هذا الطلب .

المادة ٦ – إذا رغب رؤساء العرب في إرسال ممثل عنهم بهذه السجلات إلى المقيم العام البريطاني في الخليج لتوقيعها جاز لهم ذلك ، تسهيلاً لدخولهم الموانىء البريطانية ، ولعمليات التفتيش ، ويشترط عرض السجلات على المقيم سنوياً .

المادة ٧ – اذا لم تكف قبيلة من القبائل عن القرصنة وجب على القبائل الاخرى ان تجتمع للتفاوض في القيام بعمل مشترك ضدها ويمكن اشتراك الحكومة البريطانية في التسوية النهائية بعد توقيع العقوبة على القبيلة المذنبة .

المادة ٨ – يعتبر قتل الاسرى بعد تسليم أسلحتهم عملاً من أعمال القرصنة ، ولا يمكن اعتباره عملاً من أعمال الحروب المشروعة ، فاذا ارتكبت احدى القبائل هـذه الجريمة ، اعتبر ذلك

خرقاً لمعاهدة الصلح ، ويجب على القبائل الأخرى محاربتها بالاشتراك مع بريطانيا ، ولايوقف القتال إلا بعد تسليم المذنبين .

المادة ٩ — يعتبر خطف الرقيق من الساحل الشرقي لأفريقيا ونقلهم بعد ذلك فوق المراكب التجارية ، عملاً من أعمال القرصنة ، ويجب على العرب الكف عنه ،

المادة ١٠ — تستطيع السفن العربية التي تحمل العلم الخاص بها ، الدخول إلى الموانىء البريطانية ، وكذلك موانىء حلفاء بريطانيا ، والتجارة فيها بكل حرية ، واذا هوجمت احدى هذه السفن ، فان الحكومة البريطانية تأخذ ذلك بعين الاعتبار .

المادة — ١١ تعتبر جميع الشروط المذكورة عامة ، يجوز لمن شاء من الرؤساء الآخرين الانضمام اليها بنفس الطريقة التي انضم بها الموقعون .

لم تتقبل حكومة بومبي اجراءات كير الدبلوماسية بعين الرضى لأنها كانت ترغب في انتهاج وسيلة أعنف مع المنهزمين ومن أهم الاعتراضات التي وجهت إلى تصرفات القائد جرانت كير هو أنه أفرج عن المرضى الذين وقعوا في الأسر وأبقى بعضهم في رئاسة قبيلته كما أنها انتقدت نصوص المعاهدة ووصفتها بالنقص لأنها لم تحتو على تحديد العقوبات التي يمكن فرضها على المخالفين لمبادىء الملاحة الجديدة ، كحمل الوثائق أو غيرها ، وكذلك لم تحدد عدد السفن التي يجوز لكل قبيلة امتلاكها والحجم الذي لا يجوز

أن تزيد عليه هذه السفن وانتقدت تساهل كير في عدم هدم القلاع ، وادخال مادة تحرّم بناء الجديد منها ، كما أبدت بومبي رغبتها في اضافة مواد اخرى تحرّم استيراد أخشاب السفن من الهند ، وأخيراً اعتبرت الشروط الانسانية المتعلقة بتجارة الرقيق وعدم قتل الأسرى غير كافية ، ولا تتضمن وسائل عملية لتنفيذها وقد دافع كير عن معاهدته ببراعة فائقة واستطاع بعد وصوله إلى بومبي في مارس اقناع الحكومة بتوقيعها حتى لاتظهره على الأقــل بظهر غير الموثوق في كلمته أمام العرب ، ومما استخدمه من حجج لتفنيد اعتراضات بومبي نستطيع اختيار النقاط الآتية على سبيل المثال ، فقد ذكر كير :

أولاً – ان القبض على جميع الرؤساء المسؤولــين يتطلب تتبعهم في داخل بلاد العرب حيث فر بعضهم ، وقد نصت التعليمات الخاصة بالحملة على تجنب الابتعاد عن المنطقة الساحلية ، بينما كان العفو حافزاً لهم على العودة إلى بلادهم وعلى خلق جو جديد من الثقة .

ثانياً – ان بقاء وحدات بحرية بريطانية بصفة دائمة في الخليج خير ضمان لتنفيذ الشروط ، وأشد أثراً من النصوص التي تكتب على الورق لتحديد العقوبات القانونية ، فضلاً عن أن المقصود بالشروط الانسانية في المعاهدة ، هو مساعدة سكان هذه المنطقة على فهم المبادىء العامة للعلاقات الدولية ، ولا ينتظر منهم تغيير عاداتهم دفعة واحدة بل يكون التحسن تدريجياً .

ثالثاً – ان تحديد عدد السفن التي يجوز امتلاكها ، واحجامها لايفيد

بشيء لأنه من الأفضل ترك المقدار اللازم من السفن التي تحمي به كل قبيلة نفسها ، وليس أكبر السفن هو أصلحها للقرصنة .

رابعاً – من الأقرب إلى المنطق أن تقوم الهند بمنع تصدير الأخشاب للعرب لا ان تنص المعاهدة على أن يلتزم العرب أنفسهم بالامتناع عن استيرادها . وقد ثبت فيما بعد ان آراء كير ادعى لنجاح السياسة البريطانية ، وأصبحت هذه المعاهدة أصلاً لمنع القتال ، ودعامة للنفوذ البريطاني في منطقة جنوب الخليج ، وجعلت من أعداء بريطانيا السابقين حلفاء لها

قلت : وكان قصد بريطانيا من معاهدة كير اذلال عرب الخليج ودقهم دق العصف واظهارهم بمظهر الضعيف المسكين لأنها ترى أن القواسم عنصر فعال ويد عاملة لما تشاء لا تبالي بالنار وان حمى وطيسها ، ولكن القواسم يرون ماتنويه بريطانيا قبل أن تفعله ولكل شيء غاية ينتهي إليها ، ولا يزال العرب عرباً مامنعوا حريمهم ، وللقواسم ماليس لغيرهم من البسالة ، وارتكاب الامور الهامة ، فانا لانعرف لقبيلة في الخليج مانعرفه للقواسم ، ففي الخليج قبائل عديدة من جانبيه ولم نعرف جرأة لأي منها كما عرفت للقواسم ، وإليك ما تعرف منه صحة القول في القواسم فيما يقول المؤرخ البريطاني ج . لوريمر[1] : – وقد قدرت قوة القواسم البحرية في ذلك الوقت بحوالي ستين قاربا كبيراً تابعاً لرأس الخيمة ، يحمل كل منها عدداً يتراوح بين ثمانين وثلاثمائة رجل إلى جانب أربعين قاربا من أحجام أصغر موزعة على موانيء الشارقة والرمس ولافت ولنجة وشاراك ، وعند زيارة الاسطول

---

١ – في الصفحة ١٠٠٣ من كتاب دليل الخليج الجزء الثاني .

البريطاني لرأس الخيمة كان واضحاً ان القواسم يملكون حوالي عشرين سفينة موجودة بالفعل في البحر منها خمس سفن في الخليج العماني وخمس عشرة سفينة اخرى في أعلى الخليج ، ولم تكن حكومة الهند على الرغم من قرارها القيـــام بعمـل حاسم ضـد القواسم في وضـع يمكنهـا من القيام بخطوات ايجابية سريعة ، وفي الوقت الذي ظلت ترجىء فيه العمل المشار اليه ، كانت حوادث القرصنة في ازدياد ، وفي اكتوبر سنة ١٨١٧م ، قام القواسم بغارة على جزيرة الشيخ شعيب فنهبوا واحرقوا القرية الكائنة في طرفها الغربي وساقوا كل الماشية الموجودة فيها ، وذبحوا عدداً كبيراً من أهلها .. وبعدها بقليـل دخلت سفنهم مضيق عسالوا ، واستولت على خمس سفن وطنية ، كانت هناك ، يقدر ثمنها وما عليها من حمولة بأكثر من ثلاثمائة ألف روبية ، وأعدموا بحارتها جميعاً .

قال لوريمر : وبعد أن مكث اسطول القواسم يومين في عسالوا قام بهجمة على كانجون ، كما هاجم دايير أيضاً ، لكن أهل هذا الميناء الاخير صدوه وأجبروه على الخروج إلى عرض البحر ، وهذه الأعمال غير بعيدة عن بوشهر ، وقد أشاعت الذعر في المدينة وبـذل حاكمها جهوداً كبيرة لاقناع الناس بالبقاء فيها وعدم الفرار إلى الداخل (أي إلى الاقليم الايراني) .

قال : وفي نفس الوقت استولى القواسم خارج ديو على سفينتين وطنيتين محملتين بالقطن ، وبعد ذلك استولوا على السفينـة المسماة مصطفى ، وهي سفينة عربية كانت ترفع العلم البريطاني ، وذلك الشعار قضى عليها ، ولو كانت عربية ، فما دامت ترفع العلم البريطاني فهي بريطانيـة بغير شك ، وهم صقور مرسلة على العلم البريطاني للقضاء عليه حيثما وجدته ، وهو بعد

ذلك يفعل ما يقدر عليه ، فانظر في هذا الجرأة التي تجرأها القواسم في البحر ، هل ترى لقبيلة عربية في هذا البحر مثل هذه الاعمال ، إلا أنهم أكثروا الغزو والغارات ، ثم يعودون إلى رأس الخيمة وهي من السهل القضاء عليها ، اذ هي على سيف البحر ، وابريطانيا على البحر سطوة فعالة لأنها دولة منظمة عظيمة ، كثرتها تغطي على هزليانها وتسدل على جانبها ثوب الستر الذي تمشى وراءه للتخلص أو للتملص أو للتخصص وهي متحضرة في وقتها داهية في سياستها لاتنذل إلا ريثما تمكن الرمية إلا إذا هالها الأمر ، ولما كانت السفينة مصطفى ترفع العلم البريطاني ويسوقها ضابط بريطاني فهي بريطانية ، لذلك إنقض الصقور عليها من سماء الوغى فاستولوا عليها في مكان لا يبعد عن بومبي أكثر من سبعين ميلاً إلى الشمال ، وفي ديسمبر سنة ١٨١٨ م ، خرج اسطول للقواسم بتألف من أربع عشرة سفينة إلى جواتار (أي جوادر) فالتقى هناك بالسفينتين اللتين للشركة وكانتا قد زودتا بجميع لوازم السلاح العصري وهما تيتس وسابك والثالثة التحقت بهما وهي سفينة صاحب الجلالة كما يقولون فتصارعتا في الخليج المذكور وقام مرجف بسفن القواسم وادخل عليهم ما روعهم ، وبذلك رأوا الفرار ، فراح الاسطول القاسمي لوجهه من تلك الليلة ، وفي الحادي والعشرين من شهر ديسمبر ، أي نفس الشهر سرح اسطول القواسم في البحر هازئاً بما يلاقي ملتهما ما يجد واذ ذاك رأى طراد الشركة انتيلوب والسفينة المسلحة الشهيرة سفينة السلطان سعيد التي تدعى الرحماني فاشتبكتا مع سفينة صغيرة كما يقول لوريمر فاذا هما ثلاث سفن اشتبكت مع اسطول القواسم المؤلف من أربع سفن كبيرة وثلاث سفن صغيرة ، وظل القتال دائراً بين الجانبين لمدة يومين والمدفع

لا يزال يعج بطلقاته من الجانبين ، والبحر يعج بأمواجه المتلاطمة ، والاسطول القاسمي يشاء أن يقسم وما زالت الحرب قائمة ليلاً ونهاراً حتى استهلكت الذخائر ، أي المعدات الحربية ، أو كادت . وبادر الطراد انتيلوب بقيادة الملازم تارنر بمهاجمة اسطول الصقور — وقد فضلنا التعبير بهذا عندما يقول المؤرخ البريطاني القراصنة — محاولاً دفعه نحو ساحل جزيرة قشم ، وحاول القواسم محاولات مستميتة قهر مقاومة الطراد بالنزول عليه لأنهم إذا نزلوا على ظهره قهروه بغير شك لأنهم لا يرون فيه كثيراً أو قليلاً ، لكن لم تسعدهم الأقدار ، لأن نيران ذالك الطراد لازالت مشتعلة فصدهم عنه بعنف بعد أن نجحت بعض سفنهم في الاقتراب من الطراد لمسافة تقل عن مائة ياردة .

قال لوريمر : وحين أخذ اسطول القواسم إلى الفرار قام الطراد بمطاردة سفنهم أكثر من خمس ساعات لكنه لم يستطع اللحاق بها نظراً لاتجاه الريح ، وكان هذا عملاً فريداً ، اي كبيراً عندهم ممدوحاً من جانبهم ، حيث قاتل ذلك الطراد وطارد العدو ، لأن قوة القواسم كانت تسعة وعشرين مدفعاً وحوالي الف وسبعمائة رجل على حين كانت السفينة انتيلوب مسلحة باثنى عشر مدفعاً من عيار ١٨ ومدفعين آخرين من عيار ١٢ وكان عدد بحارتها جميعاً لا يتجاوز واحداً وسبعين رجلاً من البريطانيين وسبعة وثلاثين رجلاً هندياً ، وكان الخطب في هذه المعارك دامياً شديداً وبالأخص على القواسم الذين لا يبالون بالموت ، وقد قتل من القواسم مائة وسبعة عشر رجلاً ، أما من البريطانيين فلم يذكره المؤلف عملاً بعادتهم ، أو نسي ذكرهم ، إلا أنه يفتخر بهذه الحادثة ، حيث أن سفن البريطانيين

كانت قليلة بالنسبة إلى سفن القواسم ، والحقيقـــة ليس النصر بالكثرة. « ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم من الله شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين وان الله ينصر من ينصره » ، أي من ينصر دين الله فان الله تعهد له بالنصر على عدوه ، والحرب كذلك تحتاج إلى العدة والعدد ، وان الحرب سجال غالباً في كل عهد حتى في أيام النبيين ، فان الله أراد من الناس طاعتهم له فاذا خالفوه مرة تركهم وما هم عليه فلا يزال الصراع بين الأمم كما هو حتى الآن ، لكن الفرق ان الله إذا لم ينصر صاحب الحق مع كونه محقاً وغلب مع ذلك ، فان الله قد قبل منه فعله ووعده عليه الجزاء الأوفر عنده .

والحملة الثالثة التي حملتها بريطانيا على القواسم صقور البحر العربي للقضاء على الزعامة القاسمية في رأس الخيمة بما حملته من استعداد مفاجيء وترتيب مؤسس على نظام تدعمه قوة في المال وقوة في المعدات وقوة في الرجال ، وقوة في السلاح بجميع معانيه ، وقد ذكر القضية كتاب دليل الخليج مفصلة تفصيلاً دقيقاً مركزاً على مقدرتها بحيث أن بريطانيا الهنـــدية وبريطانيا اللندنية كلتاهما لهما حماس شديد على القواسم لاسيما في خط الساحل ، لأنهم أقوى من القواسم ، مهما كانوا ، لاسيما وقد جاؤوهم مباغتة وهم منتشرون في البحر هنا وهناك ، والبلاد كلها تخشى سيطرة الانجليز الساحلية ، وكلها لا وقاية لها من هجوم بريطانيا لان البلاد تتطرف على البحر ، والانجليز أقوياء في البحر بالمعدات التي لديهم بخلاف غيرهم ، وقد حملوا على القواسم حملة منتظمة تماماً ، وكان سلطان مسقط في نفس الحملة وجرح فيها كما جرح في جعلان إذ كان بطلاً قوياً منذ الصغر ، وقد وضعت بريطانيا التعليمات

لجيشها المكلف بغزو صقور البحر ، وقررت المصير لأنها واثقة بالنصر على القواسم ، ومصممة إذا لم تبلغ هذه الحملة مناها على أن تأتي بأخرى وأخرى حتى تبلغ غايتها ، وقد استعدت بريطانيا استعداداً مباشراً واحتياطياً أيضاً ، وقد وعد سلطان مسقط البريطانيين بالمعونة الكافية لاغراض في نفسه كان يأملها ، ونوايا في قلبه كان يكنها ، وإذا رأى الفرصة لا يضيعها ، وقد رأى الوهابيين يزحمون على عمان بطلق وبجهد والجنود المصرية تحاول اجتياح الساحل وقد وصلت القطيف ، مع اعتقاده بأن القواسم قد بدأوه بالشر اذ قتلوا أباه ، ورأى الصوت العالي في هذه الأطراف لبريطانيا ، ورأى الالتفاف حول ركبها وان كان يحس منها لفح وهج ، ولكن عاجل الضررين أحق بالعلاج من آجلهما ، وقد سعت بريطانيا مع إبراهيم باشا ومشت خلفه طويلاً لتطمئن من جانبه وتعمل عملها آمنة حركته ، وقد التقى الكابتن سادلير وابراهيم باشا وسلم اليه الخطابات التي حملته اياها حكومة الهند الانجليزية والهدية التي أرسلتها اليه معه ووقع بين سادلير وابراهيم باشا بن محمد علي ما وقع من الشك في المقاصد التي أورث بينهما التباعد ، وكانت الحملة البريطانية في أهبتها وتولى قيادتها السياسية والعسكرية الجنرال سير وليم ، وتقرر محو رأس الخيمة من الوجود الخليجي وان تذرى على مهب الريح ، فقسمت القوات البحرية أقساماً ونظمت القوات البرية كذلك ، ليكون المشاة على خط الساحل والسفن البحرية من الجانب الآخر ، والقواسم لم يكن عندهم مثل هذا النظام ، بل كل ماعندهم التقاحم على العدو المهاجم ، فاما لهم واماله ، والآن لا يتفق لهم ذلك إذ قد اشتبك البحر والبر معا ، وكانت المدافع المحمولة لضرب رأس الخيمة قريباً من مائتي مدفع ، فمن قائل مائة وسبعين مدفعاً ومن قائل مائة وثمانين مدفعاً ،

ومن قائل انها أكثر من ذلك لأن السفينة المسماة ليفربول المدعوة لصاحب الجلالة تحمل خمسين مدفعاً وحدها إضافة لباقي المعدات التي لم تكن عند القواسم . وفي يوم ٣ نوفمبر سنة ١٨١٩ م خرجت من بومبي ووصلت إلى رأس الخيمة وقامت بتنظيم عملياتها وفق التعليمات التي تحملها من غير أن تخاطب القواسم فيما هي بصدده ، وتعلم مقالهم وما عندهم في حركاتهم ، وهل ترى منهم انقياداً أو عناداً أو تعرف مايريدون ، كل هذا لم تنظر له ، انما نظرت إلى أنها سيدة البحار ولا كلام لاحد معها ، لأنها القوية وقد صفا لها الجو ، وخلا لها الأفق ، وساعدها القدر ، فدقت رأس الخيمة ، وكسرت مبانيها ، وهدمت قلاعها ، واحرقت نيران مدافعها الأشجار ، واحمت الاحجار ، وصالت وجالت وتتبعت أساطيل القواسم في البحر حرقاً وتحطيماً ، وأصبحت رأس الخيمة كأن لم تكن ، وقد قاتل رجالها وناضل أبطالها ودافع جنودها ، إلا أن الهيل زاد على الكيل فلم يقدر القواسم على دفع العدو المهاجم ، ولم تترك بريطانيا نقطة في الخليج تظن أن القواسم يلجأون إليها أو تختفي سفنهم فيها ، الا تتبعوها من البحرين إلى الحسا والقطيف والبحر الأحمر والساحل الايراني ، فدمروا للقواسم مائتين وخمسين سفينة بين صغيرة وكبيرة ، وقضوا على أرواح عديدة ، وأتلفوا أموالاً واسعة . وقد أشار لوريمر إلى هذه الحملة بتفصيل دقيق بلغ الغاية فيه بين الطرفين ، وذكر عدد القتلى والاسرى من الطرفين ، ومقتضى العمل فيهم إلى حد التدقيق ، وقد ذكر أيضاً بعض الخسائر الانجليزية والهندية من أموال وأرواح وسفن ، والحرب نار تلتهم ماتجد ، وتحرق ما تلاقي ، وحرب القوى تسبب الغلبة للضعيف .

* * *

١٦ - بريطانيا تبلغ أربها في القواسم

لما تم لبريطانيا ما أرادته من تدمير القواسم وكسر قوتهم وحرق أساطيلهم ، ورأت تمكنها منهم وانتهاء أمرهم بين يديها قامت تتبنى الباقين بالمعاهدات ووضع الوثائق .

قال لوريمر في الصفحة ١٠٢٢ من الجزء الثاني من كتاب دليل الخليج : بعد أن تتبعنا الأحداث العسكرية للحملة إلى هذا الحد نستطيع الآن الانتقال إلى المفاوضات السياسية التي بدأت بعد سقوط رأس الخيمة في أيدي القوات البريطانية . وأضاف : وأثناء الحصار عرض على الحامية أن تستسلم أكثر من مرة ، لكنها لم تنتهز أي فرصة من هذه الفرص ، وحين أصبحت رأس الخيمة في أيدي القوات البريطانية ، جاء الشيخ قاضب بن أحمد شيخ جزيرة الحمراء بضمان الأمان وسمح له بالبقاء فيها ، وتشجع حسان بن أحمد فسلم نفسه أيضاً بوعد الأمان ، وكان هذا الأمان يعني حريته الشخصية ، ولكن حين تبين ان احتجازه سيؤدي إلى شيء من الهياج أطلق سراحه وعادت الثقة من جديد ، وجاء إلى المدينة اعراب كثيرون يطلبون شراء التمور والأرز منها وبعدها بقليل ظهر سلطان بن صقر شيخ القواسم الموجود بالشارقة ليعلن قبوله بالسلام الكامل ، ثم تبعه محمد بن هزاع شيخ دبي الذي لم يكن قد تجاوز التاسعة من عمره ، وقد أرسلته

أرملة أبيه التي كانت تحكم المشيخة . وفي ١٥ يناير ١٨٢٠ م اطلق سراح حسين بن علي شيخ الرمس وانصاره لتسهيل مهمة المفاوضة من ناحية ، ثم لانتشار المرض بينهم وخشية أن يموت عدد منهم في الأسر .

قال لوريمر : وكخطوة أولى نحو عقد تسوية عامة طلب إلى كل شيخ من شيوخ ساحل عمان التوقيع على اتفاقية أولية ، بقصد ربطهم وأخذهم بالمعاهدات الرسمية . ولم يسمح لأي منهم بتولي مسؤولياته قبل توقيع هذه الاتفاقية ، وهكذا أصبح كل منهم موقعاً على معاهـدة السلم الشاملة التي تعتبر النتيجة النهائية لهذه الحملة .

وكانت الأهداف الرئيسية لهذا الاتفاق بشكل عام هي تسليم السفن والأبراج والمدافع في موانىء القراصنة ، على أساس وعد باستمرار عمليات الغوص وراء اللؤلؤ وصيد الأسماك واطلاق سراح الأسرى الهنود ، ولكن لم يكن بين هذه الاتفاقيات اتفاقيتان متطابقتان ، فهذه التي وقعت في مرحلة متأخرة من هذه الاجراءات عن طريق مبعوث لشيخ البحرين تشير بشكل أساسي إلى التعامل التجاري بين رعايا البحرين ورعايا ساحل القراصنة . كما اشترك شيخا عجمان وام القيوين أيضاً في توقيع المعاهدة واتفاقية مشابهـة للاتفاقية التي وقعها سلطان بن صقر وتواريخ توقيـع هذه الاتفاقيات تشير بشكل عام إلى تواريخ التقدم في المفاوضات وهي على التوالي : —

شيخ الشارقة في السادس من يناير ١٨٢٠ م ، والشيخ حسان بن رحمة في ٨ يناير ، وشيخ دبي في ٩ يناير ، وشيخ أبو ظبي في ١١ يـنـاير ، وشيوخ البحرين عن طريق مبعوث لهم في ٥ فبراير ، وقد تم توقيـــع

اتفاقية السلم الشاملة ، بعد أن التزم الشيوخ المذكورون وغيرهم أيضاً بالشروط التي جاءت في الاتفاقية الأولية التي تم توقيعها على النحو التالي : حسان بن رحمه شيخ رأس الخيمة سابقاً ، وقضيب بن أحمـــد شيخ جزيرة الحمراء وذلك برأس الخيمة في ٨ يناير سنة ١٨٢٠ م ، والشيخ شخبوط شيخ أبو ظبي في رأس الخيمة أيضاً بتاريخ ١١ يناير ، وحسين ابن علي شيخ ضاية برأس الخيمة في ١٥ يناير يوم اطلاق سراحه ، وزايد ابن سيف باسم ابن أخيه شيخ دبي في الشارقة بتاريخ ٢٨ يناير ، وسلطان ابن صقر شيخ الشارقة في نفس المكان بتاريخ ٤ فبراير ، والسيد عبد الجليل نيابة عن شيوخ البحرين في الشارقة بتاريخ [illegible] فبراير ، ووقعها الشيوخ أنفسهم ، سليمان بن أحمد ، وعبد الله بن أحمد في البحرين بتاريخ ٢٣ فبراير ، وأخيراً وقعها راشد بن حميد شيخ عجمان ، وعبد الله بن راشد شيخ ام القيوين ، بتاريخ ١٥ مارس ، ويبدو من توقيع كل منها على الاتفاقية بمفرده ان عجمان وام القيوين ، بتاريخ ١٥ مارس ، ويبدو من توقيع كل منها على الاتفاقية بمفرده ان عجمان وام القيوين قد اعتبرتا مشيختين مستقلتين ، وهي حالة قد ضمنتها الاتفاقية المبدئية التي سبق أن أشرنا اليها ، وقد ظل هذا الوضع مستمراً إلى اليوم ، لكننا نلاحظ في هذه المناسبة أن شيخ ضاية أو الرمس وجزيرة الحمراء ، ولم يكن بينهما مثل هذا الفصل في البداية ، قد أصبحا مستقلين تماماً كبقية الموقعين ، على اتفاقية سنة ١٨٢٠ م .

وفي المادة الأولى من الاتفاقية الشاملة ، تعهد الموقعون بأن يمتنعوا امتناعاً كلياً ، تاماً ونهائياً ، عن ممارسة أعمال النهب والقرصنة في البر والبحر .

والمادة الثانية تميز النهب والقرصنة من الحروب المشروعة والأفراد الذين يرتكبون عمليات القرصنة مهما كانت الدولة التي يقـــع الاعتداء عليها ، معرضون للاعدام ومصادرة الملكية والمال .

أما المادة الثالثة فتحدد علماً يستخدمه كل العرب ، الذين وقعوا على الاتفاقية ، وهو العلم الذي نجد وصفه في البحرية البريطانية على أنه أبيض يخترقه لون أحمر ، وكان مفهوماً أن اللون الأحمر في الوسط استمرار للعلم الأحمر الذي كان يرفعه القواسم ، والذي بقيت معظم القبائـل العربيـة المشتغلة بالبحر ترفعه على سفنها ، أمـا اللون الأبيض فكان رمز السلام ، وأقول ان العلم الابيض الذي هو علم الإباضية كان علم عمان على الاطلاق ، وقد مرت عليه السنون والاعوام حتى غيّره سعيد بن سلطان ، معلناً بأن الوضع تغير وان هذا العلم الاحمر يرمز إلى الدم وقد شاع في آل سعيد ابن سلطان ، وبقي العلم الأبيض في عمان للامامة وهي ترمز بـذلك إلى السلام ، وإلى الشريعة النقية الطاهرة ، كما جاء في الحديث النبوي الشهير ، ثم تبدلت الحكومات الساحلية حين تعددت بأعلام حسب العرف المصطلح عليه ، وتفرقت شيعا ، فكل قبيلة فيها أمير للمؤمنين ومنبر .

وقد استحسن هذا ، كل من الطرفين ، وكل له في استحسانه قصـد وغاية يرمي اليها ، والدهر من طبعه التقلب ، ولكـل شيء غاية ينتهي اليها ، والمغلوب يكون طوع الغالب طبعاً ، وكان القواسم يجاهدون من أجل الحق الاسلامي حتى تحقق عجزهم عن مصارعة بريطانيا ، الدولة الطويلة العريضة ، التي لم تزل تمد سيطرتها على أقاليم متعددة ، وقد قضت على

ملك عمان في الساحل الايراني وبحر العرب ثم أقبلت على ملك آل سعيد ابن سلطان في أفريقيا حتى سرت فيه سريان النار في الهشيم حتى أصبح آثراً بعد عين . وهي تضحك والعرب يبكون ، اذ عاشت وهي كل يوم ترميهم بغصة ، وتطعنهم حيث يؤلم ، وعلى هذا مشت في الأمم التي سيطرت عليها عهداً وهم يرزحون تحت أثقالها ويطئون تحت كواهلها ، وأقبلت على ملك عمان بهذا الحال ، حتى رأته ميت الجسم خائر القوى ، واهي الارادة لا أهمية له مسكيناً ضعيفاً تحت مراحمها ، فولت بوجهها عنه غير مكترثة بما أصابه ، والدهر ذو دول ، بالناس ينتقل ، وحق على الله ما رفع شيئاً إلا وضعه .

وأما المادة الرابعة فكانت تشير صراحة إلى ان الحكومة البريطانية ليست صاحبة أية مطامع ، قلت : نعم ! إلا أنها أطمع من أشعب ، فهي كما يقول لوريمر عنها ليست صاحبة طمع سياسي أو اقليمي في منطقة الخليج ، وانها لا تدخل في النزاعات والخلافات المحلية . نعم ، ليس لها في ذلك مصلحة اذا كان النزاع على شجر السمر والغاف أو على العومة أو القاشع ، فهي لا شغل لها في هذا ، بل تركت ذلك للأهالي ، الذين لا يدرون الغاية المطلوبة ، فيأخذون القشر بينما تأخـــذ هي اللب ، أما الخلافات العادية ، البدوية على البعير والناقة فلا تتدخل فيها .

أما المادة الخامسة ، فقد وجد سيرج كبير صعوبة في النص عليها ، لأنها كانت تحدد نوعين من الأوراق ، الأول سجل لكل سفينة يحدد مقاساتها وحمولتها ، ... ويوقع عليه الشيخ ، والثاني تسجيـــل دقيق للرحلة التي

خرجت السفينة للقيام بها ، وعلى أصحاب السفن تقديم هـذه الأوراق ، لدى طلبها من جانب السفن البريطانية أو غيرها ، وكان الهدف من هذه الاجراءات نشر النظام والسلم في مياه البحر .

ونصت المادة السادسة على أن يقيم وكيل عن العرب المتصالحين في المقيمية في البحرين أو الخليج وان يقوم مبعوث عن الحكومة البريطانية بمعاقبة مرتكبي هذه الجرائم ويكون ذلك المبعوث مقيماً بين العرب على أن يكون راتب هذين الممثلين على أصحاب المصالح التي يخدمونها .

أما المادة السابعة ، فكانت توضح أن عدم التزام شيخ أو أكثر من الشيوخ الموقعين على الاتفاقية بها لا يعفى بقية الشيوخ من هذا الالتزام ، وعلى الشيوخ الموقعين التعاون مع الحكومة البريطانية لمعاقبة مرتكبي النهب والقرصنة .

والمادة الثامنة كانت تحرم الطريقة التي يتبعها القواسم في اسراهم ، وتنص على محاربة كل من يلجأ إلى إعدام الاسرى .

وكانت المادة التاسعة التي ادخلت على الاتفاقية بطلب كابتن تومسون ، وقد أصبح فيما بعد داعية من دعاة منع الرق ، تنص على منع تجارة الرقيق بين العرب المتصالحين منعاً تاماً ، والشيء المدهش هو أن هذه المادة قد قبلت دون تذمر من جانب الشيوخ ، واعتبرت نصراً سياسياً أيضاً ، لأن العبيد هم الذين كانوا يقاومون النفوذ البريطاني ، أي أن هذا يقضي بكسر هـذه المقاومـــة بحصاتها ويرد على الشيوخ أياديهم وألسنتهم ورماحهـم ،

وفي هذا إضعاف كبير للقوم ، لكن الشيوخ لما رأوا أن بريطانيا تجلب عليهم بخيلها ورجالها وتزحف عليهم جيوشها الجرارة خضعوا مرغمين ، وقد تحقق البريطانيون أن عبيد القواسم هم شرارتهم وجرثومتهم المحرقة ، إذا أمر وهم لبوا أمرهم وإذا سلطوهم حملوا السلطة على كواهلهم في مصالح ساداتهم ، وهم يقاومون بريطانيا أكثر من غيرهم ، فرأى البريطانيون ان خضوع هذه الفئة يحقق لهم أعظم نصر من هدم رأس وحرقها ، وقد سُر البريطانيون بذلك سروراً كبيرا .

والمادة العاشرة كانت تنص على حرية الشيوخ المتصالحين في زيارة الموانىء الاوربية وتضمن لهم الحماية في تعبيرات غامضة وغير محددة من أي عدوان ، لان لها نوايا سيئة ضد العرب .

وتنص المادة الحادية عشرة والأخيرة على ضرورة اعادة توقيع الشيوخ على هذه الاتفاقية من حين لآخر ، لكن حكومة بومبي التي أشادت بقيادة سيرج جرانت كير للعمليات العسكرية وقدرت الدوافع الانسانية وراء سياسته ، كانت غير راضية عن تساهله أكثر من اللازم ، وطلبت إذا لم يكن الوقت قد فات ، ضرورة ايراد شروط اخرى أكثر قوة وأشد أخذاً ، لأنها ترى أن الشيوخ الذين أسهموا في هذا الجرم أكثر من غيرهم يجب عزلهم عن اماراتهم ووضع شيوخ محليين بدلهم ، أو تحويل أماراتهم لحكم سلطان مسقط ، وكانت الغاية من هذا مد حبل الشر بينهم وبين سلطان مسقط إذ هي ترغمهم على سلطان مسقط ، وتغرى بينهم غداً ، لتشق العصا في هذه الناحية وتكسر الحجر بالحديد ، كما تهوى .

قال لوريمر : وهؤلاء الذين وقعوا منهم في أيدي قوات الحملة ، يجب

أن يقضوا زمناً في السجن ، وقد أسفت الحكومة بشكل خاص لاطلاق سراح حسين بن علي ، وكانت ترى ضرورة احكام الرقابة على السفن الموجودة في موانىء القراصنة أيضاً ، أي صقور البحر ، الذين تخشى منهم بريطانيا بعد أن رأت منهم ما ساءها ، وتحديد أحجام السفن المشتغلة بالتجارة ، ومنح السلطات البريطانية حقوق الاستيلاء والمصادرة بهدف تنفيذ هذه التعليمات وتقييد تصدير أخشاب السفن من الهند . ومنع اقامة الاستحكامات ، أي مراصد البلاد وثغورها وبناية أبراجها وقلاعها حتى لاتكون لها روح ، ومنع اقامة التحصينات في المدينة ، وهو ما تقربه عين بريطانيا ، وفي نفس الوقت تمنح الحكومة البريطانية حق الدخول إلى هذه الاستحكامات ، وتدمير ما يقام منها خلافاً للأوامر ، ومن وجهة نظر حكومة بومبي كانت الاتفاقية في صورتها هذه لاتقدم أي ضمان ، لعدم تجدد أعمال القرصنة ، سوى ضمان وهمي ، يعتمد على تلك الاوراق التي تقدم تخصيصاً للسفن ، وكذلك فقيام أي واحد من هؤلاء بارتكاب عمل من أعمال القرصنة لن يعرضه لعقاب غير الذي كان يتعرض له بدون توقيع اتفاقيات ما . ورد سير جرانت كير على هذه الاعتراضات رداً رزيناً وهادئاً . قلت : وهو الرد الذي ذكره الشيبة السالمي في (نهضة الأعيان) وان اختلفت العبارات شيئاً يسيراً فان عند الدليل تنسيقاً للقضية كما هي واقعية تحقيقية ، وقد افتخر البريطانيون بكسر رأس الخيمة ورأوا أنهم قد بلغوا المراد في بحر العرب .

* * *

١٧ - بريطانيـا تفرض شروطها

على صقور البحر

من المعلوم أن المنتصر يفرض الفرائض على خصمـــه ويشترط عليه الشروط الثقيلة ، ولا ريب فان بريطانيا عدوة الدين والوطن والجنسية ، وهذه أعمالها في أعدائها إذا تغلبت عليهم ، وقـــد أوردنا أعمالها ليتخذها المحبون لها درساً تحقيقيـاً ، وليعرف العمانيون صنيع بريطانيـا في صقور البحر نوعاً مما كان منها في أفريقيا عندما مات برغش بن سعيد بن سلطان وجلس على عرش ملكها نجله خالد بن برغش ، اذ لم يشعر هو وقومه الا ومدافع بريطانيا تعج أصواتها في السماء حتى هدت بيت العجائب على رؤوسهم ودمرتهم تـــدميراً وطردت خالد بن برغش طرد غرائب الابل وحرمت عليه كل شيء يليق به الا ان يعيش يأكل الطعام ليلاً في الحمام ومزقت ملك عمـــان تمزيقاً ، وكل ذلك لمخالفتهـم أوامر الله عزّ وجل وركوبهم إلى أهل الباطل وخضوعهم لعدو الدين ، وقد لعبت دوراً جديداً في عهدنا هذا بأهل الساحل الشمالي فأين صقر بن سلطان وأين شخبوط الذي خبطته راغماً وأين ملك العمانيين بزنجبار ؟ وهكذا تلعب أخماساً في أسداس ، وتضرب الرأس بالمهراس ، وتدوس على الهامة بعد القامة ، فأين

البحرين ؟ وقولها يحطمه ويعدمه ولا ريب فان المنتصر على الحق بالباطل لاشك أنه في باطل .

وقد قررت بريطانيا انها اذا تمكنت من قهر القواسم ان تبلغ فيهم ارادتها ، فلما قر في ذهنها أنها منتصرة قامت تبرهن على نواياها فرأت أن تركز قاعدة عسكرية في بوشهر أو في البصرة لتكون بمرأى ومسمع من قضايا الخليج الذي تحارب من أجل أمنها فيه ، وكانت تعتقد أن جزيرة القشم اوسط الميدان الذي تمهده لها ، ولكنها رأت أن القشم وهانجام تابعتين لحكومة سلطان مسقط الذي يرتبط معها برباط متأصل واعتماد متغلغل ، وكل واحد يحاول في الآخر أشياء ، ومشت بريطانيا وسلطان مسقط يديران فيما بينهما سياسات متنوعة ، وآراء مختلفة في الصيانة الكافلة لما يحذران ، والكافية لما يرومان ، والحقيقة التي لامرية فيها أن غلط القواسم كان من جهة خصومة سلطان ، ومهارشة بريطانيا ، وهي دولة قاهرة ممتدة من أوروبا إلى الشرق في الهند ، وكان واجب السياسة غير ما وقع ، الا أن القواسم نشطهم الوهابيون لحرب بريطانيا ، وما دروا أنهم لا ينفعونهم إذا هاجمهم العدو ، ذلك لأن الوهابيين لا سيطرة لهم في البحر ولا عدة لهم ، والقواسم هم صقور البحر ، إلا أنهم بالنسبة إلى بريطانيا لايقدرون عليها إذا أقبلت عليهم بخيلها ورجالها وهاجمتهم بأساطيلها ، ثم صار هذا الذي نتحدث عنه الآن محققاً ، وفي بداية شهر ابريل من سنة ١٩٢٠ — وبعد أن قام بزيارة شخصية لجزيرة القشم — أدلى سير جرانت كير بآرائه ، فاستنكر نقل المقيمية الموجودة في بوشهر مباشرة لأن هذا العمل يعني الدمار الاقتصادي للمكان . واقترح اتاحة فرصة من الوقت عقب إقامة

القاعدة الجديدة حتى تتخذ التجارة طرقها المألوفة ، قبل احداث أي تغيير ، في التنظيم السياسي القائم ، وكان سير جرانت كير ، يرى أن وضع الحامية الموجودة في رأس الخيمة آمن تماماً ، لكن ثمة مشاكل موجودة بالنسبة لامدادات الماء النقي ، والحمى التي تنتشر بها ، لذا اقترح نقلها إلى القشم ، ولا يبعد أن يكون البريطانيون قد بثوا الغازات السامة في الواحة لاهلاك أعدائهم ، ولذا رأوا نقل حاميتهم إلى القشم ، واتفقت أنظار جرانت كير مع حكومته على اعتبار هذه الجزيرة أنسب الأماكن لاقامة قاعدة في الخليج ، وقد لقيت توصياته هذه القبول من الحكومة ، وصدرت أوامرها بتعيين الكابتن تومسون الذي كان قد أعد نفسه بنجاح لاكتساب ثقة الأهالي ، مسؤولاً سياسياً وعسكرياً عن رأس الخيمة على رأس البطارية الأولى من الفرقة الثانية للمشاة الهنود ، بالاضافة إلى عشرين مدفعاً ، وصدرت اليه التعليمات بنقل قواته إلى جزيرة القشم ، بعد استئذان سيد مسقط ، لأن القشم إذ ذاك كانت تابعة لمسقط كما أسلفنا ، والجلاء عن رأس الخيمة بشرط أن يدمر كل دفاعاتها واستحكاماتها قبل تنفيذ الجلاء ، وان يسلم المدينة بعد رحيله الى الشيخ سلطان بن صقر ، أو غيره من الشيوخ المحليين المناسبين ، وقد قدم السيد سعيد موافقته كتابياً على السماح باحتلال جزيرة القشم ، وبدأ كابتن تومسون المفاوضة مع سلطان بن صقر فوعده بملكية رأس الخيمة ، بشرط أن يوافق على التعديلات التي اقترحتها حكومة بومبي على الاتفاقية ، لكن الشيخ لم يوافق على هذا الشرط ، كما أصر أيضاً على ضرورة عدم تحطيم استحكامات رأس الخيمة قبل الجلاء عنها ، ولما ظل الشيخ على عناده ، ولم تكن لدى كابتن تومسون تعليمات جديدة فقد قام بتدمير كل المباني القائمة في رأس الخيمة ، وقد

دمرها بدرجة تزيد أو تنقص ، وجلا بقواته عنها في ١٨ يوليو وبعدها بيومين نزلت القوات إلى مدينة القشم .

فليعلم المسلمون عامة والعرب خاصة أفعال العدو المعادي طبعاً وديناً وسياسة ووطنا ، أنه إذا تسلط لم يبال الا ولاذمة في استقصاء الحق والمحق وقطع عروق الحياة من جميع الأعضاء في سبيل التشفي ، فان بريطانيا تكن للعرب في ضمائرها أسوأ السوء لتأكلهم لقمة سائغة أو تجعلهم نعلها التي تدوس عليها من الشوك لخضده ، وليأخذ العرب درساً عنها ، وليفكروا أن النوم في أحضان العدو أو الاعتماد عليه لا يركن اليه الا كل غر جاهل لا نظر له في العواقب . وقد دقت بريطانيا عرب الجانب الشمالي من عمان كلهم بتحطيم منحرة القواسم صقور البحر ، الذين يتهاوون على سفنها كما تتهاوى الصقور على أهدافها ، ولما رأت بريطانيا أن العصا القاسمية رفعت رأسها متبجحة في البحر العربي الذي فقد أهليه ولم ير في الحوزة من يعضده ، نادت في الاحياء بفعلها هذا ، ونشرته في المجلات والجرائد ، وأرسلت أسلاكها حاملة نبأ الفتح الظافر في بلاد العرب ، وقد حلت بريطانيا بمدينة القشم وضربت سرادقها فيها لتكون من رأس الخيمة عمرأى ومسمع ، حتى اذا رأت روح رأس الخيمة تتحرك رمتها عن كثب ، وقد أثار نزولها بالقشم مشاكل مع الحكومة الايرانية ، وهنا قررت بريطانيا أن مناخ القشم غير صحي إلى أقصى الحدود ، قلت : وكيف يكون صحياً ورأس الخيمة قريبة منها وقد بثت فيها بريطانيا مابثت ، قال : وقد وافقت بريطانيا على مشروع للسيطرة البحرية ، قبيل نهاية سنة ١٨٢١ م قدمه مستر مريتون مساعد قائد البحرية ، قلت : كيف لا توافق بريطانيا على ذلك وهي الساعية في هدم الكيان

العربي ، أو على الاخص الكيان القاسمي واذلاله ، وكان من رأى المساعد المذكور أن يجعل وجود قوة دائمة في الخليج لاضرورة له ، وكان هذا المشروع يقضي بتخصيص ست سفن مسلحة تتخذ ثلاث منها قاعدة لها في جزيرة قيس ، لتنطلق منها للطواف على الموانيء الغربية من الرمس إلى دبي بشكل دائم . وان يقام على جزيرة قيس التي تم اختيارها نظراً الرياح المناسبة حولها ، وقربها من ساحل القواصنة الصقور مخزن صغير للامدادات ، ومرسى للقوارب المسلحة بحراسة حامية صغيرة من الجنود الهنود ، وتستخدم اثنتان من السفن الثلاث الباقية لنقل الرسائل والمبعوثين ، وغير ذلك من المهام بين مسقط والبصرة ، وتخصص الثالثة والأخيرة المواصلات مع بومبي ، وبعدها بسنة وعقيب تنفيذ الجلاء عن القشم ، أدخلت تعديلات طفيفة على هذا المخطط ، فخصصت أربع سفن بدلاً من ثلاث ، للطواف بالموانيء ، لملاحظة حركات الصقور الضاربة خوف هجومها على الحصون البحرية البريطانية ، وأبقوا واحدة فقط للطواف والاتصال بين مسقط والبصرة ، وقد جعلت مسقط في نهاية سنة ١٨٢٢ م نقطة تجمع لسفن الشركة في هذه البحار ، لكنها أبدلت في سنة ١٨٢٣ م بميناء موجو بالساحل الايراني ، واتخذت الاجراءات اللازمة لاقامة مخزن في هذا الميناء ، ووكيل وطني عن المقيم البريطاني في الخليج ، وأخيراً في سبتمبر سنة ١٨٢٢ م صدرت للمقيم التعليمات بأن يتخذ الاجراءات الضرورية لنقل القاعدة إلى باسيدو ، بدل موجو .

* * *

١٨ - بريطانيا تسيطر على الخليج

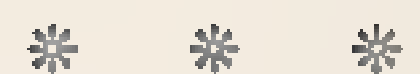
ضد القواسم

بعد ان انتقلت مقيمية بريطانيا ومرابطتها عن رأس الخيمة إلى القشم رأت نقلها أيضاً من القشم إلى باسيدو ، وغزلت بريطانيا غزلها الجديد في الخليج لتسحق وتمحق بعد أن صفا لها الجو ، وأمنت في الحال انقضاض الصقور عليها ، اذ احرقت الريش الذي تطير به تلك الصقور ، وكسرت الأجنحة وهدمت الأوكار ، وبدأت تتلون لها تلون الحرباء ، وتتململ تململ الحية ، ثم جاءت بالملازم ماكوبد الضابط فعينته نائباً للكابتن بروس بعد نقله وأمرته بزيارة السادة شيوخ الخليج الشمالي وجعلته واعي الذهن لحركاتهم وسكناتهم ونواياهم وكلفته مراقبة أحوال الموقعين على تلك المعاهدة المرغمين على التوقيع عليها ، لتأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وألزمته أيضاً أن ينتهز الفرصة ليشرح لهم أن الجلاء عن قاعدة القشم لا يعني أي تغيير في السياسة من جانب الحكومة البريطانية ، وان القوات البحرية ستظل موجودة في الخليج وستزور موانىء الخليج ، أو كما يقول هو ساحل القراصنة ، بشكل مستمر والقصد من هذا ،التهديد والارهاب ، وألزمته أيضاً أن يتخذ الاجراءات

اللازمة لتنفيذ أوراق السفن ، واستخدام العلم الذي نص عليه الاتفاق ، والغرض من ذلك الاهانة والضغط ، وكان هذان النصان في الاتفاقية قد أهمل تنفيذهما فيما مضى لكنها جعلت الدسيس عند الحاجة إلى المسيس .

قال : وفي حالة تجدد أعمال القرصنة ، فوض المقيم في اعطاء الأمر بتدمير السفن ، دون أن يسمح له بعمليات عسكرية برية ، وعلى الساحل الايراني كان على المقيم أن يراقب موانىء القراصنة أي صقور البحر مراقبة دقيقة ، وفي حالة ضرورة اتخاذ عمل ما ، فعليه أن يلجأ للحكومة الايرانية ، لأنها تعهدت بمسؤولية السيطرة على موانىء سواحلها ، سيطرة كاملة ، وكان على الملازم ماكلويد بالاضافة إلى اعداد نظام لجمع الأخبار ، وايرادها في تقاريره أولاً بأول ، أن يدرس بالتفصيل النظام السياسي في منطقة الخليج كلها ، ويمكن القول دون مبالغة بأن الفهم الحقيقي للمشاكل المحلية على الجانب العربي من الخليج ، قد بدأ ببداية تنفيذ هذه التعليمات ، وقد وقفت بريطانيا في رعاية أحوال القواسم موقفاً حاداً حتى أن سلطان بن صقر أقام برجاً واحداً على رأس الخيمة ، يرتفع ثلاثين قدماً عن مستوى البحر وذلك بعد أخذ الاذن من الملازم جنرال سميث قبل سنة ١٨٢١ ، فقال الكابتن فيثفول ان هذا العمل خرق للاتفاقية الموقعة ، واسرع إلى البرج بخمس سفن ودمره بالمدفعية تدميراً نهائياً ، وهو يعلم أنه لا يرد شيئاً من هجوم بريطانيا ولا يدفع عن رأس الخيمة أي شيء خصوصاً من الجانب البحري ، إلا أن إهانة القواسم والضغط عليهم وقطع عروق حياتهم أمر موضوع بين الأنف والعين في قاموس السياسة البريطانية ، يدل على ذلك قول لوريمر المؤرخ ، يمكننا أن نحكم على ماعمله الكابتن فيثفول

بالتسرع ، لأنه لم يتصل بالمقيم العام الذي يحتمل أن يكون على وعي بتعليمات الحكومة الجديدة بشأن التحصينات ، وعلى أي حال فلا بد من استشارة المقيم ، بالنسبة لأحكام منع القرصنة ، باستثناء حالات الضرورة الملحة ولم تكن هذه احداها ، وكان استتباب الأمر في مياه البحار بطبيعة الحال عملاً بالتدريج ، لكن القرصنة لم تعد مهنة أحد ، والحوادث القليلة التي وقعت ولم تتضح أسبابها في المنازعات بين الشيوخ العرب ورعاياهم لم تتأثر بها السفن الأجنبية كثيراً على أي حال .



١٩ - لوريمر يندد بأعمال القواسم

قال لوريمر في الصفحة ١٠٤١ من الجزء الثاني من كتاب تاريخ عمان :
ان ما كان يحدث أيام قرصنة القواسم ، أي أيام غزوهم لسفن بريطانيا في البحر في أحلك أوقاتهم ، والنجاح الذي أحرزوه على السفن التجارية الوطنية قد أغراهم لدرجة ان أسطولاً من أساطيلهم خرج مرة إلى عرض البحر لا يخفي هدفه في القضاء على الطرادات البريطانية ، وحين بلغ التحدي الجديد القائد آلوون قائد البحرية الهندية في الخليج أصدر أمره إلى الكابتن سويره بأن يخرج بسفينته « النفيستون » لمقابلة اسطول القواسم والاشتباك معه ، وكانت هذه السفينة أقوى من سابقتها التي كانت منذ خمسة عشر عاماً ، ويبدو أن هذه الحقيقة لم يتفهمها العرب جيداً ، وكانت مسلحة بثمانية عشر مدفعاً زنة كل منها ٣٢ رطلا ، لكن عدد بحارتها كان قليلاً نسبياً لا يتجاوز مائة وخمسين رجلا ، من بينهم ثمانون رجلا أوروبياً ، وفي يوم ١٦ ابريل ، التقت النفيستون باسطول القراصنة ، أي صقور البحر ، الذي يتكون فيما يبدو من ثلاث سفن كبيرة واثنتان متوسطتان ، وواحدة صغيرة ، وكانت أكبر سفن الاسطول تسحب قارباً صغيراً أغلب الظن أنه القارب المسمى « ناصر » الذي كان صقور البحر قد استولوا عليه في كانجون ، قبل عدة أيام فقط ، وبعد أن اتخذت النفيستون وضعاً مناسباً

بدأت باطلاق نيرانها ، ولما خشيت أن يهاجمها صقور البحر لأنها تعرف عادتهم ، وتعهد صولاتهم ، خشيت أن يقتحموا ظهرها ، واذا فعلوا فقد ملكوها لأنهم صقور تغرس مخالبها بكل ما تنقض عليه ، وبذلك تظهر الشجاعة ، عندما يلتقي الأبطال بالابطال ، ويرى الرجال سيوف الرجال ، ويقوم الوجه للوجه في حومة الوغى ، وبالجملة فقد قامت المعركة ، ودارت رحى الحرب بين الطرفين كما اشتعلت نيران مدافع الحصمين ، وكادت عملية الانزال ان تتم بنجاح من احدى السفن الكبيرة التي تحمل مايزيد على مائتي رجل ، لولا أن صدتهم نيران كثيفة من الاسلحة الصغيرة ، وحين أحس الصقور بأن ميزان هذا اليوم يميل إلى غير صالحهم ، بادروا بالهرب مخلفين وراءهم القارب « ناصر » الذي سبق ذكره ، بعد أن نقلت احدى السفن الكبيرة تسعين رجلا كانوا على ظهره ، وطاردت النفيستون هذه السفينة الكبيرة حتى هبط الظلام حين دارت حول جزيرة فارو ، ثم اختفت .

وفي نفس الوقت انطلق بقية الاسطول ساحباً وراءه القارب ناصر الذي يبدو أن سفن الصقور قد خلفته وراءها ، وأنقذ تسعين بحاراً كانوا قد لجأوا إلى جزيرة صغيرة للاختباء بها ، وتبين أن خمساً وثلاثين جثة قد ألقيت من القارب ناصر بمفرده إلى البحر ، وان حوالي خمسة وعشرين رجلا جريحاً قد حملوا على بقية سفن الاسطول ، وقياساً على ذلك لا بد أن تكون الخسارة في السفينة الكبيرة خسارة رهيبة ، قلت : لاشك أن الحرب مشتقة المعنى من ويلات الحرب ، وانها نار تأكل كل مالاقت ، هذا كلام البريطانيين حول الصقور الضارية ، وتنديد بريطانيا بالقواسم

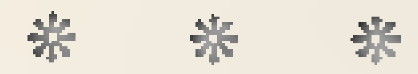
معروف ، وغلبتها عليهم لاتهضم من شرفهم ، وان نجحت بريطانيا بذلك لأن الفرق ظاهر ، فبريطانيا دولة عظيمة ممتدة من الغرب إلى الشرق ، كما قال بعض شعراء عمان فيها .

أرسلت اصلها وسط فرغانة   ومدت شنا خيبها في المغاورب

وعندي ان الفخر العظيم للقواسم حيث عاركوها عراكاً لامثيل له ، وهاجموها في البحر فاحتلوا أساطيلها ، وقتلوا رجالها ، وأذلوها ذلاً لاينكر، يتضح ذلك من الاطلاع على عدد السفن التي أخذها القواسم من أيدي البريطانيين وهي مسلحة بالسلاح الكامل الكافي ، ولم يقر روع بريطانيا حتى خرجت عليهم فدقت رأس الحيمة ، لأنها كانت راسية على شفير الجزر والمد ، وكانت بريطانيا تتغلغل في البحر فترسل طلقاتها من بعيد ولاوراد لها ، ولا ساتر منها ، لأن المدينة مكشوفة بارزة ، تستطيع المدافع أن تصيب أهدافها فيها بسهولة ويسر ، وليس للقواسم من العدة ما تستبدل به قوتها ، وبريطانيا متغلغة في الشرق قابضة على أزمة الاموال ، وقد سارعت في استبدال ماضاع ، بأسرع وقت ، أما القواسم فهم يعتمدون على البسالة العربية المطبوعة ، فتسلحوا من سلاح العدو ، وتقووا بقوته ، فاذا غلب عليهم استرد قوته ورفع خلته مما صار عليه ، والقوي إذا غلب الضعيف لا فخر له في ذلك من حيث القوة والكثرة ، ورغم أن سفن بريطانيا كانت لا تزال تمخر البحر فان القواسم كانوا يتهاوون عليها في في وسط البحر كالليوث الكاسرة ، ولم تكد تقف لهم يوماً حتى أكبرت أمرهم وأعظمته ، وأجلبت عليهم بخيلها ورجالها ، وتعاونت مع العمانيين ، وبذلك تمكنت من اخضاعهم وكان القوم في غير حصين من الأمكنة ،

بالاضافة إلى أن السلاح البحري يختلف عن السلاح البري طبعاً ، ومع ذلك فالقواسم يغامرون مغامرة يعجب بها المطلع عليها ، وليس للقواسم مثيل في هذا الميدان من قبائل الساحل على ما نعلم ، أما سلطنة عمان فهي دولة عريقة جاهلية واسلاماً لا يخفى أمرها ، انها لا تزال دائماً اما تحت راية امام يجمع الأمة العمانية كلها ، أو تحت راية سلطان ، أما القواسم فهم من القبائل العمانية الساحلية ، ولم نعلم أن قبيلة قامت بما قام به القواسم ، ولا تجرأت عليه أبداً ، فلذلك نحن نشيد بأعمال القواسم في الساحل العماني .

وكل يذكر بما فيه وكيف يلحق عين الشمس نكران



الفصل الرابع

١ ـ أعمال القواسم مع سلطان مسقط

٢ ـ جولة السيد سلطان الاخيرة في الخليج

٣ ـ زعامة سلطان بن صقر للقواسم

٤ ـ أعمال القواسم مع الوهابيين

٥ ـ عواصم القواسم في الساحل الشمالي

٦ ـ الشارقة العاصمة الثانية للقواسم

٧ ـ خورفكان العاصمة الثانية للقواسم

٨ ـ أعمال القواسم الداخلية عبر التاريخ

٩ ـ الوقائع الداخلية بين القواسم وبين جيرانهم

١٠ ـ تقلب الاحوال بالشيخ سلطان بن صقر

١١ ـ الشيخ سلطان بن صقر وافتراق بني ياس

١ ـ أعمال القواسم مع سلطان مسقط

لما تولى أحمد بن سعيد زعامة عمان خلفاً للدولة اليعربية بعد تقلص ظلها ، رأى أن عمان جزء لايتجزأ ، ولايمكن أن يفرق إلى دويلات ثنائية أوثلاثية وهكذا ، بل رأى أن تعم سيطرته عمان كلها ، وعند ذلك لم تساعده الأقدار ، ولم يجد مبرراً لما يدعي من حيث أن عمان قد استولى عليها دور الهنائي والغافري وافترقت من أجل ذلك ، وأصبح أهل عمان من قلب عمان يحملون ثقل هذين الزعيمين ، ولا حل ولا عقد ، ولا قتل ولا قتال إلا على ذلك .

قال لوريمر في الصفحة ٩٦٩ من الجزء المخصص لتاريخ عمان : كان القواسم متحاربين على وجه العموم مع الامام احمد بن سعيد في عمان ، الذي زعم دون أن يستطيع تأكيد هذا الزعم بالقوة ان له حق السيادة عليهم ، قلت : تراه يشير إلى ما قلته لك ، ولكن اخر أحمد بن سعيد عن بلوغ مراميه انشقاق أهل عمان بالهناوي والغافري واختلافهم فيما بينهم على هذا ، لاعلى أحمد بن سعيد فأعيت أحمد بن سعيد نارهم ، اذ كلما حاول اطفاءها اشتعلت عليه من جهات اخرى ، وهو حديث عهد في الأمر ، لم تتركز أقدامه بعد فيه على ماينبغي ، وبعد ذلك وحين وضح أن سياسة كريم خان في

الساحل الشرقي للخليج تهدد استقلال الساحل العربي كله تحالفوا ، مؤقتاً ، مع الامام أحمد بن سعيد ، وفي سنة ١٧٣٢ م زحف الاسطول العماني بهمة الامام أحمد بن سعيد البطل العماني على مدينة هرمز بمساعدة شيخ هرمز ، وكانت هرمز اذ ذاك أعظم مدينة على الخليج ، فدمرها ، ثم انسحبت سفن مسقط إلى رأس الخيمة ، وفي سنة ١٧٧٥ م تغير الوضع وتكدرت العلاقات بين سلطان مسقط وشيخ رأس الخيمة ، بسبب الدسائس التي كانت تحاك بين الطرفين ، فنشبت الحرب مرة اخرى بين شيخ القواسم والامام أحمد ، واعتمد الشيخ في هذه الحرب على مصادره وحدها ، أي رأى في نفسه القوة على الحرب ، ومن أين له هذه القوة ؟ وقد أصبحت رأس الخيمة كأنها المقبرة ، وسفن القواسم مدمرة كلها ، وهنا لم يتردد شيخ القواسم في الاستيلاء على سفن بوشهر رغم أنها تحمل شحنات خاصة لرعايا الامام ، وفي سنة ١٧٨٠ م كانت العلاقات بين الطرفين غير طيبة ، والنفوس غير مطمئنة ، والتوتر لايزال على أشده عبر تلك الأيام ، وقد سبق أن بيّنا ان الشيخ راشد قد تنازل عن زعامة القواسم في سنة ١٧٧٧ م على وجه التقريب ، وجعل ابنه صقر زعيما للقواسم يقوم عنه بزعامة القوم ، وكان الشيخ راشد المذكور من السياسة بمكان ، وقد ضربت عليه بريطانيا اسوار العزلة ، واذ ذاك تزوج من ابنة الشيخ عبد الله شيخ القشم ، وبذلك ادرك امرين ، أولاً : الخروج من الاسوار الضخمة المحيطة به ، وثانياً : استجلاب مودة هذا الشيخ ليكون ظهيراً وملجأ له يوماً ما ، وقد اتصل حبله ببني معين فزاد شدة ، وفي سنتي ١٧٧٩ و ١٧٨٠ م كان الخليج كله يغلي في حالة من الفوضى ، قلت : نعم ذلك من أجل السياسة

البريطانية ، وتقول بريطانيا ان ذلك يرجع لعدم قوة الضابطة في المنطقة ، وكانت الحرب بين شيخ القواسم وامام عمان تعني أحمد بن سعيد ، وقد استؤنفت بعد هدنة قصيرة ، حيث أصبح الخليج تهدده قوتان القاسمية والمسقطية وكلتاهما منه واليه .

قال لوريمر : وبدأ اسطول القواسم وعليه مجموعة من الرجال يعتمدون في حياتهم على السرقة والنهب (هذا من جملة ما علقته بريطانيا على القواسم في الصفات المسترذلة ونسيت نفسها) يمارس عمليات النهب والاعتداء في كل اتجاه دون تمييز ، وسرعان ما اصبحت أعماله أمثلة تحتذيها الموانىء الاخرى ، وفي أواخر سنة ١٧٧٨ م استولى القواسم على سفينة تابعة لشركة الهند الشرقية وهي في طريقها من بومبي إلى البصرة ، وباعوا بحارتها والمسافرين عليها كرقيق ، وفي سنة ١٧٨٣ م تقريباً حاول القواسم مهاجمة إمام عمان في الرستاق ، وإنها لورطة يقع فيها القواسم ، وفي تلك الاثناء قام الشيخ راشد بن رحمة ، وهو أحد شيوخ ساحل الصقور الابطال بهجوم خطير على الرستاق عاصمة إمام عمان ، في ذلك الوقت ، لكننا لم نستطع أن نعرف شيئاً عن الحرض الحقيقي .

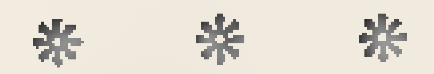
قال لوريمر : لم نعرف الغاية من هذا الهجوم وأهدافـه الحقيقية ، قلت : هو كسر الحديد بالحديد ، وما يقـع على الطرفين كلـه صالح ، والتاريخ العماني لم يذكر هذا الهجوم الذي أشار اليه لوريمر ولا غيره من كتاب الافرنج ولعله لم ينفعل بل وجد له في التاريخ أمثلة أخرى، حيث أن داعية الشر بعمان هو الضغن الهناني والغـافري ، الذي يجيء الشر تحت ابطـه

لأخيه ، ولم تصب عمان بشر له اثر خالد كهذا الشر المشار اليه ، فكان الصنفان لدى السلطان يتنافسان منافسة لها أثرها ، فاذا لاحظ السلطان جانباً من هذين الجانبين نفخ الشيطان في الجانب الآخر لينفره ، وهكذا لايزال رأي السلطان متعقداً ، وفي سنة ١٧٩٨ م عقد السلطان في عمان صلحاً مع القواسم بهدف تعزيز قواه في مواجهة السلطات التركية في البصرة ، ولكن بمجرد استقرار الخلاف التركي العماني ، عادت حالة الحرب كما كانت بين القوى العربية ، وقام السيد سلطان بهجوم بحري فاشـــل على ميناء القواسم في دبي ، قلت : هذا بعدما توفي الامام أحمد بن سعيد ، وبعد وفاة ولده سعيد بن أحمد الذي نال اسم الامام بعد أبيه ، وولده أحمد بن سعيد ، تولى السيد سلطان بن أحمد وكان أول من تسمى بالسيد ، لأن القاب امراء عمان الدينيين الامام ، فاذا كان لم ينل ذلك اللقب كان لقبه شيخاً أو أميراً ، أو سلطاناً وهو منتهى الألقاب العالية ، وكان القواسم اذ ذاك يسيطرون على ميناء دبي ، ففشل السيد سلطان في هجومه هذا ، ولكنه كان مجدداً للفتنة التي بذرتها بريطانيا وموقداً لنيرانها ، وفي سنة ١٧٩٩ م جرت محاولة للهجوم على صحار ، أي ان القواسم أرادوا أن يردوا على السيد سلطان هجومه على دبي وبريطانيا تضحك فوق متن الماء ، وقد قامت بهذا الهجوم قبائل النعيم وبنو قتب ، بمساعـــدة بني ياس من أهل دبي .

وفي سنة ١٨١٠ م كان السلطـــان سعيد بن سلطان البطل المعروف في السلطنة العمانية الذي تجددت آماله الحرة وانتعشت باستعادة السفينة لافت يتلهف لقيام الحملة بتنفيذ مخطط حكومة بومبي ، لأن ذلك يضعف القواسم

ويجليهم عن موانئهم في شناص وخور فكان اللتين كانوا يسيطرون عليها ، على حدوده الغربيـــة ، كما تقول بريطانيا مقسمة الخليج ، وتقرر أن تلبي الحملة هذه الرغبات ، والعمليات الناجحة التي قامت بها في شناص ، ونتائجها المؤسية بالنسبة إلى السلطان مذكورة بالتفصيل في تاريخ سلطنة عمان ، وبعد أن غادرت الحملة شناص رجعت إلى الخليج ، وقد عرفت سابقاً ان الامام أحمد بن سعيد يرى أن عمان جسم لا يقبل التجزئة ، وقد تناطح أحمد بن سعيد وامراء أهل عمان في الساحل كما في الداخل ، فنجح في الأقل وفشل في الأكثر ، لأن الداء الذي أشرنا اليه كفيل بعدم النجاح ، وقد تعارك الامام المذكور وامراء الساحل في وادي حام وتحالف عليه ملا علي شاه حاكم هرمز وشيخ رأس الخيمة وكان للامام اسطول مرابط للخليج في دبي ، ثم تراجع الامام وشيخ رأس الخيمة ، وتحالفا ضد الايرانيين ، لكن عهد هذا التحالف لم يطل فعاد العداء مرة ثانية ، وفي سنة ١٨٩٨ م كان السيد سلطان يرى ان له حقوقاً مالية على حكومة بغداد اذ ذاك في مقابل الخدمات التي قدمها أبوه أحمد بن سعيد في أثناء حصار البصرة ، فعقد صلحاً مع عدوه الدائم كما تقول بريطانيا ، وهو الشيخ سلطـان بن صقر شيخ رأس الخيمة ، كي يستطيع الحصول على حقوقـــه من الباشا في بغداد بالقوة ، وقد ازعج هذا الاتراك لدرجة جعلتهم يطلبون عون المقيم البريطاني في البصرة ، وبعد استقرار هذا النزاع عاد سلطان الذي لم يهدأ باله ، إلى تجديد العداء ضد القواسم مرة اخرى ، وقـد كان على حرب خدهم طوال السنوات الماضية حتى سنة ١٧٩٧ م ، وقام بهجوم بحري على

دبي وصده أهالي الشارقة والنقب بعد أن تكبدوا فيه خسائر طائلة ، وفي بداية سنة ١٨٠٠ م كان سلطان لا يزال في حروب ضد شيخ رأس الخيمة ، وكان القصد ألا تنفصل رأس الخيمة عن السلطنة العمانية كما كانت في عهد الدولة اليعربية ، ولم يرض القواسم بذلك لأنهم رأوا أن الأمة العمانية تمشي وراء الهناوي والغافري ، وهو الداء الدفين الذي يقضي على الأمة ويجب نبذه ومحاربته .



٢ ـ جولة السيد سلطان الاخيرة في الخليج

في سنة ١٨٠٤ م رأى الوهابيون مشاغلة سلطان بن سعيد في عمان ليتأخر عن محاولاته في الخليج ، وبذلك أيضاً يتأخر عن البحرين ، فلما رأى السيد سلطان أن حركات الوهابيين تتقدم إلى الاطراف العمانية ساحلياً وداخلياً بقيادة بعض أهالي عمان الذين يحاولون امتــلاك عمان ، طلب من البريطانيــين العون ، ومن الاتراك أيضــاً ، لكنه لم يلق من الأولين أي البريطانيين شيئاً سوى تثبيط الهمة ، وكأنهم أرادوا دقه ، وربما مالأوا عليه ، وأما الأتراك فتلقى منهم وعوداً دون عون حقيقي يذكر ، واضطر السيد سلطان لأن يعتمد على مصادره فقط ، أي على مافي يده من الامكانات والاحتياطات ، فقام في سبتمبر سنة ١٨٠٤ م على رأس أربع عشرة سفينة باجتياح الخليج بحثاً عن الصقور ، ثم واصل سيره إلى البصرة حيث التقى فيها لقاء سيئاً بممثل سلطة الاتراك ، ولعل أهم الموضوعات التي نوقشت في هذا الاقاء هي الاعانة المطلوبة ، بسبب الخدمات التي قدمتها حكومة عمان أثناء حصار البصرة ، والاستعدادات للقاء الوهابيين ، هذا أهم ماسار فيه السيد سلطان ، ولعله رجع بامال حالت دونها الآجال ، لأنه استبدل بالسفينة جنجافا التي كان يستقلها سفينة صغيرة تسمى (بردى) لرغبته في ان يمر بباسيدو ، أو يتخذ طريقه عبر كلارنس إلى بندر عباس ،

وكانت بندر عباس ولنجة وأعمالها له ، وحين تجاوزت السفينة (بردى) نطاق عون الاسطول العماني ، الذي كان يصحبها ، وهي رافعة العلم البريطاني هاجمتها ثلاث سفن يملكها القواسم في رأس الخيمة ، وبعد صلاة الفجر ، تبادلوا اطلاق النار فأصابت رصاصة طائشة رأس سلطان قضاءً وقدراً ، فخر صريعاً ، ودخل به عبيده ميناء لنجة ودفن على الشاطيء منها ، وكان وقوع هذه الحادثة في منتصف شهر نوفمبر من سنة ١٨٠٤ .

كانت جولة سلطان بن أحمد سلطان عمان سبباً لفتح شر عظيم ، ذلك ان قتل سلطان قد أثار العداء والحقد والتباعد ، وليس كالدماء شيء يثير الضغائن في الامم ، فكان ذلك أعظم مثير للشقاق بين السلطان والقواسم ، ولذلك حرض سعيد بن سلطان الانجليز على ضرب رأس الخيمة ، وتعاون معهم حتى كان ما كان .

وفي مايو سنة ١٨٠٨ م زحف سعيد بن سلطان على خور فكان يؤيده في حملته هذه عمه قيس والشيخ محمد بن مطر شيخ خويرة ، وكان سلطان بن صقر قد بنى قلعة صغيرة جعلها كما يقول الانجليز قاعدة لعمليات القرصنة التي كانت قبيلته تقوم بممارستها ، فزحفت جيوش سعيد بن سلطان على القلعة المشار اليها فاحتلتها قهراً وقبضت على الجنود المقيمين فيها وضربت أعناقهم ، وعند ذلك ظهر سلطان بن صقر بجنوده فجأة ، فخرج جيش بن سلطان إلى سفنه بغاية السرعة ، وكانت رحى الحرب تدور بين الطرفين ، وخسر السلطان من جنوده الكثيرين ، وكان بين القتلى عمه قيس بن الامام وكانت الموقعة رهيبة جداً حيث وصفت خور فكان ببحيرة من الدم ، وكان الوهابيون يؤيدون القواسم ، وفي سنة ١٨٠٩ م بلغ سعيد بن سلطان ، ان أمير

الوهابيين المتعاون مع القواسم قد ذهب لاداء فريضة الحج فاغتنم الفرصة وخرج لقتال القواسم بقواته ، ووعده شيخ بوشهر بمساعدته ضد القواسم ، وكذلك العتوب أيضاً ، وقسم من المعادين للقواسم ، وسار بجملته دون أن ينفذ حلفاؤه ماوعدوه به ، وكانت غايته الهجوم على القواسم وأعوانهم من الوهابيين ، ولكنه عندما رأى بوادر الفشل اضطر للعودة إلى مسقط دون أن يحقق شيئاً مما خرج له .

ويبدو ان صداقة نشأت بين السيد تركي والشيخ سلطان بن صقر القاسمي ، وقد حرض سلطان بن صقر القاسمي السيد تركي على مخاصمة أخيه ثويني بن سعيد الحاكم العام ، فهم تركي بالقيام بهجوم على مراكز الباطنة وجمع جمعاً وافراً ، لكن المقيم البريطاني اعترض الحركة وهدد تركي وسلطان حتى أقعدهما عن القيام بالعملية المتفق عليها ، وفي سنة ١٨٦١ م ارسل السيد ثويني مبعوثين من قبله ليعقدوا نيابة عنه تحالفاً مع شيوخ أبو ظبي ، وأم القيوين ، ضد شيوخ القواسم في الشارقة ، لكن الشيوخ المعنيين رفضوا هذا المشروع ولم تكن بالتالي ثمة حاجة لتدخل السلطات البريطانية في الأمر .

* * *

٣ ـ زعامة سلطان بن صقر للقواسم

سبق أن أشرنا إلى أن الشيخ راشد بن مطر شيخ رأس الخيمة وزعيم القواسم قد تنازل عن زعامة القبيلة لابنه صقر والد الشيخ سلطان الذي لعب دوره مع حكام مسقط ، وكان داهية ، كريماً ، وشجاعاً ، وكانت الصفات المطلوبة في الأمير مجتمعة فيـه ، وأصبـح أميراً مطاعاً مرهوباً ومحبوباً ، لأن لكل صفة ثمرة في الأمة التي يتزعمها الزعيم أياً كان ، واليك وصف أخلاقه نقلاً عن الافرنج الذين رأوه بأعينهم ، وسمعوا آراءه بآذانهم ، وصحبوه في أيامـه ومازالوا يترددون عليـه ويراجعون أفكاره في المهمات المحلية ، لأنه صار في القواسم بمنزلة سلطان في الطرف الشمالي العماني .

قال لوريمر : في سنة ١٨٠٣ م على وجه التقريب ، خلف الشيخ صقر ابنه سلطان الذي قدر له ان يحكم القواسم أكثر من جيلين كاملين وان يشهد في حياته عملية التغيير والانتقال من الهمجية إلى التحضر في الخليج ، ونحن لانعرف شيئاً عن الاحداث الداخلية التي وقعت في امارته بقـدر ما نعرف عن احداثها الخارجية ، بل ولسنا نعرف على وجه اليقين ، بعد أن ضمت اليه رأس الخيمة ، في سنة ١٨٢٠ م ما اذا كان يقيم فيها أو بالشارقة ، فحتى موتـه كان يطلق عليـه شيخ الشارقة ، وأحياناً شيخ رأس الخيمة ، دون تمييز بين المدينتين .

ويبدو أن الحكم المباشر في المدينتين كان يتولاه شباب من أقاربه تحت اشرافه ، دون أن يقوم به مباشرة وشخصياً ، وباجماع الذين عرفوه كان أهم مايمتاز به قدرته الفائقة على الاقناع والخداع ، وقد أدى به هذا المسلك لأن يفقد ثقة الجميع في نهاية حياته ، إلا أن خداعه هذا لم تنتج عنه على وجه العموم مساوىء كثيرة ، لأنه كان عربياً تماماً ، وزعيماً عمانياً في شمال عمان يعرف من أين تؤكل الكتف ، ولم يكن غافلاً عن سياسة البريطانيين الدهاة ، ولا الامراء العتاة وكان من دهائه الفائق ، ان جعل أخويه محمد وصالح على يمينه وميسرته ، فكان محمد بن صقر يحكم رأس الخيمة منذ سنة ١٨٢٣ م وحتى موته حوالي سنة ١٨٤٥م ، وكان الشيخ صالح يحكم مدينة الشارقة منذ سنة ١٨٣٨ م ، وكان صالح ابن أمة ، الا أنه من أذكى الناس وأدرام بعواقب الأمور ، وهو الوحيد بين شيوخ الساحل المتصالح خبرة ونظراً بموارد الأمور ومصادرها .

وأضاف لوريمر قوله : وقد اسفت السلطات السياسية البريطانية كثيراً لعزله عن حكم مدينة الشارقة ، وتولية الشيخ صقر ابن أخيه سلطان ، وكانت ام الشيخ صقر بن سلطان المذكور قاسمية ، فكان صقر هذا وهو صقر الثاني يحاول الاستقلال بولاية الشارقة عن أبيه ، وفي سنة ١٨٤٠م قام شيخ دبي مكتوم بن حشر بتحريض صقر على اعلان الاستقلال عن أبيه بهدف شق العصا بينهما ، فكان الولد غريراً لم يجرب الأمور ، كما التف حوله بعض ذوي المطامع الذين وعدهم بتخفيض الضريبة المفروضة على غواصي اللؤلؤ ، التي كان أبوه قد رفعها إلى سبع عن الرجل الواحد في السنة ، وهمّ الناس بحمل السلاح لكن الشيخ سلطان وافق أخيراً ، وبعد تودد

طويل على أن يأخذ من ابنه الجزية ، وأن لا يتدخل في شؤون الميناء الداخلية ، وفي ديسمبر سنة ١٨٤٠م كان للشيخ صالح الحاكم السابق للشارقة بعض الانصار الذين اسخطهم ازدياد نفوذ شيخ دبي وسيطرته على شيخهم الجديد ، فجمعوا أنفسهم ليضعوا حداً لهذا المتمرد ، والقوا القبض على صقر ، وهو نائم ثم حملوه إلى أبيه ، وحاول الشيخ سلطان تدبير الأمر بابعاد ابنه إلى رأس الخيمة ، لكن صقراً استطاع وهو في الطريق إلى المنفى ان يتخلص من اغلاله ويلجأ إلى شيخ دبي بعد أن هرب من أيدي حامليه إلى رأس الخيمة على حين غفلة منهم ونزل عند شيخ دبي ، وبعد أن سوى الشيخ سلطان الأمر مع ولده صقر ومع شيخ دبي أعاد ابنه على حكم الشارقة ، وظل الشيخ صقر على حكم الشارقة حتى موته في احدى المعارك مع ام القيوين سنة ١٨٤٦م ، وكان ذلك بسبب من دهاء ابيه سلطان المشهود له بالدهاء النادر ، وبعد ذلك تولى أخوه عبد الله بن سلطان حكم الشارقة ، وحاول كأخيه المقتول مهاجمة عجمان للاستيلاء على قلعتها على حين غرة من أهلها .

هذا وقد تميزت فترة حكم عبد الله بن سلطان بمحاولة السيطرة على قلعة عجمان في سنة ١٨٤٨ م إلا أنه استمر في مكانه حتى لقي مصرعه في أثناء الاشتباك الذي جرى في الحمرية .

* * *

٤ ـ أعمال القواسم مع الوهابيين

كان القواسم رجال مغامرة ، وأبطـال نضـال ، ومساعير حرب ، اتفقوا مع الوهابيين عندما رأوهم يتقدمون إلى عمان ، أيام مطلق بن محمد الذي خرج إلى عمان لمناصرة محمـد بن ناصر الجبري الوهـابي واتفقوا وإياهم على أن يكونوا لهم ظهراً عندما تثور عليهم ثائرة عمانية ، أو تقوم عليهم قائمة بريطانية ، وقد غفل القواسم عن أنهم على سيف البحر ، وأن الوهابيين في بطن الجزيرة ، فاذا هاجت بريطانيا ادركت القواسم واجلبت عليهم بخيلها ورجالها ، ولا يستطيع الوهابيون دفع حركة البريطانيين ، ورأى القواسم أن الوهابيين قريبون منهـم اذ هم يتمركزون في البريمي لمناصرة الغافرية ومن معهم ، والتفت معهم عصابات عمانية تروم شق العصا في عمان ضد السلطان سعيد بن سلطان ، وبذلك نشط القواسم ، فتوثقت الرابطة بين القواسم والوهابيين في أوائل القرن السابع عشر .

قال المؤرخ البريطاني لوريمر : أدى قيام قاعدة الوهابيين في البريمي إلى تزايد في عمليات القرصنة في البحر العربي ، ونهب السفن المارة فيه ، غير أن الدراسة المتأنية للحقائق بعد انقضاء أكثر من مائة عام على وقوعها ، لاتؤيد الرأي لذي كان سائداً وقتها ، والذي يقول أن الأحداث التي وقعت لم يكن القواسم فيها سوى أدوات تقوم بالعمل رغماً عنها ، أي أنهم يقولون

أن القواسم صنيعة في يد الوهابيين ، وليس الأمر كذلك ، بل الحقيقة هي ماذكرناه من أن القواسم هم الصقور التي تغرس مخالبهـا في البحر العربي ، وما الوهابيون الا ظهر للقواسم وأنصار لهم ، خصوصاً في هذه الآونة ، وقد طلب القواسم من الوهابيين المناصرة والمساعدة عندما اشتدت عليهم حركة سلطان مسقط .

قال المؤرخ لوريمر : اننا قد ذكرنا في تاريخ سلطنة عمان تلك الحركة البارعة التي قام بها شيخ القواسم سلطان بن صقر واستعاد بها خور فكان من السيدين سعيد وقيس ، ويبدو أن استعادة سلطان بن صقر لخور فكان كان عملاً من أحسن أعماله العامة . قلت : هذا يدل على أن بريطانيا ارادت أن تدق الصخر بالصخر لترى أيه الذي ينكسر لتقيم منه صرحها الممرد ، وتبني عليه قصرها المشيد ، فتراها قد استحسنت صنيع سلطان ابن صقر حين ذهب ضحية القتال في خور فكان مئات من رجال عمان ، وتغلغل العداء في قلوب الامة ، وفي خلال شهور قليلة بعد تلك الأحداث صدرت أوامر أمير الوهابيين بعزل سلطان بن صقر عن مشيخة القواسم ، فأقام لنفسه في البداية سلطة مستقلة في ميناء رأس الخيمة ، لكن الوهابيين عينوا في العام التالي سنة ١٨٠٩ م حسين بن علي شيخ الرمس حاكماً وجابياً للضرائب باسمهم في كل المنطقة المعروفة اليوم باسم عمان المتصالحة ، ومنها رأس الخيمة ، كما جعلوا بعض المسؤولين الآخرين على أقاليم داخلية صغيرة في البلاد ، واستولى الوهابيون على حصون الفجيرة ، والبطنة ، وخور فكان في اقليم الشمالية ، وقد أثر ذلك على القواسم وكسر قوائم سلطان وفتّ في عضده ، ورأى أنه تحت ضغط مؤلم ما كان يظن وقوعه عليه .

ولما هاجم القواسم أساطيل البريطانيين انتشرت شائعة مفادها أن هذا العمل من صنع الوهابيين ، ثم تبين أن هذه الشائعة لاأساس لها من الصحة ، إلا أن شيخ القواسم الجديد حمل إلى الوهابيين خُمس الغنائم كما يقولون .

وإليك ماورد في الصفحة ٩٨٤ من كتاب دليل الخليج : صحيح أن حسين بن علي حاكم الرمس قد زار عاصمة الوهابيين قبل أن يصبح ممثلهم في بلاد القواسم ، وأنه قد تم الاتفاق على حمل خُمس غنائم القرصنة إلى أمير الوهابيين حسب العرف الوهابي في هذه الحالة ، فان كابتن شيتون ينسب عمليات القرصنة على الساحل الهندي إلى تحريض أمير الوهابيين ، وسواء صح هذا أو لم يصح فما لايمكن انكاره ، ان هذه الاضطرابات ، قد توافقت إلى أبعد الحدود مع عزل شيخ القواسم التقليدي ، وإبداله بمسؤول وهابي ، ومما كاد به الوهابيون رئاسة القواسم ان استدعي شيخ القواسم المعزول وهو الشيخ سلطان بن صقر إلى عاصمة الوهابيين في الدرعية واحتجز فيها اهانة له وتأييداً لزعامة حسين بن علي ، ولما ضاق الخناق على سلطان بن صقر في الدرعية التمس الحيلة التي تخرجه من اسر القوم وحاول محاولات كان نجاحها على طريق اليمن وميناء مخا ، ومنها نزل في مسقط عند السلطان سعيد بن سلطان ، واستقبله السلطان فيها استقبالاً كريماً وطيباً ، وذكر لوريمر أنه في نفس الوقت طلب أمير الوهابيين من القواسم الاشتراك مع العتوب في حملة بحرية على الكويت والبصرة ، وانه في سنة ١٨٢٤ م لم يضيع سلطان بن صقر وعميله راشد بن حميد في عجمان أي وقت في ربط مصالحها بهذا الأمر ، قلت : كيف يضيع وقتاً لربط المصالح وقد كان عليه ما كان وأصابه من الهوان ما أصابه ، وتمت المفاوضات علناً بين الشيخ

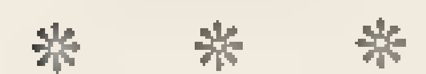
سلطان وشيخ الشارقة الذي زعم أن هذا الاجراء ضروري لأمنه وسلامته ، وفي نوفمبر سنة ١٨٢٥ م في لقاء للشيخ سلطان بن صقر مع المقيم البريطاني ، بعد ان استعاد حكمه وسلطانه ، اعترف سلطان بن صقر بخوفه من تزايد قوة الوهابيين ، وبقي سلطان في خوف متزايد من هجوم الوهابيين على بلاده واخراجه منها واجباره على حرب سلطان مسقط ، ومن نوايا بريطانيا حوله ، وقد أبلغت بريطانيا سلطان بن صقر أن الحكومة البريطانية لن تتقبل أي تعلل بالضغط من جانب الوهابيين لتبرير استئناف أعمال القرصنة أو الاضطراب في البحر ، والمعنى أنها خائفة كل الخوف من أن يصبح الوهابيون أعداءها ، ومع ذلك فقد هددت القواسم ، بسبب أي حركة قد تقع في الساحل .

وفي سنة ١٨٣٠ جاء النجاح الذي أحرزه الوهابيون في الحسا وظهورهم الذي بات متوقعاً في أي لحظة في عمان لينشر الخوف والفزع على طول ساحل القراصنة ، اي أن أهل الساحل الشمالي أصبحوا يخشون تقدم الوهابيين ، وقد أعلنت بريطانيا موقفها بأنها لا تهتم في الوقت الحاضر إلا باستتباب السلم في مياه البحار ، ولا تريد أن يبرز بينها وبين الوهابيين خلاف أو شقاق ، فيزيد الخوف من البحر ويظلم عليها طريق الهند فتصبح في مأزق شديد الخطر إلى آخر ماجاء عنها في هذا المقام من التبرؤات والتنصلات الظاهرية ومن المحتمل أن تكون قد اتفقت مع الوهابيين ضد القواسم لأنها هي الداء الدفين الذي لانهاية له .

ولقد عاد لسلطان بن صقر الساحل الشمالي وزادت قوته السابقة في بلاده وأصبح يسيطر على المراكز بنشاط ، وفي سنة ١٨٢٣ م حين قام الملازم

ما كوبد بزيارته لساحل الصقور في يناير ، كان الشيخ سلطان بن صقر حتى قبل جلاء القوات البريطانية عن رأس الخيمة قد أصبحت بين يديه السلطة الرئيسية على القواسم وأصبح حسان بن أحمد الذي كان شيخاً لرأس الخيمة من قبل تابعاً له ، ولم يستطع حسين بن علي شيخ الرمس التابع للوهابيين رغم مناصرة قاضب بن أحمد شيخ الجزيرة الحمراء له ، أن يقف في وجه نفوذه ، وكان نفوذ شيخ الشارقة كما يقول لوريمر في ذاك الوقت ، لا يرقى إليه نفوذ أي شيخ آخر ، وكان سلطان بن صقر حينذاك قد عزل شيخ الرمس حسين بن علي ونفاه إلى الشارقة ، وأقام بدلاً عنه محمد بن عبد الرحمن بن أحد شيوخ الرمس المتقدمين ، كما جعل أخاه محمداً شيخاً لمدينة رأس الخيمة التي أصبحت تشغل مكانا من الأرض مواجهاً لشبه الجزيرة ، وابقى على أم القيوين شيخها عبد الله بن راشد حاكما لهذا الاقليم باسمه ، وكان لبريطانيا مصالح في عزل عجمان ، فكان سلطان بن صقر يتلهف للقضاء على هذه العقبة الوحيدة التي تقف في سبيل سيطرته الكاملة ، واثباتاً لحقه في السيادة على عجمان أشار سلطان للمقيم البريطاني إلى الاتفاقية المبدئية الموقعة بينه وبين سير وليم جرانت كير في سنة ١٨٢٠ م والتي كانت تعتبر عجمان تابعة له ، لكن السلطات البريطانية أبلغته أنها لا تستطيع أن تفهم من هذه الاتفاقية بقاء سيادته بشكل دائم على عجمان ، وقد زال في الحال محذور الوهابيين عن الشيخ سلطان صقر الساحل القاسمي فقام يتتبع المعاهدات السالفة ويجمع إليه ما كانت له به علاقة ، فالتقط أكثر المواقع المتبعثرة عليه سابقاً ، ولكل وقت سياسة والرجل كما سبق وصفه يعد في الطليعة الساحلية العمانية الشمالية ، وقد وقف شوط الوهابيين عن القواسم وأصبح

القواسم في سلامة من الوهابيين ، ويظهر ذلك نتيجة التصالح الذي حققته بريطانيا بين شيوخ الساحل ، والانقسام الذي كرسته بينهم ، وقد وقفت بريطانيا حيال تلك الصروح التي يعيش فيها الجميع بالمرصاد لحركاتهم وسكناتهم تراعيهم في حلهم وترحالهم ، جاعلة كل واحد منهم شيخاً في بلاده وسيداً على قومه ، على أن لا يتدخل في شؤون غيره ، وهي من هذه الناحية اصابت فصل الخطاب حيث جعلت كل واحد منهم محصوراً في شؤونه الخاصة به ، مقهوراً عن التطاول على غيره ، قاراً في وطنه غير خائف من أحد من أقرانه ، وهي بذلك التقسيم قد ادركت العنان وقهرت الفرسان ، وقسمت البلاد وباعدت بين أهلها ، فكان ذلك من بليغ سياستها ، وبديع حكمتها ، وهي لاتنسى مبدأ « فرق تسد » ولا تغفل أن التضاد من العوامل الناجحة لها ، وكانت في القضية أشياء لم تردها بريطانيا بل أرادها الله عزّ وعلا .



٥ ـ عواصم القواسم
في الساحل الشمالي المتصالح

لا تخفى عواصم القواسم على أحد لشهرتهم في الساحل الشمالي ، إذ هم جبهة عالية ، ولهم زعامة سامية ، كانت أهم عواصمهم رأس الخيمة ، التي قامت على اطلال جلفار ، وكانت جلفار أهم عواصم الساحل العماني منذ عهد الجاهلية ، وفيها قتل الامام الجلندي بن مسعود رحمه الله ، وجيشه على يد خازم بن خزيمة ، ومنذ ذلك العهد استمر في رأس الخيمة الصراع وسفك الدماء ، والدعوة للقتال ، ومقارعة الأبطال وقد لعبت رأس الخيمة دوراً هاماً في التاريخ العماني ، وكم أصغت الآذان لسماع حديثها ، وكم نظرت العيون إلى أبطالها ، كما أشرنا إلى ذلك في تاريخ عمان .

وقد علمت أن الشيخ راشد بن رحمه بن مطر بن كايد صقر الساحل الشمالي ، هو أول من حكم رأس الخيمة ، وكان يسود معظم أقاليم الساحل المجاور يميناً وشمالاً « أي على الساحل العربي والساحل الايراني منذ سنة ١٧٢٧ م » وقد تغلغل القواسم داخل الساحل وتمكنوا منه ، ووضعوا أيديهم على بندر عباس ، وماجاورها ودار بابيحي وجزيرة القشم ولنجة ، وتدخلوا في البحرين وهاجموا قلعة العتوب في الزبارة ، وحاولوا غزو الرستاق من عمان

الداخلية ، لكن المحاولة فشلت ، واستولوا على سفن بريطانيا في عدة أمكنة كما جاء في تقارير بومبي[1] ، وكانت دبي للقواسم قبل انتقال آل مكتوم إليها من أبو ظبي ، وما دار بين الوهابيين والقواسم من المحاولات في بعضهم البعض ، وما رامه الوهابيون في القواسم من السيطرة عليهم ، وما أوقعه البريطانيون في القواسم خلال الحملات الثلاث التي حملتها بريطانيا على القواسم حتى قطعت نياطهم ، وشددت الوطأة عليهم ، انتقاماً منهم وما دار بينهم وبين بريطانيا من مفاوضات في الأحداث الواقعة ، وتبادل الخطابات والمحاورات وما أوقعته بريطانيا من المعاهدات لربط القوم بين القهر والأسر ، والمخاوف التي عاناها البريطانيون من القواسم والدماء التي أراقها القواسم ، والعراك الذي وقع منهم على المارة في البحر العربي العماني ، ومطاردتهم السفن إلى سواحل الهند وإلى كوجرات وكلكتا ، وتجاسرهم على القتال في البحر بحيث كانوا يُعدون أعظم الغزاة في البحر ، وماحاوله أعداء القواسم فيهم وما تآمروا به عليهم ، وما أصاب القواسم من الخسائر في حرب رأس الخيمة إذ زحفت عليها بريطانيا بقواتها البحرية ، ودمرت أساطيلهم ، وما كان منهم على الساحل التابع لسلطنة عمان ، وغزوهم لصور ، وبوشهر ، وجزائر كوريا موريا ، ومادار في تلك الأجواء مما فصله المؤرخون في تقاريرهم الخاصة والعامة ، كل ذلك من الأمور الهامة التي لا يتعاطاها إلا صقور البحر آل القاسم المشاهيب ، وكم لله من رجال ، وكم في العرب من أبطال .

---

١ ـ ورد ذلك في الصفحتين (٥٧) و (٣٠٢) من المجلد الرابع والعشرين لتقارير بومبي .

ان رأس الخيمة هي الامارة الهامة العريقة في تاريخ الساحل الشمالي ، وفي تاريخ الامارات السبع ويرجع تاريخ تأسيس بلدة رأس الخيمة أو ظهورها كعاصمة لجميع ساحل عمان بزعامة القواسم إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي (أي القرن الثاني عشر للهجرة تقريباً) حيث استقل الشيخ رحمه بن مطر ابان ضعف دولة اليعاربة التي كانت تحكم عمان وساحله ، وأخذت رأس الخيمة مكانة جلفار التي كانت قديمة العمران في ساحل الشمال العماني ، على سيف البحر ، لكن اصرار الانجليز على القضاء على هذه الدولة الفتية التي اقضت مضاجعهم ، وروعت أساطيل شركة الهند الشرقية في الخليج والمحيط الهندي أدى إلى تدميرها نهائياً واحراق أسطولها المرعب ، وأفول نجمها منذ عام ١٨٢٠ م واضطر الشيخ سلطان بن صقر الأول إلى جعل عاصمته الشارقة ، بدل جلفار الجديدة (رأس الخيمة) وانحصرت دولة القواسم في أجزاء من ساحل عمان بينما ظهرت إلى الوجود بعض المشيخات الحالية ، حيث دخل الانجليز مع حكامها في معاهدات شبيهة بتلك المعاهدات التي عقدوها مع القواسم ، حتى تكاملت سبعاً من الامارات ، وعرفت رأس الخيمة كامارة مستقلة في مطلع القرن الحالي (القرن العشرين) عندما انفصلت عن الشارقة ، بعد عراك دام بين أبناء العم ، ثم ثبت الانجليز الانفصال نهائياً سنة ١٩١٩ م .

يبلغ عدد سكان رأس الخيمة حوالي الستين ألفاً أكثر من نصفهم في العاصمة يشتغلون بالصيد والتجارة والزراعة ، وكان كثير منهم يضرب في الأرض وراء لقمة العيش في قطر والكويت والبحرين والسعودية ، أسوة

بباقي سكان الامارات الأخرى ، أما الأجانب من الايرانيين والهنود وغيرهم فلا يتعدون بضع مئات ، وشيخ الامارة الأول هو سلطان بن صقر الأول ، ثم ولده وهكذا حتى الشيخ صقر بن محمد بن سالم ، ويتبع الامارة المشار اليها بعض القرى كشعم وغليلة وخت والجزيرة والرمس ومعيريض .

قال عبد القادر زلوم : ومن المهم الجدير بالذكر أن بلدة رأس الخيمة مهددة بالزوال بسبب اكتساح البحر لها ، ويفكرون في نقلها إلى مكان مقابل على حافة جبال عمان ، غير أن الحالة المادية الصعبة لا تشجع على ذلك ، وأضاف : وتقع اطلال جلفار القديمة شمال رأس الخيمة بين قريتي الرمس ومعيريض ، ولها ذكر في الفتوح الاسلامية لفارس واليها ينسب الملاح العربي الشهير ابن ماجد المعروف بأسد البحار صاحب المصنفات البحرية والذي ارشد فاسكو دي غاما إلى طريق الهند من أفريقيا ، وأهل صور يدّعونه ، وله قبر في صور ، وكان ذا خبرة فائقة بطرق البحر بسبب كثرة أسفاره ومغامراته في البحار ، وإذا اعتاد المرء شيئاً سهل عليه وتمرّس فيه ، وهذا طبعاً غالب أحوال الانسان ، وقد اهتدى فاسكو دى غاما إلى طريق الهند باتباع آراء أحمد بن ماجد ، وقد كان ذلك بلاء على عمان أيضاً ، ويقال أن أحمد ندم على تعاليمه للبرتغاليين حين حملوا على بلاده عمان .

٦ ـ الشارقة العاصمة الثانية للقواسم

والشارقة كاسمها في عالم عمان المتصالحة ، ولها حديث غير مفترى ونبأ غير مختلق ، وهاهي ذي حتى الآن منذ العهد القديم تسير إلى الامام غير وانية ، وتتقدم غير خازية ، تُنتج من الأبطال كل داهية ، وتخرج من الرجال كأمثال معاوية ، تلي امارة دبي في جميع أحوالها ، وهي أيضاً القريبة منها مكاناً ، المشابهة لها عمراناً ، ويقال أن عدد سكانها يبلغ ثلاثين ألفاً أو يزيد فهي مشرفة شروق الشمس في ذلك الأفق ، وتقسم امارة الشارقة إلى قسمين ، الأول : الغربي على الخليج العربي ، وفيه العاصمة وهو القسم الأكبر من الامارة ، وتقع فيه أيضاً واحة الذيد ، والأماكن التي يرجح فيها ظهور البترول ، وتتبعه جزيرة الحمرية ، والقسم الثاني : يقع على ساحل خليج عمان شمال سهل الباطنة ويدعى بالمنطقة الشرقية ، ويتألف من خور فكان التي هي العاصمة الثالثة للقواسم ، وكذلك كلبا ، بالاضافة إلى جزء من بلدة دبا ، وهو الحصن منها ، ويدير شؤون المنطقة الشرقية حسب اصطلاحهم وال من قبل الامير مركزه خور فكان (أي في العاصمة الثالثة التي سيأتي الكلام عنها) وأهم أعمال الناس في امارة الشارقة ، التجارة ، والصيد ، والزراعة ، خصوصاً في الذيد التي تبعد عن الشارقة حوالي ستين كيلومتراً ثم كلبا ، وخور فكان ولا يتوانى الأمير

عن تشجيع الناحية الزراعية ، ويبدأ هو بنفسه بتخطيط المزارع واستصلاحها وتشغيل الفلاحين فيها ، وما زالت الشارقة جوهرة غالية لها قيمتها الوافية بين الامارات الساحلية ، وكيف لا وهي واسطة العقد ، واسمها يعرب عنها وقد قال رسول الله ﷺ : « اعتبروا البقاع بالأسماء » وقد جعلتها بريطانيا في الماضي قاعدة من قواعدها ، تنطلق منها طائراتها على الجبل الأخضر أيام حرب الامام غالب ابن علي ، وعضده الأكبر سليمان بن حمير ، وقد اختلط أهالي الشارقة من عرب وهنود وايرانيين ونحوهم ببعضهم ، ولا تزال الامارة تحث ركبها التقدمي إلى الأمام لتسبق إلى مداها المطلوب ، ولا تزال الراية القاسمية ترف على ربوعها[1] ، وهي لا تبعد مسافة كبيرة عن دبي ، اذ لا تزيد هذه المسافة عن عشرين كيلو متراً ، أما الآن فقد تلاصقت الامارتان بامتداد العمران وكثرة السكان ، فهما في رأي العين في وقتنا هذا بلدة واحدة ، وتشتركان أيضاً في الصفات واللهجات ، وبعد أن قام الاتحاد ، كادتا أن تندمجا في قالب واحد ، في جميع أعمالهما ، وتجارة الشارقة مزدهرة جداً وناشطة نشاطاً ملموساً ، وبها مطار هام هو أول مطار انشيء بالساحل الشمالي .

---

١) كان للقواسم وجود قديم في عمان تركز في بلدة الجصة ومدينة صور المطلة على خليج عمان ، وكذلك في وادي سمائل ، وعلى الاخص في بلدان سدور والباطنة، وليس معروفا مدى صلات القرابة بين هذه الاسر والأسرة القاسمية التي اقامت زعامة كبيرة وسلطة واسعة في ساحل عمان ولنجة وجزيرة قشم، وقد بنى القواسم في بعض هذه الاماكن ابراجا وقلاعا للدفاع عنها وحمايتها من اي غزو أو هجوم ، وخاصة في بلدة الجصة التي لا تزال معالم آثارها صامدة حتى اليوم (المراجع) .

٧ ـ خور فكان العاصمة الثالثة للقواسم

خور فكان هي من العمران القديم في الساحل الشمالي من عمان المتصالحة ، ذات أهمية لا تخفى على أهل الامارات ، ولها موقع هام بالنسبة إلى الساحل الشمالي وان كانت رأس الخيمة هي أم الامارات سابقاً ، فخور فكان لها مركزها على ساحل خليج عمان ، وكانت طيلة وقتها الماضي ميدان التهاوش بين الامراء ، فبينما تراها تتبع سلطان مسقط ، إذا هي تتبع القواسم ، ثم إذا هي ينزل الوهابيون عليها ليسيطروا منها على ماحواليها ، وناهيك بما وقع فيها أيام قيس بن الامام أحمد ، وسلطان مسقط سعيد بن سلطان ، ومن معها من الانجليز ، فالمعركة التي وقعت فيها جعلتها بحيرة من الدم ، وفيها قتل قيس بن الامام حاكم صحار ، وهلك من رجال عمان فيها أبطال كثر ، ثم عادت سيرتها الأولى ، اشتهرت خور فكان بمزارعها التي درّت على الساحل الشمالي خيرات لاتنكر ، وأهلها اخلاط من الناس من أجناس شتى ، إلا أن الاسم القاسمي هو السائد .

وخور فكان أهم وأجمل من كلبا ، وبها ميناء طبيعي لشمال الباطنة ، ولايزال عدد سكانها في ازدياد ونمو .

٨ ـ أعمال القواسم الداخلية عبر التاريخ

ان أعمال القواسم لاقامة السلطة والحكم قد تضمنت الجهود الكثيرة من الشجاعة والقوة والحكمة ، فقد مضت حياتهم في صراع وصيال ، شأن كل أمة تحاول الرئاسة الكبرى ، وعلى الأقل شأن من لم يرض بالدون من الأمر ، وحب الزعامة لا يخلو منه قلب البشر ، لأن النفوس جبلت على حب الترفع وطبعت على الرغبة في الرئاسة ، لاسيما في العرب ، ومن نشأ على ذلك هيهات أن يتنازل عنه لما طبع عليه أو لما أثر في نشأته أو لما تأمل نفسه النيل منه ، وأعمال القواسم عبر تاريخهم تدلك على شرف القوم وتغلغلهم في الزعامة ، وما كان لهم من عز مضى ، وشرف لايزال يتردد صداه بين معالم التاريخ العربي العماني ، بعد أن علمت عن القواسم محاولاتهم ومناوراتهم ومظاهراتهم ، وإذا كان القواسم قــد تجاسروا على مصارعة سيدة ابحار بريطانيا العظمى ، في البحر العربي ، واقتحام حدودها التي تفرضها على الأمة بقوتها ، فقد قامت عليهم بأساطيلها التي يعجز القواسم عن ردها ، ولاغرو أن تولى القواسم أمر الساحل الشمالي بعد سقوط دولة اليعاربة في عمان ، وتناثر جوهر عقدها ، وكان من نصيبهم الساحل الشمالي .

قال المؤرخ الانجليزي لوريمر : أنه في سنة ١٧٢٠ م (أي في أول القرن الحادي عشر للهجرة) بعد غزو افغانستان لايران الذي بدأ في نفس العام ، الذي ذكرناه تقريباً ، وخلال الفوضى التي أطاحت بملك سافاقي ، استولى الشيخ راشد بن رحمه بن مطر بن كايد القاسمي على باسيدو ، وكان جده مطر بن كايد قد تولى رأس الخيمة وقبض على جزيرة القشم ، وأقام هناك قاعدة أثرت تأثيراً كبيراً على عائد التجارة في بندر عباس ، وكانت في ذلك الوقت مقسمة بين الانجليز وبين الايرانيين ، وقد أدى ذلك إلى قيام نزاع كبير بين بريطانيا وبين شيخ القواسم ، لأن بريطانيـا غضبت منه حين أطاح بآمالها ، فعمدت إلى استعمال القوة ، وليس لها الحق في ذلك ، لأن الرجل لم يحرك عليها أي ساكن فعلي ، ولا عارضهـا في سياستها ، لكنها لما رأت أن مطامعها في طريق الانهيار ، ورأت الشيخ المذكور حكيماً في وضع الخطط ضدها نظرت إليه شزرا ، ورأت أن لابقاء لها مع وجوده مطلق اليدين ، فقامت بحملة عدوانية ضده ، بقيادة مستر درايز وكيل شركة الهند الشرقية في بندر عباس ، وكانت تستخدم في هذه الحملة السفينة الفرقاطة ، والسفينة المسلحة بنجال وسفينتين اخريين ، وقد استطاعت السلطات البريطانية أن تستعيد نصيب شركة الهند الشرقية من عوائد بندر عباس من الشيخ ، أي أن بريطانيا اتفقت مع الشيخ القاسمي أن يضمن لها دخلها من بندر عباس ، وفي سنة ١٧٣٧ م نزلت قوة إيرانية على خور فكان ، ولعلها نزلت بأمر من بريطانيا ، وقامت باجتياح أقاليم امام عمان أحمد بن سعيـد لأن له حدوداً ومراكز معينة معروفة ، ولكن في سنة ١٧٤١ م والاحتلال البريطاني لا يزال موجوداً

في امامة عمان ، كانت ثمة شكوك تدور حول اعتزام العرب بالاتفاق مع السلطات على نهب بندر عباس ، بعد احتلال جزيرة قريبة منها ، وقد علم استقرار دعائم القواسم بعد الدولة اليعربية إذ كانت لها السيطرة على الساحل ، وعلى الساحل الايراني ، وبحر العرب ، إلى عدن ، وباب المندب ، وكان للشيخ القاسمي راشد بن رحمه بن مطر نفوذ سائد إذ ذاك على الأقاليم المجاورة ، ولم ينجح البرتغاليون في بسط سيطرتهم ، أو استعادتها على البلاد .

وكان نفوذ شيخ القواسم الذي كانت عاصمته وقت ذاك مدينة رأس الخيمة ، يسود معظم الأقاليم المجاورة ، وفي الخارج أصبح اسمه دليلا على كل العرب المقيمين في الناحية الغربية من اقليم عمان الجبلي ، وأدى انهيار النفوذ الايراني في الخليج بعد موت نادر شاه إلى ظهور القواسم على مسرح الأحداث ، ومنذ بداية ظهورهم في الخارج عملوا على توجيه طاقاتهم نحو استغلال الموانىء القريبة على الساحل الايراني مؤيدين في ذلك أو معارضين سياسة جارهم امام عمان حسبما تملي عليهم مصالحهم الخاصة (أي ان توليهم الموانىء الايرانية لا يخلو من احد وجهين ، اما ان يكونوا ممالئين لامام عمان او معارضين له) وقد شاغل القواسم نادر شاه وناطحوه بقرون لا يقدر على كسرها وأرغموه على اشياء هامة حتى تحالف معهم ، وتزوج ابنة شيخهم راشد بن مطر تعزيزاً لقواه ، وتأييداً لهذا التحالف ، وفي سنة ١٧٥٨ م جاء ملا علي بسفن من هرمز لمناصرة شيخ القواسم ، لأن هذا الشيخ كان يحاول قهر البحرين ، فضلاً عن ان الساحل العماني او الايراني

كان في يده ، ومن حيث أن القضية لم يقع فيها شيء مما جاء له ملا علي فقـــد بقي كل شيء على أصله حتى سنة ١٧٥٩ م ، حيث قامت بعض سفن شيخ القواسم باضطرابات في بندر عبـاس ، وأوقعت بعض الخسائر الجسيمة بالعاملين في الوكالة البريطانية هناك .

وفي يونيو سنة ١٧٦٠ م طالب القواسم باعادة قواعدهم التي سبق تقريرها لهم من جزيرة القشم ، ولافت ، ولنجة ، وشناص ، على الساحل الغربي وطلبوا المعونة من أهالي هذه المناطق ، كي يسترد الملا علي بندر عباس ، لكنهم لم يحققوا بغيتهم ، ولم تنجح عمليتهم ، اذ انسحبوا عن بندر عباس بعد أن عجزوا عن اجلاء الحامية التي كانت تسيطر على قلعة المدينة باسم خان لار وكانت قواتهم في هذه المرة تقدر بألف رجل ، بقيـادة الشيخ راشد بن مطر خاصة ، وعلى أثر ذلك قـام خان لار بمظاهرة بحريه على لنجة ورأس الخيمة ، لكنه وجد القوم على استعداد كامل ، فوت عليه فرصة النجاح ورده خائبـــاً عن أمله ، فانقلب على جزيرة القشم فخربها تخريباً تاماً ، إذ كان وصوله اليها وهي على غير أهبة ، ثم حاول ملا علي الهجوم على هرمز فطلب في سنة ١٧٦١ م من عرب رأس الخيمة مساعدته في الهجوم على هرمز الا أنه لم ينجح ، وفي خلال هذه الاضطرابات استولى القواسم على عدة سفن لمسقط كانت تحمل ارزا وغيره من السلع للوكالة البريطانية في بندر عباس ، وشارك ملا علي في هذا العمل ، وفي سنة ١٧٦٣ م كان القواسم الفريق الثالث في الصلح الذي عقد بين بني معين وملا علي شاه ، على شرط رد السفينة « الرحماني » التي سبق ان استولى عليها شيخ القواسم ،

وعلى تقسيم خراج جزيرة القشم بين الأطراف الثلاثة ، ثم قام الشيخ عبد الله شيخ بني معين الذي كان حاكماً على بندر عباس ، وهرمز ، والقشم ، باخراج القواسم من هذه البلاد سنة ١٧٦٥ م ، وقد نزحوا عنها طيلة حياته ، وكان القواسم قبل خروجهم من ايران على عداء مع امام عمان الذي يرى ان له حق السيادة على الخليج ، بوصفه خليفة الدولة اليعربية ووارثها ، وباعتبار ان هذه الأقاليم كلها كانت تحت سيطرتها ، لكن الامام لم يقدر على تحقيق هذه الاماني حتى شاع ان كريم خان يهدد الساحل الشمالي العماني كله ، فتحالف الزعماء في هذا الساحل واتفقوا مع الامام على اقامة اتحاد موقت ، فخرجت سفينتان ايرانيتان تابعتان لبندر عباس ، وبمساعدة شيخ هرمز انقض عليها الاسطول العماني فدمرهما تدميراً تاماً ، ثم انسحب الاسطول العماني إلى رأس الخيمة وبقي راسياً فيها ، إلا ان العهد لم يطل ، لأن المطامع تكدر الصفو ، وتشق العصا ، ففي سنة ١٧٧٥ م نشبت بين الامام والقواسم حرب ، وكان شيخ القواسم اهتز لهذه الحرب بنفسه ، ولم يطلب عوناً من أحد وخرج في البحر مشتد الشكيمة لا يألو جهداً في صدده ، فانقض على سفن بوشهر بدعوى أنها تحمل المؤونة لامام عمان ، فانقلب الود عداوة ، واظلم افق الرجلين ولعل مرد ذلك إلى السياسة الاجنبية ، وكان القواسم يحاولون الهجوم على مسقط ، فارتاعت البلاد ووقفت قواتها متأهبة للصدام المتوقع ، وفي هذا العهد بنيت تلك القلاع على ميناء مسقط المعروفة عندهم بالصير (جمع صيره) وهي قلاع على ثغر الميناء أمام الجلالي والميراني ، الحصنين البرتغاليين الكبيرين ، ولكن حركة القواسم تأخرت عن هذا الصدد .

وفي سنة ١٧٧٧ م تنازل الشيخ راشد بن مطر عن الرئاسة لولده صقر ، حين رآه شديد المخالب ، وكان له في تنازله هذا أغراض سياسية ينوبها هذا البطل لابنه الصقر .

قال صاحب الدليل وغيره من مؤرخي الافرنج الذين كانوا يتابعون التاريخ الحالي في عمان الشمالية : في سنتي ١٧٧٩ و ١٧٨٠ م حيث كان الاضطراب سائداً في الساحل الشمالي والفوضى ضاربة أطنابها ، والحرب قائمة بين شيخ القواسم وامام عمان ، بعد هدنة قصيرة ، توقفت فيها الحرب ثم عادت إلى سيرتها الأولى ، قال : وبدأ اسطول القواسم ، وعليه مجموعة من الرجال الذين يعتمدون في حياتهم على الغزو والقتال يمارسون عمليات الاعتداء في كل اتجاه دون تمييز ، ومشوا يطوقون السفن التي يقدرون عليها وينهبون كل ما استطاعوا من غير رادع عقلي أو سياسي فكان البحر العربي كله في خوف من أعمالهم ، وحاول القواسم احتلال البحرين في هجوم مباشر على قلعة البحرين وعادوا أدراجهم ، وسبب ذلك أن أهل البحرين استولوا على قارب لشيخ القواسم وقتلوا بحارته كلهم ، وهم عشرة رجال ، الامر الذي دعا القواسم إلى الهجوم على قلعة الزبارة ، ولما وجه الترك سلطاتهم على البصرة ، رأى امام عمان ضرورة مصالحة القواسم لأجل الخطر الكبير الذي أصبح يتوقع حلوله عليه وذلك في سنة ١٧٩٨ م .

قال لوريمر : عقد السيد سلطان صلحاً في عمان بهدف تعزيز قواه في مواجهة السلطات التركية في البصرة ، ولكن بمجرد وقوع الخلاف التركي العماني عادت حالة الحروب كما كانت بين القوى العربية ، وقام السيد سلطان

بهجوم فاشل على ميناء القواسم في دبي ، وعلى أثر ذلك قامت قبائل النعيم وبنو قتب ، وبنو ياس من دبي بمحاولة الهجوم على صحار ، وذلك في سنة ١٧٩٩ م ، لكن السيد سلطان وأخاه قيس التقيا بالقوم في ليوا فأوقعا بهم وقعة شنعاء ، هزماهم فيها هزيمة كبيرة ، وفي هذا الوقت تأكدت الروابط بين الوهابيين والقواسم ، وفي سنة ١٨٩٣ م ركب البحر مرة اخرى بتحريض من الوهابيين ضد حليفهم السابق السيد سلطان ، وربما كان لهم دور في عملية الهجوم على جزيرة القشم ، وكانت وقت ذاك تابعة لمسقط التي كان الوهابيون يعتزمون القيام بحملة عليها في تلك السنة نفسها ، وما زال القواسم على نشاط بالغ حده في معاداة البريطانيين ، وما زالت بريطانيا في حال مهاجمتها لرأس الخيمة في قوة كافية ، لا تملكها رأس الخيمة ، ولا شك أن التفوق لها بذلك غير بعيد ، فقد أصبحت رأس الخيمة كشخص مكتوف اليدين لا يستطيع أن يعمل أي شيء ضد عدوه ، بل غاية ما عند القواسم ومن معهم الجلاء عن بلادهم ، والعدو يعمل في هدم حصونهم وقلاعهم وتخريب منازلهم ، ولكن ذلك كله لايثني عزائم القوم ، ولا فخر لبريطانيا في الانتصار عليهم ، وما تفعله بهم ، لأنها الدولة التي تصف نفسها بالعظمى ، عدداً وعدة ، فهي تكافىء فرنسا وايطاليا وألمانيا ، اذ ذاك في كثرة العدد ، وقوة المدد ، وقد رأت أفعال القواسم عند التكافؤ في البحر ، اذ كانوا يحتلون سفنها المسلحة بالسلاح الكافي ، بعد أن ينقضوا عليها انقضاض الصقور الضارية فيسيلون الدماء من السفن إلى البحر ، ويحتلون السواحل المحصنة في الخليج وغيره ، وتكررت

غزواتهم فلم تقدر بريطانيا عليهم إلا بحملاتها الكبيرة وبواخرها العديدة ، ولما عزل سلطان بن صقر عن مشيخة القواسم ، تبعاً لرغبـــة الوهابيين ، وأصبح لا نفوذ له تبين للقواسم « من بكا ممن تباكى » وانه « في الليلة الظلماء يفتقد البدر » فلم يقدر الوهابيون على اعادة شبر من الأرض للقواسم ، وانما كانت هناك أهواء سياسية يضمرها القوم في أنفسهم ، ولا يحبون استفحال الخطب من جانب القواسم لأن لهم مطامع لا تزال منوية .

ولما تحقق للقواسم الأمر عضوا أصابع الندم ولاموا أنفسهم وعلموا أن البريطانيين يحاولون محوهم من حيز الوجود ، وفهموا أن الوهابيين يحاولون السيطرة عليهم ، وهنا فكر القواسم في أمرهم ، وقاموا يصارعون أخطارهم بأنفسهم ، ويعالجون أمراضهم بجدسهم وتخمينهم ، فتارة ينتصرون واخرى يتقهقرون ، لكنهم سلموا من جانب يخشونه ، ونجحوا في بعض ماحاولوا .

ولا بد لليل أن ينجلي   ولا بد للقيد أن ينكسر

وقد قبض القواسم على عدة سفن بريطانية كانت تحمل أموالاً طائلة ، تقووا بها ، وبما حملت واصبحوا يستعيدون قوتهم ، وينظمون زعامتهم ، وليت القوم كانوا أعاروا جانب السياسة نصيباً من تفكيرهم ، ولم يعوّلوا على قوتهم وبسالتهم في كل طريق ، لأن العدو قـــد أحاط بهم ، فهم أعداء لسلطان عمان ، وهو قوي ، وبريطانيا هم أعداؤهـا وهي أقوى ، وزعماء الساحل الايراني كلهم يخشون القواسم ، وزعماء البحرين يخافون صولتهم وغطرستهم ، واذا كانوا كذلك ، فـان وجودهم مرهون بوجـود

القوة لديهم ، ومع فقدها فهم همود ، ان هذا غير سديد في النظر ، ولا صحيح في الرأي وعاقبته غير محمودة ، والتفكير في العواقب انفع واوجب لتمهيد المصير ، ومن فكر ادرك ، ومن تغشم تهور ، ولا بد للرئاسة من السياسة ، وكم عرف مثل هذا في العالم طيلة الدهر ، وقد مالأ الشيخ سلطان بن صقر شاه ايران على اخضاع البحرين ، وكان آملا منه ذلك ، وفي نفسي أن الشيخ كان يرواغ الشاه في طلبه ، اذ بينما يرعى منه انعامه يراوغه في صدده ، لأنه يعلم ان شاه ايران اذا تولى البحرين أصبح من السهل عليه أن يتولى رأس الخيمة ، وعندها لاتنتهي العملية عند حد ، وفي هذه الاثناء تبين لسلطان عمـــان ما يحاوله الشاه من قهر البحرين وممالأة سلطان بن صقر له ، فركز السلطان قواعده ، وقد اتضح لسلطان بن صقر العجز عن القيام مع الشاه ، وسلطان مسقط واقف له بالمرصاد وبذلك اسقط في يده ما أمل به الشاه .

وفي اغسطس سنة ١٨١٤ م أرسل سلطان بن صقر الذي كان يقيم في لنجة ، – وكان مفهوماً أنه يمالىء الحكومة البريطانية – وكيلا عنه إلى بلاط شيراز ، يحيك فيه سياسة تجعله بين الثرى والثريا ، لأنه محاط بنوايا هامة ، ومن هي بريطانيا التي يمالئها سلطان ؟ انها هي التي دقت رأس الخيمة ، واحرقت البلد بنيران المدفعية ، وقد أعطته معتبراً لا يزال يراه نصب عينيه ، ولم ينفعه مؤازروه ، وكانت بريطانيا الداهية الكبرى التي ابتلى بها الخليج لاتزال تشير بأناملها في وجه سلطان بن صقر بن حسان بن رحمه ، وتشكو إليه أفعال سلطان ، ثم تخلو بسلطان فتشكو اليه أفعال

حسان ، حتى صارا أداة مهيئة لأغراضها الخاصة ، مع أنهما على طرفي نقيض ، اذ كل واحد منهما يتعهد لها من جانبه ، وهما غافلان عما تريد بهما ، حتى تكلف حسان بن رحمه القصد إلى الدرعية عند عبد الله بن سعود ثم ارسل حسان بن محمد بن غايث بما تلقى من خطابات إلى الملازم بروس الانجليزي ، فقصد المبعوث إلى بوشهر في الثاني من اكتوبر سنة ١٨١٤ م ومخض أموراً جاء فيها الغث والسمين ، فكانت قليلة الجدوى ، وقد تعلل لبريطانيا بأشياء أصغت اليها اترى مايكون ، وكان كل من حسان بن رحمه وحسان بن محمد يحاول الأمر لنفسه ، وبريطانيا تتلاعب بهما في حلهما وترحالهما ، حتى التزمت ان ترفع علماً خاصاً على سفنها حتى لا يقع - كما يقال - غلط يؤدي إلى الوقوع في الممنوع ، فعلت بريطانيا ذلك ليكون القواسم سامعين مطيعين لها فتأمن جانبهم ، وتستغل المصالح من كل وجه ، وقد نصبت الشراك بين سلطان مسقط وسلطان بن صقر وحسان بن رحمه بن محمد ابن غايث ، وأكثرت من الامراء وعددت الزعماء وأقامت لهم قواعد ، وكل واحد من هؤلاء يحسبها معه ، فإذا هي عليه ، ولاشك أنهم هم أيضاً يعاملونها على هذا الأساس .

ومن في الناس سيرته بمكر ؛ يلاقي منهم خدعا ومكراً

وقد بلغ القواسم الذروة العالية في الساحل الشمالي ونالوا السلطنة فيه ، حيث أصبحوا مرهوبين حتى في البحر الأحمر ، كما أنهم هموا بغزو صور ، والساحل الايراني ، والبحر الأحمر في ظروف متقاربة ان لم نقل متلازمة ، وبلغ تعداد سفنهم أكثر من ألف سفينة بين صغيرة وكبيرة ،

تمخر عباب البحر ، قضت عليها بريطانيا بسوء السياسة ، فلينظر العرب ، كافة ، أحوال الاستعمار ، كيف يربي الجـــدي ليأكله ، ويخالط الغني ليسرقه ، ولا ريب فان العرب لا يملكون الخبرة التي يملكها أعداؤهم في هذه الأمور .

ان العدو إذا جاراك في ملأ فعند وحدتك الزهراء يطويكا

يرميك سهامه ليقضي مقصداً عمها ويستبد مع الامكان يفتيكا

والعجب بمن مارس وجرب كيف لا ينتبه ؟ ان حية سبق أن لدغت أباك وأخاك في طريقها لاشك أنها ستلدغك في نفس الطريق .

اذا ما أخ ألقى أخاه لأكل بدأ بأخيه الأكل ثم به ثنى

وعلى أثر ذلك حاول شيخ القواسم في رأس الخيمة وقتذاك أن يبذل جهده الموصول إلى تسوية الأمور مع حكومة بومبي ، أي بريطانيا ، وعرض اجراء مفاوضات ثلاثية كما يقول لوريمر ، كالتي وقعت سنة ١٨١٤ م بينه وبين امراء الوهابيين والسلطات البريطانية ، فقيل له أن الوقت قد فات ورفضت مقترحاته باصرار ، ورجع بخفي حنين ، ولا يخفى ان الدول الاستعمارية عدوة الاسلام ، على العموم ، وعدوة العرب على الخصوص ، وعدوة المخالف لها على الأخص ، فالشيخ القاسمي يحاول اجراء المفاوضات مع بريطانيا ، وبريطانيا تحاول سحقه من الوجود بحيث لا تبقى له باقية ، فجاءت بريطانيا تقود جحفلها وتسحب أساطيلها في عـــددها وعديدها ، بمدافعها الطويلة ، في حملتها الثالثة بغير انذار ولا اخبـار ، وقـد قامت

بتركيز مدافعها ، واختيار مواقع الطلقات المدمرة ، بلا رحمة ولاهوادة على خلاف قوانين الحرب العربية أو الاسلامية ، ورتبت قواتها براً وبحراً حول رأس الخيمة ، فطاردت السفن القاسمية وأطلقت عليها نيران مدفعيتها بأسرع مايمكن حتى بُحَّت أفواه المدافع من كل صوب ، ومنعت توريد كل شيء تستطيع منعه عن القواسم ، واستمر الصراع بين القواسم وبريطانيا ، وامتد العراك بينهما عهداً ، وكان من زعامة القواسم ومغامرتهم البحرية ما خلد لهم اسماً يفوق طغرى الشرف في الساحل ، فان بدأ لاتقدر على قطعها تحترمها ، وان عدوا قوياً لا ينبغي ان يتعاطاه من هو دونه ، وان كان النصر لا يختص بالقوى ، فربما انتصر الضعيف ، لأن القوي منتظر انتصاره على الضعيف في الغالب ، فإذا انعكس الأمر فذلك نادر أو شبهه ، فالصراع القاسمي البريطاني في الخليج كان سببه الترؤس على رعايا الجانب الشمالي عندما انهار صرح اليعاربة ، وانتشر خرز السلك هنا وهناك ، وضاعت الممالك بضياع المسالك ، وثار الهناوية والغافرية في قوة اشتعالها ، وأهل الساحل كأهل الداخل حطب وقيدها ، لذلك قام القواسم بدورهم وهم عمانيون لينالوا نصيباً مما ضاع ،وقد وضعت بريطانيا عداءها على القواسم خاصة ، دون من رأت منه بعينها — كما تقول — أعمال القرصنة ، ولم يكن القواسم أخص من غيرهم بذلك إلا أن عين العدو لا ترى إلا الجانب الذي تعاديه ، ولعلها ترى ان عداء القواسم أهون شيء تراه .

وبعد كل ما كان على القواسم في رأس الخيمة تراجعت الأحوال بعض الشيء ، فأقام القواسم على رأس الخيمة برجاً قام ببنائه الشيخ سلطان بن صقر نفسه ، كان علوه ثلاثين قدماً عن سطح البحر ، ولما شاع بناء البرج

المذكور حمل عليه الجنرال سميث في سنة ١٨٢٠ م ، بخمس سفن حربية ، واطلق عليه المدفعية من كل صوب حتى دمره تدميراً نهائياً ، من غير خطاب ، ولا سؤال ، فكان بعض كتاب الانجليز يقول : يمكننا أن نحكم على ماعمله كابتن فيثفول بالتسرع ، لأنه لم يتصل بالمقيم العام الذي يحتمل أن يكون على معرفة ببناء البرج المذكور ، لكن بريطانيا لها مع القواسم حسابات لا تنساها ، ولاشك ان نوايا بريطانيا تعم بسوءها كل فرد في أي بلد تحاول فيه أمراً ، وقد وقفت بريطانيا للقواسم بالمرصاد ، كلما خرج خارج في اي عمل كانت عيونها تراقبه ، حتى أنه كما جاء على لسان لوريمر ، خرج في سنة ١٨٢٣ م رجل من الشارقة يدعى حسون على قارب له متفرجاً في البحر ومتجولاً على الساحل بالقرب من جاشك ، وبعـــد رجوعه وقع في مأزق خلال التحقيق معه عن سبب خروجه ، وبقي تحت المسؤولية عهداً ، حتى اذا تبين أنه لم يفعل شيئاً مما يدعونه بالقرصنة ، أعفي من المسؤولية بعد تردد دام وقتاً ، وفي بداية سنة ١٨٢٤ م خرج قاربان من الشارقة إلى البحر ، بقصد القيام باعمال القرصنة كما يقولون ، فاستوليا على سفينة تابعة للمهرة بالقرب من سوقطرة ، وأعدما كل من كان على ظهرها ، وهربا إلى زنجبار فلحقت بريطانيا باحدهما في شارك ، والثاني في مطرح وكرّت في طلب الفاعل الشيخ سلطان بن صقر ، اتهاماً له ، كما قامت في سنة ١٨٢٥ م عدة سفن من الشارقة – حين حملها الضيق من بريطانيا – فاستولت على قارب بحريني بالقرب من جزيرة هنجام ، وقتل في هذه الحادثة ثلاثـة رجال أو أربعـة من أهـالي البحرين ونهبت

الأمتعة الكثيرة ، فهاجت بريطانيا وماجت ، فخرج اسطول بقيادة الضابط البحري الأول إلى الشارقـــة ، بطلب تعويض المنتهّب ، وفي حـال رفض هذا الطلب كُلف هذا الضابط بتـدمير السفن والقوارب الموجودة في الميناء ، فقام أهل الشارقة بدفع الغرامة كاملة حتى رضي شيخ البحرين ، بما دفع وهدأت الحالة اذ ذاك ، وفي النفوس هياج وتلهب على ماصار ، وما يصير ، وفي سنة ١٨٢٨ م هاجم مسلم بن راشد من أهالي رأس الخيمة قارباً من صحار ونهب حمولته كلها بعد أن قتل بحارته جميعاً ، بعد أن أوثقت أيديهم بالحبال وألقوا في البحر ، ودمرت السفينة تدميراً كاملاً ، واغرقت ، وهذا من الأعمال الشنيعة ، وقد احس الشيخ سلطان بن صقر بأن الجريمة سوف تتناوله ، فقام بكل ما عنده وقبض على السفينة المجرمة ، ونقل رجالها إلى رأس الخيمة فسجنهم عدة شهور ، وهدأت الحالة ، وارسل القارب إلى سلطان عمان وقضى سلطان بن صقر على مسلم بن راشد بالاعدام ، لأنه ثبت أنه كان المحرض الفعلي على ارتكاب الجريمـــة ، وفي سنة ١٨٢٩ م تعرضت سفينة تجارية بريطانية تدعى « سنبري » لمعاملة سيئة في ميناء الشارقة نتيجة اعتقاد بأنها كانت تحمل شحنات خاصة لميناء أبو ظبي المعادي للشارقة ، وقد تم بيع الشحنة التابعة لأبو ظبي بواسطة وكيـل المالك ، لشيخ الشارقة ، وذلك دون معرفة قائد السفينـــة ، وبعدها صعد اليها عدة رجال من القوارب بشكل غير لائق لأخـذ الحمولة ، كما حاولوا أيضاً انزال العلم البريطاني المرفوع عليها ، وحين حاول أحد الرجال مقاومتهم ، اعتدى عليه بالضرب ضرباً مبرحـاً ، وانتهت المسألة بوصـول

السفينة الحربية المسماة « امبيرست » وحين رفع ماحدث إلى الشيخ سلطان بن صقر أنكر أولاً معرفته به ، ثم أمر بعد ذلك بأن يحرق أول قارب نزل رجاله إلى ظهر السفينة « سنبري » أما الرجل المذنب في مسألة العلم البريطاني ، فقد جلد علنا بأمر الشيخ سلطان ، وفي سنة ١٨٣١ م كان رجال من القواسم عائدين من البصرة فمروا على ميناء ديلم وريج فنهبوا الميناوين معاً ، واستولوا على قارب كان عائداً في طريقه من كانجون إلى بوشهر ، هربا من الطاعون الذي انتشر اذ ذاك في هذه الأماكن .

وفي سنة ١٨٣٠ م قام شيخ عجمان ضد صحار ، وأقام حربا رسمية وجمع فادعى ، وراح يعتبر أن سفن صحار لم تعد تابعة لسلطان مسقط ، وكان متحالفاً مع سلطان مسقط فامتدت غاراته على السفن المشار اليها ، فطلب من الشيخ سلطان بن صقر كفه عن هذه الأعمال المؤسفة ، وقد استولى على اثنتي عشرة سفينة لأهالي صحار بحمولتها ، وأنكر الشيخ سلطان بن صقر أن تكون له أية سيطرة على شيخ عجمان أو شيخ أم القيوين ، المرتبطين باتفاقيات ثنائية مع بريطانيا ، فقامت سفينتان حربيتان بتوجيه انذار إلى الشيخ راشد بن حميد شيخ عجمان بالاذعان للطلب أو الحرب ، فطلب مهلة بضعة أيام إلا أنه لم يمهل إلا ٢٤ ساعة ، (أي يوماً وليلة) وكانت قد أخذت عليه سفينة واحدة أخذها أهل مسقط فردّت اليه ، وانذر بالحرب ، فبادر برد القوارب الصحارية والأمتعة والمجوهرات المنهوبة ، وكان هذا الامر في سنة ١٨٣٢ م ، وفي مايو من سنة ١٨٣٢ م أيضاً هجم جماعة من أهل قرية الخان التابعة لامارة الشارقة ، على سفينة مملوكة لرجل بريطاني خارج الساحل الايراني ، وبعد ذلك هرب من الجناة ثلاثة رجال إلى

شيخ أبو ظبي ، ولاذوا به ، فارجىء فصل القضية لمعارضة أحوال أخرى برزت في محيطها ، ثم أبلغ شيخ أبو ظبي عن الحادث وان القضية ستنال من جانبه فبادر بدفع غرامة قدرها الف وخمسمائة جنيه بدلاً عن تسليم الرجال الثلاثة الذين لاذوا به ، فقبلت الغرامة منه ، أما الشيخ سلطان زعيم الساحل الشمالي وأكبر دهاته ، فبقى يرواغ البريطانيين في دفـــع المبلغ المطلوب منه بسبب هذه الحادثة وقدره ألفا جنيه ، حتى أطلقوا مدفعيتهم على احدى سفن الشارقة عدة طلقات ، واذ ذاك رأى أن لابد من الامتثال ، لأن يد العدو قوية جداً ، ولا تبالي ، وربما تتمنى ذلك انقضي على هذا الشيخ العنيد ، واليد القوية تتقى لأنها تفعل ماتهوى ، وكان فريق من القوامم مواطنين آهلين في عجمان ، ورأوا ضيق البلاد ، فانتقلوا إلى أبو ظبي حيث رأوا أن العيش أصلح لهم ، ثم وقعت بينهم وبين رجال من أهل مطرح أشياء ، كان منها سوء الحال بينهم في البحر ، فهاجم القوامم سفينة لهؤلاء واستولوا عليها وعلى حمولتها التي تبلغ قيمتها الف جنيه ، إلا أنه لم تقع خسائر في الأرواح حيث سلم البحارة السفينة لهؤلاء الصقور ، فقام حماة البحر ، وطلبوا التعويض عن هذه الحادثة ، فرفض ولم يقبل ، بدعوى أن هؤلاء لهم مرجع غيره ، مسؤول عنهم ، وأراد بذلك عدم الاصغاء لمن لاذ ببلاده ، ودخل تحت مسؤوليته ، حتى رأى الاساطيل الانجليزية تزحف عليه ، وتعترض ساحل بلاده ، وقد علم سابقاً ما كان على رأس الخيمة ، فاذعن لكل مايراد ، وذلك في سنة ١٨٣٤ م ، وما زالت الأحوال طيلة ذلك العهد قتالاً واقتتالاً ، ونضالاً وصيالاً ، فتحرك

بنو ياس في التاريخ نفسه للقتال ، وذلك لأسباب كانت هناك تستدعي هذه الأعمال ، فكانت الأمور موحشة وكان البحر مخطراً إلى حد بعيد ، إذ كل يصول من جانبه نهباً وقتلا بالسلاح الثقيل ، وشدة الصرامة والقوة ، واحسب ان ذلك كان مثله في البر ، فاشتد الخوف على الناس وعظمت المحنة ، وامتدت الغارات والغزوات من البدو على غيرهم ، ومن الحضر على بعضهم البعض ، ولم نجد لها سبباً أقوى من الهناوي والغافري ، وهذا الداء العضال هو الذي مزق الشمل وفرق الجمع ، فكان بنو ياس والشحوح هناوية ، والقواسم وبنو نعيم وبنو قتب وبنو كعب غافرية ، فلذلك عظم التلاشي في هذا الطرف الشمالي واشتد خطبه ، هذا يهيج على أخيه لعصبة الهنائية ، وذاك للغافرية ، وامتد هذا الحال وشاع في الساحل والداخل ، ولكن بريطانيا لاتهتم بأحد في الساحل كاهتمامها بمراقبة القواسم ، ولا تعلق على أحد ما تعلقه من خوف على القواسم .

ويقول لوريمر : ان سنة ١٨٣٥ م تميزت بانفجار جديد لروح القرصنة القديمة ، لكنها لم تنشب هذه المرة من القواسم ، بل من قبيلة بني ياس التي كانت في الماضي على مسلك طيب ومطيعة للقوانين ، قال : ويمكننا ان نرجع هذا العمل لعدة أسباب ، ثم شرع يعدد هذه الأسباب ، فقال : انها تعود إلى تغير الحاكم في أبو ظبي ، والانقسامات داخل قبيلة بني ياس ، واخيراً ضعف العمارة البحرية البريطانية في الخليج ، قال : وكانت التسوية التي تم التوصل اليها بعد ذلك مع بني ياس موضية إلى أبعد الحدود ، فقد سلم القراصنة خمس عشرة سفينة من أحجام مختلفة ، بين

كبيرة وصغيرة ، كانوا قد استولوا عليها وهي ترفع العلم البريطاني ، كما سلموا تعويضات عما نهبوه ، ولو فعل القواسم مثل ذلك ، لقوبلوا بأفواه المدافع ، ولو تم سحق رأس الخيمة أو الشارقة ، ورغم ذلك فقد وجهت بريطانيا اللوم للقواسم ، وما جرم القواسم في هذا ، حتى يوجه اليهم اللوم أو التأنيب ويرمز اليهم فيه بأنهم الجناة ؟ ولعلهم كانوا أثاروا هؤلاء الغزاة ونشطوهم ، وهم بطبيعة الحال مغرمون بهذه الأحوال ، ولا يخفى أن هذه الحالة قد سرت في رجال الخليج الشمالي واعتادها أهله ، كما اعتادت بادية الداخل القتل والنهب في الطرق ، لعدم وجود الزاجر ، ومضى ذلك الجيل على هذه الحال ، تلعب به الأصابع البريطانية فتثير الحزازات وتشفي الضغائن ، واستمر الاختلاف بين هؤلاء الرجال ، وكلٌ يدعي وصلا بليلى ، وليلى لا تقر لهم بذاكا ، والفساد في الأرض لا يرضى به العقل السليم ، ولا يفعله إلا من خيم الجهل على قلبه ، وبتخالف العرب وقعوا فيما وقعوا فيه من الذل والهوان ، والفقر المدقع الذي لا حياة معه ، ولا سعادة ترجى فيه ، بشهادة الرسول ﷺ .

* * *

٩ - الوقائع الداخلية بين القواسم وبين جيرانهم

يراد بالوقائع الداخلية ماوقع بين القواسم وبين جيرانهم من بني ياس وبني نعيم أهل البريمي والشحوح ، وآل بوسعيد حكام مسقط ، وما وقع بينهم وبين أهل قطر والبحرين لأن هذه الأحوال غير دولية ، وانما هي أعمال خاصة بأهل هذا الطرف الشمالي ، ولا يخفى أن التنافس والنزاع بين أولياء الأمور لا يزال مستمراً منذ العهـــد القديم ، ولذلك جعلتهم بريطانيا امراء متعددين ، وجعلت بلادهم امارات متعـددة حتى انتصرت ارادة التآلف والاتحاد في العهد الحالي ، وكانت بريطانيا قد أججت روح التنافس فيما بينهم ، ليكونوا دائماً على عـداء دائم ومستمر ، عملاً بمبـدأ « فرق تسد » فكان الأمر كما أرادت ، ولله أمر هو بالغه وقدر هو نافذه ، وإذا ضيع المسلمون حقوق دينهم فقد جنوا على أنفسهم فمن يلومون إذا سلط الله عليهم عدواً يلحوهم كما يلحى القضيب .

قال المؤرخ البريطاني لوريمر في الصفحة ١٠٤٤ : قبل أن ننتقـل إلى تناول التاريخ الداخلي لساحل الصقور – لا لكما يقول هو ساحل القراصنة –

من معاهدة السلم الشاملة سنة ١٨٢٠ م أي بعد القضاء على القوة القاسمية في رأس الخيمة ، وبعد تمزيق أساطيل القواسم كما شاءت القوات البريطانية تبعاً لحلول المدنة البحرية الأولى سنة ١٨٣٥ م ، يحسن بنا أن نلقي نظرة على العوامل الخارجية التي كان لها تأثيرها على الحالة الداخلية .

قال : كان سيد مسقط هو القوة التالية صاحبة النفوذ بعد بريطانيا العظمى في ساحل الصقور ، وكان أكبر أنصار السيد على هذا الساحل شيخ أبو ظبي ، وشيوخ دبي دائماً . ولكن في سنة ١٨٢٣ م حدث استثناء نادر وغريب لهذه القاعدة ، أي وقع تغير وانقلاب ، إذ تحالفت دبي وأبو ظبي مع الشارقة ، على حين حاولت عجمان ان تثبت استقلالها عن الشارقة بالتحالف مع سيد مسقط ، وفي سنة ١٨٢٤ م نشب نزاع بين السيد سعيد سلطان مسقط وسلطان بن صقر شيخ الشارقة حول واحة البريمي ، التي كانت قد أعلنت اقليماً محايداً في معاهدة سابقة بينهما ، وتفاصيل هذا النزاع قد لفها الغموض ، ولم يعرف ماصار فيها كما ينبغي ، ولكن يبدو أن شيخ الشارقة قام مخطئاً بالاستيلاء على عدة أبراج وقلاع في البريمي ، وقام شيخ أبو ظبي بتشجيع جماعة من قبيلة السودان اللاجئة من الشارقة على بناء قلعة لهم ، بين دبي والشارقة ، وأصبحت هذه القلعة مصدر ازعاج عظيم لشيخ الشارقة لأنه يخشى الشر منها ، وأضافت إلى مشكلة البريمي نوعاً آخر من التوتر أدى إلى قيام نزاع وخصام شديد بين الجانبين كادت تسل له السيوف وتطلق له النيران ، وما ذلك إلا من إثارة الهناوي والغافري ، الذي نادى به الشيطان في أهل عمان ليفرق الشمل ،

ويهلك الحرث والنسل ، وهذا هو غرض بريطانيا الذي ترمي إليه في التقسيم الساحلي ، وأصبحت هي سيدة الكل ، تصلح بين الرؤساء الذين صنعتهم هناك فتكون منة الصلح منها ، ويكون تهديد من شاءت لمن شذ عنها ، فعند ذلك رأى المقيم البريطاني ان من واجبه كسر القوى الساحلية بدعوى الشكوى من المتضجرين ، فجاء الشارقة في ديسمبر سنة ١٨١٤ م فلما رآه الكل اذعنوا ، وقام تسوية للخلاف ، بهدم الأبراج المبنيـــة في ديرة ، وانتقل كل اللاجئين من السودان إلى مكان آخر من امارة أبو ظبي ، لانهم إحدى فرق بني ياس أهل أبو ظبي ، أو إحدى العشائر المحالفة لهم ، كما هو معروف في بني ياس وفروعهم ، وفي فبراير من سنة ١٨٢٥ م وجه المقيم البريطاني انذاراً شديداً بسبب عدم تنفيـــذ مقرراته ، ولم يكن سلطان بن صقر قد اتخذ أية خطوة لتنفيذ هذه الاتفاقية ، ورد الشيـــخ المذكور على المقيم الانجليزي باتهام أعدائه بالتآمر عليه ، وطلب تكوين لجنة ثلاثية يعين هو أحد أعضائها ، ويعين سيد عمان العضو الثاني ، ويعين المقيم العضو الثالث ، وذلك للاشراف على تنفيذ هذا الاتفاق في البريمي ، وفي سنـة ١٨٢٥ م انتهز المقيم الفرصـــة لزيارة مسقط ، فأرسل غلاب انانداس الوكيل الوطني الذي يمثل بريطانيا في هذا الميناء إلى الشارقة على رأس قوة من جنود عمان ، ليشهد تدمير قلاع البريمي ، بتفويض خاص من شيخ الشارقة ، ونشير إلى أن وكيل حاكم مسقط أثناء عودته من البريمي متأخراً ، ذكر أن تأخيره إنما كان نتيجة عقبات وضعها الشيخ سلطان ابن صقر الذي لم يف بوعوده ، والذي يظهر لنا أن سلطان بن صقر رأى

من المقيم البريطاني عدم الاهتمام بالقضايا وسهولة الأمر ، وكان غرض المقيم اثارة العداء بين العناصر الموجودة في هذه الأطراف ، وإلا فكيف يبنى بناء ويعلن نداء ثم يروح على غير فاصل ، وقد أثار ذلك عزيمة الصقر بن الصقر وقام بعمليته التي لا يرى لها غيره رغم العراقيل ، وكانت نتيجة النزاع بين الشارقة وأبو ظبي أن رعايا كلتا الامارتين لم يشتركوا في الغوص وراء اللؤلؤ تلك السنة ولحقتهم بذلك خسارة جسيمة أحس بها الطرفان ، لأن معاش القوم من هذا العمل ، فكان موردهم المروي ، ومصدرهم المشبع ، ومنه غنائم المعروف ، فدفعتهم تلك الخسارة إلى التصالح فيما بينهم ، وفي اكتوبر سنة ١٨٢٥ م اجتمعوا للصلح باشراف السيد سعيد بن سلطان ، سلطان مسقط الذي كان آنذاك على الساحل على رأس اسطول من سفنه ، وكانت الاتفاقية الموقعة بينهم تتجاهل قضايا البريمي تجاهلاً تاماً ، لأن كل واحد منهما لا يحب ذكر البريمي لأغراض مقصودة ، لكنهم اتفقوا على ازالة قلعة ديرة وانسحاب جماعة السودان ، وكان في الاتفاقية نص غريب يوحي بأنه ثمن تدخل السلطان السيد سعيد في المساومة ، وكان يقضي بمحايدة ميناء دبي وذلك بتسليم الدفاع عنه لحاكم مسقط ، غير أن هذا النص بقي حبراً على ورق ، وظلت الاتفاقية كلها هكذا حتى سنة ١٨٢٧ م حين قام السيد سعيد على رأس قوة بحرية بتدمير الدفاع الموجود في ديرة ، لكن الشيخ طحنون عوضه عن ذلك باهدائه كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر ، وحرضه على مهاجمة دبي ، والاستيلاء عليها ، ومن الواضح أن السيد سعيد كان يرى في التصالح بين الشارقة وأبو ظبي خطراً يهدد مصالحه

هو ، ويعرقل نواياه السياسية التي كان يُعدُّ خيوطها منذ عهد بعيد ، وفي سنة ١٨٢٩ م ، وقبل ان يقوم السيد سعيد بحملته الاولى على شرق أفريقيا « زنجبار وتوابعها » خاف ان يقوم اهل الساحل الشمالي من عمان باجتياح الساحل المشار اليه ، لذلك رأى من الضروري ، ربط هذا الساحل بما يحفظ شوارده ، ويرد رائده عما يريد فدعا شيوخ الساحل ومن بينهم إذ ذاك زعيمهم الاكبر سلطان بن صقر الذي يقيم الساحل ويقعده ، فوعدهم كلهم بعطاءات سنوية يتقاضونها ، كل حسب قدره ، وقرر لسلطان بن صقر الفي روبية سنوية ، لأنها كانت في ذلك الوقت ذات قيمة كبيرة ، لكن شيخ الشارقة حاول رغم ذلك ، ان يلقي بكل ثقله إلى جانب المتمردين ، على السيد سعيد ، الذي حاولوا الاطاحة بملكه سنة ١٨٣٠ م — ١٢٥٠ هـ ولم يقف به عند ذلك ، سوى معارضة كبار رجال قبيلته في البداية ، أي ان اعيان جماعته لم يرضوا سياسته ، ثم جاء الانذار من السلطات البريطانية فيما بعد ، ذلك لأن بريطانيا حليفة السلطان تحاول من ورائه أشياء نالتها كما هو معروف ، ومصداق ما تقدم ان السلطان بعد عودته من افريقيا التمس عون سلطان بن صقر في العمليات التي كان يقوم بها آنذاك ضد المتمردين في صحار ، لكن الشيخ نكص عن مساعدته ، وطلب ثمناً لذلك ، ان تسلم اليه دبيّ أو خور فكان ، وأخيراً قام شيخ أبو ظبي بغارة على أرض القواسم ، منعاً لشيخ الشارقة من الاشتراك في هذه العمليات ، سواء إلى جانب السلطان أو إلى جانب أعدائه ، وكان شيخ أبو ظبي يهدف من حركته تلك إلى مضايقة السيد سعيد الذي رفض مساعدته في العمليات التي تقوم بها قواته في صحار ، ربما لمسلك قبيلته بني

ياس في أثناء الحملة على البحرين في سنة ١٨٢٨ م – ١٢٤٨ ﻫ وكان الشيخ الوحيد من شيوخ الساحل الذي وقف إلى جانب السيد سعيد في عملياته على صحار ، الشيخ راشد بن حميد شيخ عجمان المستقلة عن الشارقة ، غير أنه حين هزمت جيوش مسقط ، بادر هذا الحليف إلى الانتقـــال إلى الجانب الآخر ، وبذل جهده في اكمال هزيمة السيد سعيـد ، ولما تجهز السلطان سعيد بن سلطان إلى افريقيا المرة الثانية في سنـة ١٨٣٢ م – ١٢٥٢ ﻫ ، قام الشيخ سلطان بن صقر على الموانىء الشمالية في خور فكان وغاله ، فتولاها ، وكادت ان تسقط في يـــديه شناص لولا أن سفينتين عمانيتين تحملان ذخائر وامدادات من مسقط إلى المراكز الشمالية وقفتا على شناص فتأخرت حركات سلطان بن صقر .

كان سلطان بن صقر من دهاة العرب المعدودين في الساحل الشمالي ، يماشي الرياح كما هي ، دون أن يعارضها خوفاً من أن تقتلع شجر غراسه ، فبينما هو مع سلطان مسقط اذا هو مع شيوخ الساحل ، ثم تراه مع شيوخ الساحل الشرقي ، وآنا تراه مع الزعامة الوهابية ، ومازال الشيخ سلطان زعيما للساحلين العماني والايراني بعد امراء دولة اليعاربة الذين مهدوا الطريق لعمان وأهلها ، ومازال سلطان بن صقر يحاول في الساحل محاولة الملوك ، ففي سنة ١٨٣٢م – ١٢٥٢ ﻫ ، قام على رأس اسطول يحمل عدداً وفيراً من الجنود يتراوح بين الالف والالف وخمسمائة رجل لاحتلال بوشهر بطلب من الشيخ ناصر الذي طرده الايرانيون منها ، فقام الشيخ سلطان بن صقر ، صقر الساحل ملبياً الطلب ، ولكـن بريطانيا كانت تكره القوامم إلى

آخر حد ، ولاتحب تطاولهم إلى شيء ولا ترى لهم مد أيديهم إلى مثل هذه الأعمال ، وكان يحتمل أن ينتج شر عظيم ، لولا أن مستر بلين المقيم السياسي طلب من القواسم الانسحاب بعد أن رأى فشل الشيخ ناصر في بوشهر ، ورأى استحالة استعادتها بالقوة ، والمعنى انـــه اذا تولاها القواسم فانهم يعضون عليها بالنواجذ ولا يسلمونها له وتزيد في سيطرتهم ، وبريطانيا لاترى هذا ، فهدد المقيم سلطان بالرجوع إلى بلاده ، والتأخر عن بوشهر وتعلل له بتعلات هي في نفسها كنسج العنكبوت ، الا ان وراءها بريطانيـا ، فرجع سلطان بن صقر عن بوشهر مرغماً غير راض ، وبريطانيـا تقول لو تسلط سلطان بن صقر لاشتد الشر في البحر ، ذلك لأن القواسم يبقون في البحر ذاهبين آيبين ، فتكثر حوادث البحر التي يسميها الانجليز القرصنة ، والحقيقة ان بريطانيا لها نظر يفعم محيطها ، ويملأ شريطها ، ولولا ذلك لما سادت الاقاليم ، واختلست الممالك ، والكل منا غافل لاه ، فيأخذون الدار بالخدائع لأنها أقوى من المدافع ، ويأتون في زي مسكين يقدمون النعال ، ويخضعون لاولي الامر بالاحتيال ، بصفة لا يظن ظان أن تكون لها عاقبة سيئة ، فكم استلوا من الممالك بقوة الدهـــاء والمكر ، وكم سيطروا على القادة حتى تخلوا عن الامر ، أما غيرها من دول الافرنـج فمنهجها القوة الفعالة التي تسحق الممالك بأسرع وقت ، فلذلك ترى بريطانيا متوسعة في الاقاليم ، متوسطة في الاعمال بين اللين والشدة ، وهذا الامر فاقت به الدول الاخرى ، ويقولون : أن بريطانيا لا تتدخل في الديانات ، وأمر الدنيا هين لين ، والحقيقة أنها ترمي إلى هدم الديانات بصفة غير حادة

محرقة ، بل بصفة سهلة هينة ، تكون عاقبتها انسلاخ المتمدين من دينه ، كما تسل الشعرة من العجين ، وذلك أمر يعلمه كل من أحد النظر في أعمالها ، وكل الذين قرأوا تاريخها في الممالك ، فاذا رأت القوة تجسمت جاءتها بما يرضيها في الظاهر ، ثم تراوغها مراوغة الثعالب حتى تبلغ فيها أهدافها ، وتنال منها غرضها في هدوء واطمئنان ، تسحر به المغفلين أو المقهورين الذين ايقنوا أن لا مخرج لهم عن طاعتها .



١٠ ـ تقلب الاحوال

بالشيخ سلطان بن صقر

لقد قلنا عن الشيخ سلطان بأنه الداهية الدهيا في أيامه بالساحل الشمالي ، فانه لما ضربت رأس الخيمة واندقت عصا القواسم فيها ودمرها الاسطول البريطاني تدميراً كاملا ، كان لا يزال يلتفت يميناً وشمالاً لاعادة قوته وتأييد زعامته ، حتى تراجع أمره وعادت اليه قوته قبل أن تجلو بريطانيا عن رأس الخيمة ، وقد قال الافرنج المباشرون والمطلعون انه حتى قبل جلاء القوات البريطانية عن رأس الخيمة ، كان الشيخ سلطان بن صقر قد أصبحت بين يديه السلطة الرئيسية على القواسم ، وأصبح حسان بن رحمه الذي كان شيخاً لرأس الخيمة من قبل تابعاً له ، ولم يستطع حسين بن علي شيخ الرمس التابع للوهابيين بعد أن تقدم به السن ، ورغم مناصرة قاضب بن أحمد شيخ جزيرة الحمراء له أن يقف في وجه نفوذه ، أي أن الشيخ سلطان عم الشيخين الزعيمين حسان بن رحمه وحسين بن علي الذي كان خاضعاً للوهابيين تابعاً لهم متعلقاً بهم ، أصبح تحت نفوذ الشيخ الصقر سلطان بن صقر ، وفي سنة ١٨٢٣ م ــ ١٢٤٣ هـ وجه الشيخ سلطان بن صقر اهتمامه البالغ للأحوال الداخلية على هذا الساحل وكان نفوذه في ذلك

الوقت لا يرقى اليه نفوذ أي شيخ آخر ، اذ كان النفوذ الحقيقي له دون غيره بما في ذلك غريمه الأول شيخ أبو ظبي ، وكان سلطان بن صقر حينذاك قد عزل حسين بن علي شيخ الرمس ونفاه إلى الشارقة ، وجعل بدلاً عنه محمد بن عبد الرحمن بن أحمد شيوخ الرمس السابقين ، وجعل أخاه محمدا شيخاً لمدينة رأس الخيمة التي أصبحت تشغل مكاناً من الأرض مواجهاً لشبه الجزيرة ، وابقى شيخ ام القيوين عبد الله بن راشد حاكماً لهذا الاقليم باسمه ، ولم يخف على سلطان بن صقر ان بريطانيا لا ترى اقامة قناة سيادة له على أحد ، بل على القواسم ، ولو كان لها طريق موانىء لقامت برد اموره وعرقلة مساعيه ، ومن حيث ان الاتفاقية التي وقعتها كانت تنص على ذلك الشرط ، فقد بدأت تراوغه بلطف لا بعنف ، حتى وصفته بأنه طموح وداهية وكانت لا ترى له عملاً صالحاً إلا عاكسته فيه ، نعم لو كان أحد اذنابها لا نقادت خلفه ، وقادت له كل شارد عنه ، ولكن الرجل عربي قح ، يفهم من أين تؤكل الكتف ، ويدرك مغزى تلك الداهية الدهياء ، وقد رأى منها وسمع ، وهو لا يزال مقتنعاً بماضيه إلا أنه أراد افحامها بحججها التي تحررها ثم تروغ عنها روغانا سافراً ، وبالاضافة إلى قولها انه رجل طموح وداهية ، تقول فيه أيضاً « انه يفوق من حيث القوة والقدرة كل جيرانه » فلهذا لاتريد له أي شيء يكون من شأنه القوة له ، وأضافت تقول أنه من المحتمل أن يكون احكام سلطان ابن صقر لقبضته على الساحل كله في مصلحة الحكومة البريطانية ، نعم انه من مصالحها من نواح عديدة ، منها أنه سيكون لها مسؤول واحد

تقبض عليه بكلتا يديها عندما تبدو بادرة ما ، وانه يكفيها مؤونة الشر في البحر ، إلا أنها لاتأمنه على ذلك ، بل تخاف ان يطول ذراعه ، ولما رأته كذلك قررت أنه يجب أن يكون واضحاً أنه ليس ثمة حاكم مطلق حتى في داخل القبيلة الواحدة ، ومن هنا تقول بريطانيا في وثائقها ان سيطرة الشارقة على سواها من المشيخات لن تكون في أفضل الأحوال سوى سيطرة اسمية فقط ، هذا رأيها فيه ، فانظر في المغزى الذي ترمي اليه ، وكذلك أدت سياسة المقيم البريطاني ، إلى قيام مشاكل كثيرة نتيجة كراهية شيخ الشارقة للسيد سلطان مسقط ، وكانت امارة دبي التي كان يحكمها زايد بن سيف عم شيخها الصغير تابعة لامارة أبو ظبي التي كان عليها طحنون بن شخبوط ، وكانت كلتا الامارتين ـ ومصادرهما عسكرية ورعوية ، أكثر منها بحرية ـ تميلان إلى التحالف مع مسقط ، أما القواسم وقد اتضح للمرة الأولى انهم في وقتها يعيشون في فقر وضآلة في المصادر ، فكانوا لايزالون يعتمدون في بناء سفنهم على الأخشاب التي تأتيهم من الهند ، وفي تسليحهم وذخيرتهم على ما يجلبونه من البحرين ومن الموانىء الايرانية في أسفل الخليج ، ومن مسقط أيضاً ، وأسلحتهم معظمها من المصنوعات الأجنبية ، ولم يكن أحد من الشيوخ ليملك أكثر من ثلاثة قوارب أو أربعة ، إلا سلطان بن صقر الذي كان يمتلك حوالي ثلاثين سفينة جيدة ، تستطيع كل منها أن تحمل عدداً يتراوح بين خمسين إلى مائة رجل .

وكان من المعتقد أن معظم هذه السفن قد مضت عليها أكثر من ثلاث

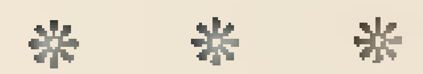
سنوات ، وان الشيخ قد استطاع بطريقة من الطرق أن يخفيها ولا يسلمها للحملة البريطانية سنة ١٨٢٠ م - ١٨٤٠ هـ ، كما انه في سنة ١٨٢٤ م - ١٢٤٤ هـ مات الشيخ قضيب بن أحمد شيخ الجزيرة الحمراء ، وكان خليفته القاضي الشرعي ، فقام اليه الشيخ سلطان بن صقر فعزله وجعل بدلاً عنه رجلاً أكثر موالاة للشيخ المذكور الصقر القاسمي ، اسمه أحمد بن عبد الله ، ولما رأى شيخ عجمان ذلك ، أعلن خضوعه للشيخ القاسمي ، وفي سنة ١٢٤٥ هـ تمكن الشيخ سلطان بن صقر من امارة دبي وحقق نفوذه فيها اذ تزوج من شقيقة الشيخ الصغير ، وكانت لديه خطط في السيطرة بارعة ، تقضي بالفعل على الامارة المذكورة ، فقربها من عاصمته خائفاً وقوعها في أيدي أعدائه ، على أساس أن ذلك يعتبر أمراً بالغ الخطورة بالنسبة له ، وكان سلطان بن صقر صاحب وعي وتفكير ، ففي سنة ١٢٥٣ هـ اعطى الصلاحيات الكاملة لشيخي عجمان وام القيوين ، وكان الشيخ القاسمي حذراً واعياً يرى الأمور بالمعيته ، وفي نفس الوقت بدأت مدينة رأس الخيمة تنشأ من جديد في مكانها الاصلي وغدت تدب فيها الروح ، واستخدمت انقاض المدينة لبناء المدينة الجديدة ، واقيم السور الذي كان يقطع الخليج من ناحية البر مرة اخرى ، وكذلك اقيم برج مربع على آثار التحصينات القديمة » قال المؤرخ : ليس من الضروري هنا أكثر من إشارة سريعة إلى الحروب التي قامت بين الشارقة وأبو ظبي نتيجة مشكلة البريمي ، وديرة في سنة ١٨٢٩ م - ١٢٤٩ هـ ، وفي فبراير من نفس تلك السنة كان سلطان بن صقر ساخطاً للتواطؤ الدائم ضده ، بين سيد مسقط وشيخ أبو ظبي ، فانتهز فرصة فشل حملة هذين الحاكمين

المشتركة على البحرين ، واتجه نحو أبو ظبي ، لكن احتمال الحرمان من موسم الغوص التالي كان أمراً يخشاه كلا الطرفين ، وعلى ذلك عقد الصلح بينهما بعد وساطة محمد بن قضيب شيخ لنجة ، لأن الغوص أصل في حياتهم في ذلك العهد ، ومنه مستغلاتهم ومعاشهم ، ويدر عليهم الخيرات الكثيرة وبه يتطاولون ، وعليه يعولون ، فاذا وقعت الحرب التي تمنعهم منه أصبحوا في مجاعة وفقر لا مثيل لهما ، ولم تحدث بين الأطراف المتنازعة أية عمليات عسكرية خطيرة جديرة بالذكر .

١١ ـ الشيخ سلطان بن صقر
وافتراق بني ياس

لقد وقع بين بني ياس أنفسهم اضطراب وتلاش ، وفتن ومنازعات أدت إلى افتراقهم وانقسامهم ، واغرى بينهم الشيطان ، فتنا أهليـة حتى هاجر آل بوفلاسه وهم فريق من بني ياس إلى دبي ، مستبدلين بها موطنا بعد أبو ظبي ، وذلك في ١٨٣١ م – ١٢٥١ ه فلما رأى الشيخ سلطان بن صقر ذلك ، ونجدة لآل بوفلاسه ، أعد حملة مشتركة توجهت نحو أبو ظبي ، وبعد ظهر اليوم العاشر من شهر سبتمبر ١٨٣٣ م – ١٣٥٢ ه نزل الجيش القاسمي وحلفاؤه إلى الأرض في موقع يبعد حوالي أربعة أميال عن أبو ظبي ، آملين أن يجدوا المدينة خالية من السكان فيستولوا عليها في الصباح دون مقاومة ، والمعنى أنهم كانوا يتوقعون أن نبأ هذه الحملة قد بلغهم ، وأنهم قد فروا من المدينة ، خوفاً من هـذا الزحف المتحمس القـائم على كواهل آل بوفلاسه سكان البلاد سابقاً ، إلا أنهم وجدوا أن القوم قـد تحصنوا ووضعوا المتاريس .. وأخيراً تم الصلح سنـة ١٨٣٤ م ، « أي بقيت الأزمة نحو سنة كاملة » وذلك أن شيخ لنجة توسط في الصلح بين الطرفين ، بعد ما ذاقوا مرارة البلى والنكد ، وعتق النفوس ، وغطرسة

الجهل ، كان الصلح على أن يعيد شيخ أبو ظبي كل السفن التي استولى عليها ، منذ بدء الحرب بشرط أن يرفع الشيخ القاسمي حصاره عن المكان ، وانتهت الأزمة في الحال ؛ وهدأت النفوس ، وأرسل الشيخ خليفة شيخ أبو ظبي أباه الشيخ شخبوط ، مبعوثا عنه إلى الشارقة باقتراحات السلام ، وأخيراً تم التوصل إلى اتفاقية ثابتة ، وفيما يتعلق ببني ياس المقيمين في دبي فقد تم اعتبارهم رعايا تابعين لشيخ الشارقة ، هذه الحرب العنيفة المجهدة ، ربما كانت أعنف حرب دارت بين شيوخ ساحل الصقور ، وأدت بلاشك إلى نتائج ممتازة تمهيداً لعقد الهدنة البحرية الأولى في سنة ١٨٣٥ م — ١٢٥٥ هـ .



الفصل الخامس

١ ـ الفترة من الهدنة البحرية الاولى الى معاهدة السلم الدائمة من سنة ١٨٣٥ م الى سنة ١٨٥٣ م

٢ ـ القواسم والتهادن الساحلي

٣ ـ الاحداث التاريخية العامة باسم القواسم

٤ ـ الانجليز يخلقون الاضطرابات في المنطقة

٥ ـ بريطانيا تحيك الفتن بين القبائل للتلاعب بها

٦ ـ الاحوال المحلية في الامـارات الساحليـة نتيجـة ايقـاع الاستعمار بين الزعماء

٧ ـ معاهدة الصلح الدائم

١ ـ الفترة من الهدنة البحرية الاولى
إلى معاهدة السلم الدائمة
من سنة ١٨٣٥ إلى سنة ١٨٥٣م

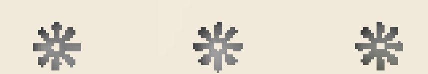
في سنة ١٨٣٥ - ١٨٣٦م ظهر فشل اتفاقية سنة ١٨٢٠ في تحقيق السلم الدائم في الخليج ، وتبين تماماً عدم كفاية اتفاقية السلم العامة لتحقيق السلام في البحر ، فهي لم تنص على منع الحروب البحرية ، واثبتت التجربة في منطقة الخليج أن ما يبدأ كحرب بحرية لابد أن ينتهي إلى حرب اخرى من أسوأ أنواع الحروب الساحلية ، ويبدو أن الجميع حتى الشيوخ أنفسهم قد أحسوا بالحاجة إلى إيجاد مزيد من القيود ، وقد ألح شيخ الشارقة سلطان بن صقر في سنة ١٨٢٧م وشيخ البحرين سنة ١٨٢٨م على ان المادة الرابعة من الاتفاقية تمنح الحكومة البريطانية حق منع الحروب البحرية مهما كانت طبيعتها بين العرب المتصالحين ، لكن هذا الاقتراح قوبل من جانب السلطات البريطانية بالفتور نظراً لتمسكها بحرفية الاتفاقية ، قلت : لا بل نظراً إلى أن حرب العرب فيما بينهم تعدها بريطانيا من مصالحها الكبرى ، وتود دوامها إلى حد بعيد .

ونشير هنا إلى أن ما نصت عليه الاتفاقية من ضرورة اصدار « أوراق خاصة » للسفن وتسجيلها ، قد ثبت أنه غير عملي ، لذا لم يعد يطبقه أحد ، هذا إلى جانب أننا قد رأينا أن هذه الاتفاقية يساء فهمها وتفسيرها في أحيان كثيرة ، وهي غير عملية أيضاً في أحيان أخرى ، أقول : من هنا يتبين للمفكر ماتقصده تلك الحية الحمراء – الحكومة البريطانية – التي كانت حتى ذلك العهد لاتود أن تتحمل مسؤولية منع الحروب في البحار خاصة ، لأنها كانت تعتقد أن هذا التدخل من جانبها قد يؤدي إلى الاخلال بالتوازن القائم بين الامارات البحرية المختلفة من ناحية ، وتلك التي تعتمد على القوة العسكرية البرية من الناحية الاخرى ، وفي سنة ١٨٣٤ م قرر مجلس المديرين صراحة أنه من غير المفيد على الاطلاق « حتى ولو كان ذلك بدعوة مباشرة من الشيوخ أنفسهم ، ان تغرس بريطانيا أي نوع من أنواع الحماية على هذه الامارات أو تفرض عليها أي نوع من السلطة المباشرة ، ورغم ذلك ظلت السلطات البريطانية التي كانت ترى نفسها ببساطة بمجرد طرف قيادي في تحالف بحري ، للقضاء على صقور البحر ، تقف بكل جهودها إلى جانب السلام الذي تزعمه أو الذي تريده ، بل انها ظلت فترة من الزمن تلتزم قاعدة ، ان العمليات العدوانية على شواطىء اللؤلؤ في أثناء موسم الغوص إنما هي أعمال قرصنة كما تدعيها وتطنطن بها ، وفي الحقيقة إنما هي أعمال حربية بين القبائل التي تغرى بينها لتثير حماسها على بعضها البعض وهي تنسج خيوط المؤامرة وتحيك سداة الشر بينهم ، وبذلك تصطاد كل الامم التي تحاول السيطرة عليها فلسانها عسلي ، وقلبها ثعلبي ،

واختلاسها لايحتاج إلى ذكر ، بل هي تقوم بسل الشيء الذي تريده من بين الأصابع ، وان كان فيه بعض المنافع فهي أشبه بمنفعة الخمر للمسلم ، أو بمنفعة الكي للجسم ، وقد أكدت بريطانيا ضرورة الالتزام باتفاقية السلم الشاملة على أن يشمل ذلك شيوخ تلك الامارات التي لم توقع عليها ، أي هي تفرضها على الكل ، لأن عندها المدفع والبواخر الحربية والمدمرات القوية ، ولهذا فهي تلتزم في سبيل مصالحها كل شيء تراه في صالحها ، والقوي هذا شأنه ، وقد أشارت إلى الذين لم يوقعوا على المعاهدة المشار اليها ، كأهل القطيف والكويت ، وقد انتهز كابتن س هينيل المقيم العام في الخليج فرصة عقد الاتفاقية التي أشرنا اليها من قبل ، مع بني ياس ، فوجه الدعوة إلى عدد من الشيوخ الكبار في المنطقة للاجتماع ، هم أو وكلاؤهم ، في باسيدو ، وبعد مضي فترة طويلة من الجهود المبذولة لتسوية مزاعم بعضهم ضد البعض الآخر ، اقترح عليهم كابتن هينيل الموافقة على هدنة بحرية تستمر طوال موسم اللؤلؤ ، الذي أصبح على الأبواب ، وحين لقى هذا الاقتراح موافقة الجميع عقد اجتماع آخر ذو صفة أكثر رسمية في مقيمية بوشهر بتاريخ ٢١ ابريل سنة ١٨٣٥ م وتم التوقيع على وثيقة اتفاق بين شيوخ الشارقة ودبي وعجمان وأبو ظبي ، تعهدوا فيها جميعاً بالمحافظة على هدنة بحرية تبدأ اعتباراً من يوم ٢١ مايو وتستمر حتى ٢١ نوفمبر من السنة نفسها ، وخلالها تؤجل جميع المزاعم والدعاوى ، كما تعهد الشيوخ بأن يقدموا التعويضات عن رعاياهم الذين يخرقون هذه الهدنة . وبعدم الرد في حالة وقوع أي اعتداء على رعاياهم والاكتفاء برفع الامر

إلى السلطات البريطانية السياسية أو البحرية ، وكان المقيم من جانبه حريصاً على ان يشرح لهذه الأطراف قبل توقيع الاتفاق ، ان أي خرق للهدنة مادام قد تم الاتفاق عليها سيعامل معاملة القرصنة وأنه لا أهمية في هذه الحالة بوجود حرب برية أو عدم وجودها ، وقد استقبلت هذه الهدنة بالبهجة والارتياح من جانب جميع المهتمين بالغوص وراء اللؤلؤ ، وكان هؤلاء في بعض الاحيان يمثلون غالبية السكان أو جميعهم ، وتتضح لنا أهمية ما قام به الكابتن هينيل ، من ان بعض تجار اللؤلؤ في الشارقة سبق أن عرضوا على الحكومة البريطانية دفع مبلغ ٢٩ جنيهاً عن كل قارب غوص وراء اللؤلؤ ، على ان تضمن هـــذه الحكومـة سلامته في البحار ، واعتباراً من سنة ١٨٣٨ م أصبح اسم عمان المتصالحة انسب الاسماء لما كنا نعرفه بساحل القواصنة ، قلت : ان التبديل والتغيير أصبح من حق بريطانيا التي تفعل ما تشاء ، وتحكم كيفما تريد ، والحقيقة ان الاسلام الاستعمار ضدان ولكل قوى صبغته وأعماله ، ولكل نفوذ طريقه ، والقواسم وجميع أهل الساحل الشمالي قد أدوا واجبهم في حماية أوطانهم ، والعـــدو القاهر ، لا يقدرون على ازالته حتى ازاله الله عزّ وجل في هذا العهـد الذي نحن فيه ، ولكل شيء غاية ينتهي اليها ، وكل شيء مرتهن بوقته ، وقد اطلق على المنطقة اسم عمان المتصالحة ، وبالتالي على الشيوخ اسم الشيوخ المتصالحين ، وقدم كابتن هينيل اقتراحاً جديداً تقبّله الشيوخ تقبلاً حسناً ، يهدف إلى حماية التجارة المحايدة ، وتخصيص جانب من الخليج من الناحية الشرقية ، تحظر فيه الحروب القبلية ، حتى ولو لم تكن ثمة هدنة قائمة ، وبناء على

توصية كابتن هينيل ، وافقت حكومة بومبي على منع القوارب العربية من التجول في مياه الساحل الايراني ، لمسافة أبعد من الجزر العربيــة بوموسى ، وصيري ، لكن ميجور موريسون الذي خلف كابتن هينيـل استطاع اقناع الشيوخ المعنيين باستبدال هذه الجزيرة بجزيرة صيرنوبعير ، وبهذا انتقصت المساحة المحددة للاضطرابات البحرية من جانب شيخ البحرين ، وأصبح الخط المانع يمر بجزيرة حالول التي تبعـد عن رأس راكان عشرة أميال ، وبجزيرة قوير ، إلى رأس الزور ، على الساحل بالقرب من الكويت ، ولم توقع اتفاقية رسمية بشأن هذا الخط ، ولا كان مطلوبا توقيعها .



٢ ـ القواسم والتهادن الساحلي

لا يخفى أنه خلال الثمانية عشر عاما التي تلت التوقيع على اتفاقية الهدنة البحرية الاولى ظلت العلاقات بين (شيوخ عمان المتصالحة) والحكومة البريطانية ، والعلاقات بين أحدهم والآخر في البحر تلتزم بنصوص اتفاقية سنة ١٨٢٠ م إلى جانب عدد من اتفاقيات الهدنة البحرية تشبه في حدودها تلك التي عقدت في عام ١٨٣٥ م ، فالهدنتان الثانية والثالثة ، وقعتا في ١٣ ابريل سنة ١٨٣٦ م ، و ١٥ ابريل سنة ١٨٣٧ م ، على التوالي ، ولم تكن فترة الواحدة منها تزيد على ثمانية شهور ، لكن الهدنة الرابعة التي عقدت في سنة ١٨٣٨ م حددت مدتها بناء على اقتراح الشيخ سلطان بن صقر بمدة سنة كاملة ، وبعدها ظلت الهدنات السنوية تعقـــد في كل من أعوام : ١٨٣٩ ، ١٨٤٠ ، ١٨٤١ ، ١٨٤٢ م على التوالي ، واقترح الشيخ سلطان ابن صقر الشيخ الكبير في الساحل المتصالح ، عقد هدنة دائمة في البحر سنة ١٨٣٧ م ، وقد اهتمت حكومة بومبي بالأمر ، وفي سنة ١٨٤١ م أفصحوا جميعاً عن الرغبة في استمرار الهدنة أكثر من عام واحد ، إذا أمكن ، ورغم ان الشيوخ على وجه العموم لم يعارضوا في ان تطول فترة الهدنة ، إلا أن المقيم العام كابتن هينيل داخله الشك في امكان نجاح أي

تغيير يدخل على هذا النظام ، وخشي ان يكون طول المدة قيداً على الرغبة في الانتقام عند العرب ، في حال تعرض مصالحهم للخطر ، يؤدي بالتالي إلى انهيار المخطط البريطاني كله ، وتوقع أن يكون هذا النظام في مصلحة القواسم الذين كانت لهم الغلبة في البحار ، لكنهم كانوا يعانون كثيراً من الغارات البرية على أرضهم . ثم ان الخلافات والمشاكل التي كان من المعتاد ان يحسمها السيف من قبل لابد وان تحل بطريقة سلمية ، وفي هذا من الارهاق للسلطات البريطانية مافيه ، فهي التي تضمن استمرار هذا التهادن ، وأخيراً عهدت الحكومة بالمسألة كلها إلى خبرة الكابتن هينيل وكفاءته ، وقد حقق الكابتن هينيل الآمال المعقودة عليه ، فبدأ يفاوض الشيوخ في عقد هدنة بنفس الشروط السابقة لمدة لاتزيد على عشر سنوات ، تبدأ في أول شهر يونيو سنة ١٨٤٣ م ، وحتى بالنسبة لشيخ القواسم ، بدا أن اغراء موسم الغوص ، الذي لاتتهدده الأخطار سنة بعد أخرى كان أكثر جاذبية من تلك الغارات الموسمية ، وكان الهدف النهائي لهذه الهدنات البحرية من وجهة نظر السلطات منع القرصنة كشيء متميز تماماً عن العقاب الذي حددته اتفاقية سنة ١٨٢٠ م لمن يرتكبها ، وعلى هذا الاساس اعتبرت الهدنة الأخيرة شيئاً مكملا للهدف الأساسي ، وهو منع القرصنة ، كما كانت نتيجة الهدنات البحرية السابقة ، في الحدود المقررة لها ، أما الخطر الذي كان يثور من وقت لآخر بسبب احتمال قيام عدوان بين امارة موقعة على هذه الهدنات ، واخرى غير موقعة ، فلم يتخذ شكلا محدداً وفعلياً. لقد نجحت السلطات المحلية البريطانية نجاحاً تاماً ومطلقاً في اقناع الشيوخ والزامهم الزاماً حازماً بالهدنة ، وثمة نقطة ثار حولها الخلاف أكثر من مرة

في السنوات الاولى لتوقيع الهدنات البحرية وهي حالات الاعتـداء الذي يقع من جماعة تقيم على البر على ملاحي القوارب التي خرجت للصيـد ، فجنحت قواربهم أو ركنت إلى الشاطىء نتيجة الجزر ، وكان هذا يحدث في أغلب الحالات ، والسفن بعيدة نسبياً عن الموانىء التي خرجت منها ، وقرر المقيم ووافقه الشيوخ على أن مثل هذه الأعمال تعتبر من قبيـــل الحروب البرية ، وبالتالي لا تشملها نصوص المنـــع الموجود في الهدنات البحرية ، ولم تنقطع حوادث الاعتداءات التافهة التي يقوم بها قارب على قارب آخر في شواطىء اللؤلؤ ، وكان السبب في معظم هذه الحالات هو هرب بعض الغواصين وسواهم من العاملين في صيد اللؤلؤ ، والمدينين لأحد الشيوخ في منطقته ، واللجوء إلى شيخ آخر ، وكانت هذه الحالة تأخـذ دائماً شكل محاولة القبض على هذا المدين أو سداد دينه من القارب الذي يعمل عليه ، أو القبيلة التي يحتمي بها ، وكانت تسوية هذه الخلافات أمراً دقيقاً وشائكاً ، لأن السلطات البريطانية في هذه الحالة ملزمة بأن تتدخل إلى أبعد الحدود في الشؤون المحلية ، وتقضي بذلك على خط أمان هام ، لعدم اضطهاد رعاياها عن طريق هؤلاء الشيوخ ، وبذلت جهوداً كثيرة لاقناع الشيوخ بالاتفاق حول هذا الموضوع ، بعيداً عن أي ضمان من جانب السلطات البريطانية ، بالتزام ما يتفقون عليـه ، لكنهم فشلوا ، وكان السبب في ذلك تردد بعض العرب في ان يسلموا مهما كانت الظروف ، هؤلاء الذين اختاروا اللجوء اليهم ، ونتيجة تصور كل من هؤلاء الشيوخ ان بلده أكثر اغراء وجاذبية للاغراب وانه سيكون الخاسر لو قيـدت عملية الهجرة ، ولم يكن الوقت قد حان بعد لحل هـذه المشكلة التي لم

تحل إلا في سنة ١٨٧٩ م ، والآن نستطيع ان نسجل تلك الانحرافات عن اتفاقية السلم سنة ١٨٢٠ م والهدنات البحرية التالية ، ولا داعي لأن نميز في هذه الأعمال بين هاتين الفئتين ، فكل الأعمال على السواء ليست سوى أعمال قرصنة ، غير أن اقل تلك الأعمال خطورة هي التي حدثت في السنوات التالية لتوقيع اتفاقية السلم مباشرة ، وفي سنة ١٨٣٧ م وقعت حادثة قرصنة عادية على قارب ينتمي لبندر عباس وقد ارتكبتها جماعة من قريه الفجيرة ، لكن شيخ الشارقة أرغمهم على رد ما نهبوه اذ كانوا من رعاياه ، ومثل هذه الأحوال تقع في عمان الداخلية خصوصاً في ذلك العهد ، فالنهب والقتل والاهانة وتوقيع العقوبات على المارة في الطرق والقوافل الساعية كثير ، وكذلك في الحجاز ، وأظن أن ذلك الجيل كله لم يزل مغموراً بالحوادث من هذا النوع ، ويرجع ذلك إلى عدم انصاف الحكومات ، وقلة الانصاف تثير الشر وتستثير أهله طبعاً ، وبذلك ينتشر الفساد في الأرض ، والله المستعان .

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة ... بين الرجال وان كانوا ذوي رحم

قال : وفي سنة ١٨٣٨ م هوجمت سفينة من سفن الخابورة التابعة لسطنة مسقط ، من قبل سفينة تابعة لمشيخة دبي ، وأرغمتها على أن ترسي في بركا ، ولما هبط الظلام اقتحموا السفينة في مرساها ببركا ودارت الحرب بين الطرفين ، وقد قتل رجلان وجرح ستة ، وقامت السلطات البريطانية على شيخ دبي ، الذي قام بدفع التعويضات عن الاصابات والديات أيضاً ، وفي سنة ١٨٤٠ م وقعت بعض الحوادث على شواطىء اللؤلؤ ، وفي مواقع

اخرى بين رعايا دبي وأبو ظبي ، وبين رعايا الشارقة وأبو ظبي أيضاً ، لكنها لم يقع فيها قتل ، وانما هو نهب وعراك وترويع وأخذ ورد بين الأطراف ، وضوضاء ، واستطاع المقيم البريطاني اصلاحها جميعها تبعاً للهدنات البحرية المقررة ، لكن الأكثر خطورة من هذه الحوادث ، حادثة هجوم ابن عسكر ، وهو من متمردة القبيسات من بني ياس ومعه جماعة شايعوه ، وحاولوا القيام بغزو سفينتين يملكها بنو ياس وتحملان كمية ثمينة من اللؤلؤ ، ولم يلب شيخ دبي طلب السلطات البريطانية بتسليم بن عسكر لشيخ قبيلته ، قلت : لانه يرى أن أحوال بريطانيا أشبه باللعب ، دون أن تكون أحوال جد وفصل خصام بين الاطراف ، وتحب بريطانيا ان تنظر إلى الاطراف التي تختلف مع بعضها البعض ، وفي ذلك صلاحها لا أعاد الله ذلك على الامة العربية حتى آخر الدهر ، كما ان شيخ دبي ، طولب في نفس الوقت أيضاً ، بدفع تعويض عن قارب تابع لابي ظبي وجده بعض رعاياه الذين كانوا يقومون برحلة برية جانحاً في مضيق صغير فاستولوا عليه انتقاماً لغارة برية ، كان بعض رعايا شيخ أبو ظبي قد قام بها عليهم ، وفي سنة ١٨٤١ م أصر شيخ دبي على رفض دفع التعويضات المطلوبة منه ، والتي كان بعضها مستحقا عن تلك الحوادث على شاطيء اللؤلؤ ، فارسلت اليه بريطانيا اسطولاً يقوده القائد بريكس ، ويضم الفرقاطة البخارية ، سيزوستريس ، وبعد أن أطلقت المدافع من قياس(٨) بوصة بعض طلقاتها على المدينة ، أعلن الشيخ استعداده لدفع مبلغ أربعمائة جنيه كتعويض بالاضافة إلى رد السفينة التي عاد بها ابن عسكر من أبو ظبي ، وما كان عليها ، وفي نفس السنة قام القراصنة بنهب سفينة يملكها

أحد وجهاء بني عمير في الحسا خلال رسوها قرب جزر البحرين ، وقتل أحد بحارتها وجرح عدد آخر ، ولما كان القراصنة رجالاً من المناصير ، وبنو ياس من الهوامل ، فقد طولب شيخ أبو ظبي بدفع التعويض ، وقام الشيخ فوراً ببعض العمليات التي اشترك فيها بنفسه ضد هــذه الجماعات المعتدية ، ونتج عن هذه العمليات برغم بعد المكان ، تدمير أحد قواربهم ، والقاء القبض على خمسة من الرجال المشهورين بالعنف ، مع عائلاتهم ، وحوالي خمسين بعيراً ، وفي سنة ١٨٢٤ م أمر رجــل من القواسم رجلاً من قبيلة بني كعب ، كان على قارب لدبي في ساحل اللؤلؤ ، وقام بعض الرجال من دبي بالانتقام ، فنهبوا سفينة تابعة للشارقة ، غير أن مكتوم بن بطي شيخ دبي الذي أصبح مناصراً للسياسة البريطانية ، استنكر هذا العمل وأمر برد المسروقات ، وبعد أن أوقع العقاب اللازم بالقراصنة أمرهم بأن يتعهدوا لوكيل المقيمية البريطانية في الشارقة بحسن السلوك ، وقد أدت حادثة الرجل الكعبي هذه ، بالاضافة إلى عدة حوادث أخرى ، وقعت في أثناء موسم الغوص ، إلى قيام المقيم البريطاني كولونيل هينيل ، بالبحث عن الوسائل الكفيلة باحترام هدنة السنوات العشر ، التي وقعت مؤخراً من جانب رعايا شيخ الشارقة الذين ارتكبوا هذه الاعمال ، وبالنظر لمسايرة الشيخ سلطان بن صقر لما يطلب منه ، فقد تعهد هؤلاء بحسن السير في المستقبل ، وفي سنة ١٨٤٥ م وقعت حادثة تصور لنا إلى حد كبير تطور روح النظام والانضباط بالنسبة للمسائل البحرية بين شيوخ عمان المتصالحة ، وذلك ان سفينتين محملتين بالارز ، كانتا في طريقهما من لنجة إلى الشارقة ، ارغمتها عاصفة عاتية على اللجوء إلى خور عجمان ، فغرقت

احداهما ، أما الاخرى فقد استطاعت الوصول إلى الميناء الداخلي بعد أن ضحت بجانب من حمولتها ، وكان يمكن أن تنهب السفينة في ذلك الوضع ، لولا يقظة الشيخ عبد العزيز شيخ عجمان وشقيقه ، حيث جردا سيفيهما ووقفا إلى جانب السفينة ، بعد أن أقسما على قتل أول رجل يتعرض لها أو لحمولتها ، وقد تلقى الشيخ عن طريق المقيم البريطاني ، شكر الحكومة البريطانية وثناءها عليه لهـذا التصرف ، وفي خلال سنة ١٨٤٩ م وسنة ١٨٥٠ م كان بين أهل أبو ظبي ودبي عدد من المطالبات والدعاوى نتيجة استيلاء بعضهم على العبيـد الذين يمتلكهـم البعض الآخر ، لكن هذه الدعاوى جميعاً قد سويت بمساعدة المقيم البريطاني ، وفي خريف سنة ١٨٥٠ م حدثت حادثة خطيرة ، وغير مألوفـة في ذلك الوقت ، وهـي استيلاء بعض رعايا أبو ظبي على قارب للعامرية ، وقد قتل اثنان من الرجال كانا على ظهره ، وعلى الفور أرسلت السفينتان (تيجرنم ماتزر ، وأبو فريقس) بقيادة الملازم ترتسون إلى مدينة أبو ظبي وطلبتا إلى الشيخ دفع التعويضات ، بعد أن وقفتا على مبعدة من المدينة ، مع انه لم يكن من المباح القيام بعمليات في أبو ظبي ، إلا أن المناورة حققت أهدافها ، فدفع الشيخ دية القتلى والتعويض ، حوالي ستمائة جنيـه ، بالاضافـة إلى ارجاع القارب مع محتوياته .

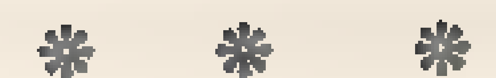
* * *

٣ ـ الاحداث التاريخية العامة

باسم القواسم

تقع الأحداث العامة في البحر مقرونـة على الأغلب باسم القواسم ، فما كان منهم بالذات فهو معلوم ومعروف ، وهم مسؤولون عنه ، أما ما كان من غيرهم فيضاف اليهم ، أو يظن أنهم أصحابه ، أو وليد تخطيطهم ، كما يزعم المؤرخون ، وقد وقعت حادثة في مياه زنجبـار ، حيث قامت سفينة يملكها رجل من أهل رأس الخيمة بالاعتداء على قارب تابـع لزنجبار في ربيـع سنة ١٨٥٢ م – ١٢٧٢ هـ ، لكن بطء الاتصـال في ذلك الوقت بين بوشهر وشرق أفريقيا بسبب عدم وجود البرق والطائرات والتلغراف ، أرجأ حسم هذه القضية ، وحتى حين عقدت معاهدة السلم الدائم في سنة ١٨٥٢ م لم تكن القضية قد سويت بعد ، وقد تعلل شيخ رأس الخيمة في البداية ، بأن كل الذين كانوا على ظهر السـفينة التي ارتكبت الجريـمة هم من القبيسـات في الباطنة ، ويعتبرون بالتالي من رعايا مسقط ، ولـكن يبدو أنه قد وافق في النهاية على دفع التعويض ، كذلك أيضاً ماحـدث في ربيـع سنة ١٨٥٢ م اذ استولى أهل مدينة أبو ظبي على قارب يملكه

بنو ياس المقيمون وقتذاك في الدوحة بقطر ، ويحمل مسافرين إلى دبي ، وسلبوا منه كل ما كان فيه ، ولم يعتبر هذا العمل عملاً مشروعاً لممارسة السيادة على رعايا متمردين بل اعتبر خرقاً للهدنة البحرية ، وعلى هذا طولب شيخ أبو ظبي بالتعويض ، وقد خضع لمطالب المقيم البريطاني التي حملها المقيم القائد روبنسون .



٤ - الانجليز يخلقون الاضطرابات في المنطقة

قلق الانجليز بعد أن رأوا الهدوء يعم بين الشيوخ المتصالحين الذين كانوا تحت اشارة بريطانيا ، والتزموا بالاتفاقيات المعقودة ، فدسوا الدسائس ، ومدوا خيوط الخلافات ، ويبدو أن الاتصالات العادية بين المقيم البريطاني والشيوخ المتصالحين كانت تتم في ذلك الوقت عن طريق الوكيل الوطني للمقيمية الذي جعل مقره بالشارقة ابتداء من سنة ١٨٢٨ م ، وكان نجاح هذه الاتصالات يعتمد على كفاءة الوكيل الملا حسين الذي كانت علاقته ودية لأبعد الحدود ، بالشيخ صالح شقيق الشيخ سلطان بن صقر ونائبه في الحكم بمدينة الشارقة حتى سنة ١٨٣٨ م حين عزل ، لهذا اسفت السلطات البريطانية لعزله عن عمله كثيراً ، وفي سنة ١٨٥٢ م كانت العلاقات بين شيخ الشارقة ، ووكيل المقيمية البريطانية حاجي يعقوب غير طيبة ، إذ كان الشيخ قد وجه اليه اهانات أكثر من مرة ، وذلك لأن بريطانيا تركز على مصالحها ، وتستخدم الاجناس المباينة لها ، مثل بلوشي أو عجمي ، أو نحو هذا النوع من الرجال ، ليكون أداة طيعة لمد خيوطها ،

وعلى هذا النحو تمشي في المناطق العربية دائماً ، وكان الرجل المشار إليه ينقل اليها الاخبار عن الأحوال العربية فيرى منه الشيخ واتباعه مايسوءهم ، إذ لاقوا من تجسسه وحقده ضدهم وهو الأعجمي المعادي بطبعه للعرب ، أكثر مما لاقوه من اهانات في المعاملة الظاهرة ، وقد كلفته بريطانيا بهذا العمل حتى تبني عليه أغراضها ، وفي هذه الاثناء دفع الشيخ سلطان بن صقر لهذا المقيم تعويضات عما أصابه من تلك الاهانات ، وكانت العلاقات بينهما قد وصلت إلى درجة كبيرة من السوء والتوتر ، وكان من أسباب ذلك بعض التحريات التي قام بها وكيل المقيمية عن تجارة العبيد ودور الشيخ فيها ، وبعدها أصدر مجلس المديرين أوامره بأن التعويضات المستحقة لرجال من رعايا شيخ الشارقة يجب أن لاتدفع لهذا الشيخ في المستقبل ، وقد جاء هذا الامر على خلاف توصيات المقيم التي تشير من طرف خفي إلى الاتهام الذي كان الشيخ قد وجهه إلى وكيل المقيمية من بين اتهامات اخرى ، في أنه لا ينفق النقود في الاوجه المخصصة لها ، وكانت المادة التي تتعلق بالاتجار بالرقيق في معاهدة السلم العامة قد عززت بثلاث معاهدات تالية وقعت مع الشيوخ المتصالحين ، وقعت أولها في سنة ١٨٣٨ م وتخول سفن الحكومة البريطانية الحق في احتجاز أو تفتيش أي سفينة تابعة لموانيء الشيوخ الموقعين على المعاهدة ويشتبه في انها تحمل الرقيق أو تنقلهم ، وتفوضها أيضاً في الاستيلاء على تلك السفن ومصادرتها في حالة تحقق هذه الشكوك ، ويبدو ان شيخ ام القيوين لم يشترك في توقيع هذه المعاهدة ، اما المعاهدة الثانية فقد وقعت في سنة ١٨٣٩ م ومنحت حقوقاً مشابهة في الاحتجاز والتفتيش بالنسبة لمساحة كبيرة من المحيط

الهندي ، لتلك السفن التي يشتبه في انها تحمل الرقيق ، ومنحت السفن البريطانيـــة حق مصادرة جانب من حمولة السفينة التي يثبت أنها تحمل الرقيق ، ومن الواضح ان شيخ عجمان قد رضي بهذه الاتفاقية ووقع عليها ، أما المعاهدة الثالثة والأخيرة فقد وقعها جميع الشيوخ المتصالحين في سنة ١٨٤٧ م وكانت تمنع جلب العبيد من شواطىء أفريقيا أو من أي مكان آخر على سفن يملكها الشيوخ الموقعون على المعاهدة أو رعاياهم أو أنصارهم ، كما أنها منحت السفن البريطانية حق احتجاز السفن وتفتيشها في أي مكان من البحر ، ومصادرتها أو الاستيلاء عليها إذا ثبت خرقها للمعاهدة بطريقة أو بأخرى ، ومن تدقيق نصوص هذه المعاهدات لا يتضح لنا وجود اشارة ما إلى تجارة الرقيق في الخليج بشكل خاص ، بل هي مرتبطة بمخططات أكبر لمحاربة هذه التجارة على الشواطىء الافريقية ، أما العلاقات الخارجية للشيوخ المتصالحين فلم تتجاوز باستثناء علاقاتهم بالحكومة البريطانية علاقتهم بالوهابيين أو بالقوات المصرية في البداية خلال الفترة التي حاربت فيها هذه القوات الدولة الوهابية في وسط الجزيرة العربية في سنة ١٨٣٩ م ، وعلى الرغم من الوعد الذي قطعه محمد علي باشا أمير مصر للكولونيل كامبل ممثل الحكومة البريطانية في القاهرة بألا تمتد فتوحاته باتجاه الخليج ، احتلت القوات المصرية الحسا ، ويبدو أنها كانت مصممة على اخضاع البحرين ، فارسلت وكيلاً يمهد لها الطريق بين قبائل عمان المتصالحة ، وأثارت هذه التحركات حركات مضادة من جانب الحكومة البريطانية التي أحست بأن تقدم القوات المصرية يهدد نفوذها في المنطقة ،

وفي فبراير سنة ١٨٣٩ م صدرت التعليمات للمقيم في بوشهر بأن يبذل كل
ما في وسعه لعرقلة تقدم القوات المصرية ، ولهذا الغرض قام سيرف ميتلاند ،
القائد العام للبحرية البريطانية في الخليج ، بزيارة لعمان المتصالحة على سفينة
صاحب الجلالة (ولـلي) وتعهد الشيوخ المتصالحون بحضور كابتن (ت.ادمون دز)
مساعد المقيم السياسي بألا يقيموا علاقات ودية مع مبعوث القوات المصرية ،
بل على العكس تعهدوا بأن يعيقوه ، ورغم هذا التعهد فقد سمح الشيخ
سلطان بن صقر لهذا المبعوث ، الذي لم يكن سوى ممثل الوهابيين القديم
سعد بن مطلق ، بأن يقيم في الشارقة التي وصلها في شهر مارس ١٨٣٩ م
ووضع الشيخ تحت امرته بيتا حصيناً وقلعة للاقامـــة فيها ، ومن هذا
المركز الحصين في الشارقة بدأ المبعوث بتنفيـذ مخططاتـه ، التي لقيت
المعارضة من البعض ، والتأييد من البعض الآخر ، وكان موقف المواجهة
مع القوات المصرية سيئاً ، لدرجة ان المقيم السياسي كابتن هنيل قرر
القيام بزيارة شخصية للبحرين وعمان المتصالحة ، فوصل إلى ساحل هـــذه
الامارات في الاول من شهر يوليو سنة ١٨٣٩ م على ظهر سفينة الشركة
هجلاندسي ، وكان لهذه السفينة بما أدخل عليها من تجديـد وتطوير أكبر
الأثر في نفس شيخ أبو ظبي ، وكشفت تحريات كابتن هينيل عن ان
شيوخ دبي وام القيوين ، كانوا يعارضون المصريين معارضة تامة ، أما شيخ
أبو ظبي فكان يبذل كل ما في وسعه كي يحل محل شيخ الشارقة في الحظوة
عند سعد بن مطلق ، وكان سلطان بن صقر بدوره يبـــذل كل جهوده
للاحتفاظ بهذه الحظوة ، وعلى أي حال فقد استطاع المقيم العام ان يحصل
على تعهدات كتابية من هؤلاء الشيوخ بمناصرة السياسة البريطانية والوقوف

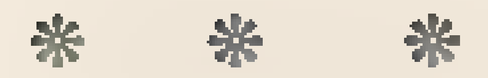
في وجه مخطط القوات المصرية ، وقد ورد نص بالنسبة لسلطان بن صقر يتعهد فيه بعدم اقامة أي علاقات أو مراسلات أو اتفاقيات مع محمد علي باشا والي مصر أو أنصاره[1] ، أو أي قوة أجنبية اخرى قبل موافقة الحكومة البريطانية ، وان يعتبر حلفاء هذه الحكومة حلفاء له ، وأعداؤها أعداء له ، كذلك منح شيخ الشارقة بناء على طلبه خطابات من المقيم موجهة له ولسعد بن مطلق تنصح الاخير بالعودة إلى نجد ، وفيما يتعلق بالحماية التي طلبها فقد تعهد له الكابتن هينيل بأن تقدم الحكومة البريطانية له الأسلحة والذخائر بالقدر الذي يريده أو الذي يحتاجه في حال وقوع أي اعتداء عليه من قوة اخرى ، وفي نفس الوقت تلقى كابتن هينيل طلباً المعونة ضد سعد بن مطلق من شيوخ البريمي ، وقد رد على هذا الطلب بأن شجعهم على المحافظة على استقلالهم ووعدهم بأن يرسل اليهم وكيلا يقيم بين ظهرانيهم ، كما وعدهم بأن يمدهم بالأسلحة والذخائر إذا تعرضوا للأذى بسبب التزامهم نصائحه ، وقد جاء في خطاب المقيم سعد ابن مطلق اشارة لهذه المباحثات ، ذكر فيه أن شيوخ البريمي قد أصبحوا تحت الحماية البريطانية ، وقد صدق الحاكم العام في الهند على كل ماقام به كابتن هينيل وأثنى على كفاءته وحماسه .

وفي يناير سنة ١٨٤٠م عاد كابتن هينيل لزيارة ساحل عمان المتصالحة وعقد اجتماعاً في عجمان مع شيوخ البريمي الذين كانوا بحاجة لتدعيم وضعهم ،

---

١ ــ كانت مصر في ذلك العهد احدى الولايات التابعة للحكم العثماني في استانبول .

وكان أهم شيوخهم حمود بن سرور من فرع الشوامس من قبيلة بني نعيم التي كانت تسيطر على قلاع البريمي ، فاستطاع المقيم عقد حلف دفاعي ضد كل الأعداء بين بني نعيم والظواهر الذين يسكنون الواحة ، لأن العداوة بين الفريقين كانت سبباً من أسباب ضعفهما معاً ، لكن مساعيه فشلت في التوفيق بين بني نعيم وجيرانهم بني قتب ، ثم كان التوزيع العادل للأرز والنقود والذخائر هادفاً لاثبات مزايا الارتباط ببريطانيا وكان منظماً بحيث يوحي بأن الحكومة البريطانية ستستمر في تقديم العون لمن يظل من أنصارها .



٥ ـ بريطانيا تحيك الفتن بين القبائل

المتلاعب بهـــا

في هذه الأثناء ، وبعد هذه الأعمال ، قام الكابتن اهامرتون الضابط المسؤول عن القوة الميدانيـة في جزيرة الخرج ، والذي اختير فيما بعـد ليكون وكيلاً سياسياً في مسقط ، برحلة من الشارقة إلى البريمي في حماية حمود بن سرور ، متخذين طريق ساحل صحار في الباطنة ، وقد وجد أن استحكامات البريمي تتكون من قلعة رئيسية واحـــدة فقط على الطرف الجنوبي من الواحة وهي مبنية من الآجر الذي جففتـه الشمس ، وكان طول ضلعها حوالي (٦٠) خطوة ، ثم قلعة اخرى أصغر تبعد عن الاولى حوالي (٣٠٠) خطوة إلى الشمال ، وكلتا القلعتين بناهما مطلق الوهابي ، وقد تآمر شيخ الشارقة ودبي ماوسعهم التآمر لمنع زيارة رحلة كابتن هامرتون ، ويبدو أن سعد بن مطلق قد أثار شكوك سادته بعـد عودتـه من الحسا لانه أرسل مخفوراً إلى الرياض ، ولكن لم يمض وقت قصير إلا وانتهى الاحتلال المصري ، وفي مايو سنة ١٨٤٠ م كانت القوة المصرية قد تراجعت عن نجد تراجعاً تاماً .

وقد بقي الامير خالد حاكماً على نجد بعد رحيلهم ، وسرعان ما توارد ت

التقارير تشير إلى أنه يعتزم تنفيذ مخطط ضد عمان ، وربما كان سعد بن مطلق على علاقة تواصل منتظم مع الشيوخ المتصالحين ، وفي سنة ١٨٤١ م وقع خطاب موجه اليه من شيخ الشارقة بين أيدي بني نعيم الذين تبينوا ان الخطاب يشير إلى مخطط للقضاء عليهم ، وفي نوفمبر سنة ١٨٤١ م كان الامير خالد في الهفوف بالحسا ، وكانت تحركاته تشير إلى اعتزامه السير إلى عمان ، فوجهت اليه الحكومة البريطانية انذاراً ، حمله الملازم جوب الذي نزل في العقير ، ثم عاد بعد زيارة الامير إلى ساحل القطيف وانكر الامير في رده أن تكون له أية خطط ضد عمان ؛ لكن الشكوك في صدق انكاره هذا ظلت قائمة طوال فترة حكمه ، ثم خلف خالد الامير عبد الله ، وقام باتصال قصير مع الشيوخ المتصالحين أعلن فيه عزمه على ارسال سعد بن مطلق وكيلا عنه إلى البريمي ، لكن خطاباته التي أرسلها اليهم جميعاً سلمت إلى الكولونيل روبرتسون باستثناء خطاب شيخ أبو ظبي ، وقد وجه اليه المقيم السياسي إنذاراً على أساس هذه الاعمال قد تشجع على عودة القرصنة ، وجاء في رد الامير عبد الله أنه يمقت أعمال القرصنة ، وفي الوقت نفسه أعلنت الحكومة البريطانية أنها تعتزم رفع يدها عن التدخل في الداخلية والمحلية في الجزيرة العربية ، وفي نفس الوقت تمت اتصالات ودية مستمرة بشكل عام بين مقيمية بوشهر وبين الرياض ، وفي نهاية الأمر تلاعبت بريطانيا بين الشيوخ المتصالحين والوهابيين وسلطان مسقط ، فظلت تحيك وتغزل بين هؤلاء بما لا ينتبهون له ، وهي ترسي دعائمها وتضع اصبعاً في عين شيخ أبو ظبي ، واصبعاً اخرى في عين سلطان ابن صقر ، واصبعاً ثالثة في عين مكتوم بن بطي شيخ دبي ، وحينا ترشده

في أمور مشيخة القواسم ، ثم أعلن صقر بن سلطان في مدينة الشارقة استقلاله عن أبيه شيخ القواسم ، فأورت النار بينه وبين شيخ دبي ، واستمرت على ذلك حتى قام شيخ أبو ظبي بزيارة لشيخ دبي ، ويبدو أن الصداقة بينهما كانت تتدعم ، وقد نشبت فتن بين القبائل وقامت غزوات بينها على القوافل ، وغارات على البلاد ، ولم تزل الأحوال هكذا حتى أصبح ساحل عمان في سنة ١٨٤٠ م ملتهباً بالحروب كما تقول بريطانيا .



٦ - الاحوال المحلية في الامارات الساحلية

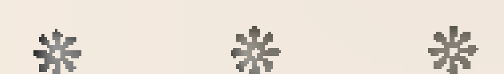
نتيجة ايقاع الاستعمار بين الزعماء

كان من نتائج السياسة الاستعمارية الهاب ضمائر أهل المنطقة ، وتغيير الوضع بين الأخ وأخيه ، وبث الخلافات ، واذكاء المطاولات بين الشعوب ، لاقتناصها من يدها ، وهي طوع القياد ، ونفخ الشيطان في أدمغة أهل أبو ظبي على أهالي دبي ، ودس للبدو من الجانبين ، وهم بسطاء العقول لاغور لهم ، ولا طويل نظر يدركون به الأحوال التي تدبر ضدهم ، ولم يتمرسوا على خبرة ناضجة بأحوال الدخيل الذي يروم بث الشر بينهم وبين اخوانهم ، فلذلك حرض شيخ أبو ظبي على اهانة شيخ دبي ، والايقاع بحلفائه ، من البدو في أم القيوين ، والغرض من ذلك أنه إذا أحس شيخ دبي بالاهانة وتأثر بها رجع إلى المستعمر الواقف خلف الأكمة ، فكان من جراء تلك الاهانة وذلك التحريض ان قتل من أم القيوين عشرون رجلاً ، وبذلك تكدر الصفو وحل الجفا مكان الصفا ، وانشقت العصا بينها ، لأن المقتولين من قبيلة الغفلة وهم رهط هام له أتباع أشداء ، وبعد انتهاء أجل الهدنة البحرية التقى شيوخ أبو ظبي والشارقة مرة اخرى ، وقرروا

اخضاع دبي ، لكن الشيخ سلطان خشي أن يستولي الشيخ سعيد على دبيّ لنفسه إذا تم اخضاعها ، فرجع عن عزمه معلنا أن أم القيوين يجب أن تكون الهدف الأول للحملة المشتركة ، وفي نفس الوقت بدأ الحلفاء يجرون مفاوضات مستقلة مع الشيخ مكتوم ، ضحيتهم المزعومة ، والقى هذا بنفسه بين ذراعي الشارقة ، فعقد الصلح مع شيخها على حين ظل في حالة حرب ضد شيخ أبو ظبي ، ويبدو أن سبب اختيار الشيخ مكتوم المصالحة مع الشارقة ، كان الوعد الذي قدمه الشيخ سلطان بهدم الأبراج الواقعة في منطقة أبو جبل .

وقد أشرنا إلى العلاقات التي قامت بين الشيوخ خلال السنتين التاليتين في البريمي والباطنة ، أما في الداخل فلم تحدث تحركات ذات أهمية ، لأن الزعيم الواقف على الأبواب ينتظر الفرج ، لم يحصل على المطلوب ، ولم يأت الاستغلال لتلك المزرعة التي القى البذر فيها ، ويمكننا ان نقول هنا انه خلال احتلال الشيخ سعيد بن طحنون للبريمي كانت علاقاته متوترة إلى ابعد الحدود مع شيوخ الشارقة ودبيّ جميعا ، وفي يوليو سنة ١٨٤٨م طلب من الشيخ الاول بوصفه حليفا له ان يتخلى عن شيخ ابو ظبي ،وتظاهر الشيخ سلطان بالاذعان لهذا الطلب ، وفي ديسمبر من السنة نفسها ، تحالف شيوخ الشارقة ، ودبيّ ، وربما عجمان أيضا ، لاستعادة البريمي من الوهابيين ، ولكن يبدو أن قواتهم المشتركة لم تصل البريمي بالفعل ، وفي سنة ١٨٥١م ورغم جهود الشيخ مكتوم لمنع التوصل لعقد الصلح ، فقد تم عقد الصلح بين الشيخ سعيد بن طحنون والشيخ سلطان بن صقر الذي كان يتصرف في الشؤون الداخلية لامارة دبيّ .

وفي الحرب الشاملة التي وقعت على طول ساحل عمان المتصالحة في سنة ١٨٤٦ كما يذكر المؤرخ البريطاني لوريمر ، لعب شيخ أم القيوين دوراً هاماً وبارزاً ، على النقيض تماماً من الشيخ عبد العزيز شيخ عجمان والطرف الثالث في التحالف الثلاثي ، الذي وجد من مصلحته المباشرة الانتقال من جانب إلى الجانب الآخر ، وقد ظل الشيخ عبد الله بن راشد واقفاً إلى جانب شيخ دبيّ بولاء واخلاص واستطاع هذان الشيخان المتصافيان ان يصلا بالحرب إلى نتيجة ليست سيئة ، والمستعمر يضحك بملء فيه ، واضعاً مبدأ « فرق تسد » بين عينيه ، وتلك غنيمته وانشودته التي يهدف اليها ولايخفى ان الاصابع الخمسة إذا قبضت على شيء ليست كقبضة الاصبع الواحد ، وقد تردد ان سيد مسقط قد اعترف في سنة ١٨٣٨ م بتبعية اقليم رؤوس الجبال للشيخ القاسمي .



٧ - معاهدة الصلح الدائم

حين اقتربت هدنة السنوات العشر البحرية من نهايتها بدأ كابتن أب كيبول المقيم السياسي في الخليج آنذاك ، مشاوراته مع الشيوخ الموقعين عليها من أجل عقد معاهدة دائمة ، وكانت الاجابات التي حصل عليها مرضية وأيدت حكومة بومبي مشروعه تأييداً كاملا ، وهكذا سار كابتن كيبول في أوائل شهر مايو سنة ١٨٥٣ م بتعليمات من حكومة الهند على السفينة كايف ، إلى الساحل المتصالح ، حيث أجريت المفاوضات بسرعة وتكللت بالنجاح ، وكان الشيوخ قد تعلموا بالخبرة مزايا استمرار السلام بصورة دائمة في البحار دون تهديد ، وقد تم التغلب على المعارضة التي كانت متوقعة من جانب المتخالفين ، بل من أكثر هؤلاء الشيوخ قوة شيوخ الشارقة وأبو ظبي ، بأن اكتفى شيخ الشارقة بتأكيد السلطات البريطانية له بأن توقيعه على هذه المعاهدة لن يمنعه في حالات الضرورة القصوى من الدفاع عن ممتلكاته البحرية في خليج عمان بالوسائل البحرية طبعاً إذا ما تهددها عدوان ، وكانت نصوص معاهدة السلم الدائمة شبيهة بنصوص هدنة السنوات العشر ، لكنها أضافت نصاً جديداً يقضي بأن للحكومة البريطانية حق تدعيم هذه الهدنة البحرية الدائمة ومراقبة تنفيذها ، واتخذت الاتفاقية شكلها النهائي في

الرابع من شهر مايو ، ووقع عليها الشيوخ في تواريخ متقاربة من ٤ إلى ٩ من الشهر نفسه ، وقد اتبع المقيم البريطاني سياسة تقديم الهدايا في رحلاته الدورية التي كان يقوم بها للشيوخ الذين يكون سلوكهم أفضل من غيرهم في الساحل المتصالح ، وقد امتدحت حكومة الهند هذه السياسة وأقرتها ، لأن الهدايا تجلب الرجال وتستخدم العقول وللهدية تأثير ملموس جربته الدول ، فكان له نجاح لا ينكر إلا عند من يغلب عليه العتو وفي القرآن الكريم « واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون » .

وبشير استخدام تعبير الاضطرابات البحرية في المراسلات الرسمية بدل كلمة القرصنة ابتداء من سنة ١٨٥٣ م إلى دلالة التطور الثوري العظيم الذي حدث نتيجة سياسة ومصالح المسؤولين البريطانيين واعتدالهم في منطقة الخليج .

وفي الزيارة الأولى التي أجراها المقيم البريطاني للساحل المتصالح بعد توقيع معاهدة السلم الدائمة وجد الشيوخ جميعاً ملتزمين باتفاقيتهم مع الحكومة البريطانية ، وولائهم لها ، ومحافظين على الارتباط بالتزاماتهم التي حددتها المعاهدة ، وفي هذه المناسبة لم تكن أمام المقيم سوى حادثتين صغيرتين فقط للخروج على النظام في البحار ، وقد سويتا بسرعة وسهولة .

وفي نوفمبر سنة ١٨٥٥ م كانت سفينة من بومبي يملكها تاجر هندي من رعايا بريطانيا تفرغ حمولتها في الشارقة حين هبت رياح عنيفة دفعتها إلى الشاطيء ، وحين هدأت الرياح بعض الشيء جاءت جماعة من العرب فنهبت السفينة ، ثم شرعت في تدميرها ، بالاضافة إلى أنها خفضت العلم

البريطاني الذي كان النوتي قد رفعه عليها طلباً للحماية ، وحين عاد ليرفع علماً آخر راح العرب يشتمون الحكومة البريطانية ، واعتدوا بالضرب المبرح على أحد البحارة ، وعلى الفور أرسلت سفينة حربية إلى الشارقة لطلب التعويض واصلاح السفينة وتوقيع العقوبات على المعتدين ، وبعد أن راوغ الشيخ وحاول تصوير الحادثة كما لو كانت حادثة غرق السفينة فقط ، عاد ليلقي اللوم على جماعة البدو الذين لا سيطرة له عليهم ، وقد ارغم على الخضوع لهذه المطالب جميعها ، كما قام شيخ أبو ظبي بمسلك طيب بالنسبة لحادثة مألوفـــة من حوادث الغوص ، وهي خطف بعض الغواصين فبذل جهده بنشاط وهمة وأعاد الغواصين المخطوفين حيث سلمهم لوكيل المقيمية البريطاني في الشارقة .

وقد حدثت حادثة خاصة في يوليو سنة ١٨٥٦ م حين ساهمت قوات أرسلها شيخ الشارقة في محاولة اعادة الشيخ سعيد بن طحنون شيخ أبو ظبي السابق إلى الحكم ، ولما فشلت هـــذه المحاولة ، قررت السلطات البريطانية اعتبار هذه العملية عدوانا بحريا من جانب شيخ الشارقة واعتباره مسؤولاً مسؤولية الشريك في العملية .

وفي تلك المرحلة حصلت عدة حوادث اعتداء على السفن والمراكب الصغيرة التابعة لأحد الزعماء أو التجار ، وكانت تسوى قضيتها وتدفع عنها التعويضات ، وكان المشتكون يلجأون للمقيم البريطاني ، ليقول ان القوامم ، ومن اليهم ، فعلوا كذا ، أو نهبوا كذا ، أو ضربوا كـذا ، فتفرض السلطات البريطانية الغرامات ، وتكبد الخسائر ، قدر عليها أو لم يقدر ،

وبهذا تمتلىء القلوب حقداً ، ويشتد الغيظ بين المدعي والمدعى عليه ، وهنا تلعب بريطانيا دورها ، وتمضي الأيام ، والفتن تشتد ، والصراع يستمر ، وفي سنة ١٨٦٦ م رفع المقيم السياسي كولونيل لويس بيللي إلى الحكومة عدداً من التقارير ذكر فيها عدة حالات من تلك الاعتـــداءات الصغيرة كأمثلة على الاضطرابات التي لا تزال تحدث في البحر ، بين الحين والحين ، ويبدو أن الكولونيل بيللي كان يحس بأن قدرته على العمل قـد قيدتهـا الأوامر الجديدة من الحكومة ، فهو لم يعد قادراً على ايقاع العقاب اللازم بمرتكبي هذه الاضطرابات ، أو فرض الغرامات دون مساعدة البحرية الهندية التي كانت من قبل خاضعة لأوامره ، والتي أبدلت مؤخراً بالبحرية الملكية ، مما زاد في صعوبة موقف المقيم ، وابتداء من هذا التاريخ يبدو أن مسؤولية المحافظة على السلم في البحار لم تعد سوى عمل روتيني فقط ، ولم يحدث أن اضطرت السلطات البريطانية إلى اتخاذ اجراءات استثنائية إلا نادراً ، وفي سبتمبر سنة ١٨٦٥ م وبعد اغارة ضخمة قام بهـا شيوخ البحرين وأبو ظبي على ساحل قطر ، وجد الكولونيل بيللي نفسه مضطراً للسير إلى أبو ظبي بأوامر من الحكومة على رأس سفن فيجيلانت ، وسند ، وهجروز ، واستطاع أن يصل هناك إلى اتفاقية لتسوية الأمور ، لكن ذلك لم يحدث إلا بعد التهديد الفعلي بقصف المكان بقنابـل الاسطول ، وكانت الشروط التي فرضت تقضي بتسليم سفينة صغيرة ومهربين عربيين ، ودفع تعويضات تصل إلى (٢٥٠٠٠) خمسة وعشرين الف جنيه ، غير أن هذا المبلغ الكبير لم يدفع منه بالفعل إلا مبلغ (٣٧٤٠) روبية ، كما أرغم شيخ أبو ظبي على تسليم المدافع الثلاثة التي يملكهـا ، لكنهـا ردت

اليه بعد ذلك لأن إبعادها سيعرض مدينة أبو ظبي لهجمات البدو ويتركها دون حماية ، وقد سببت الحملة التركية التي احتلت الحسا في سنة ١٨٧١ م فزعاً واضحاً في عمان المتصالحة لأن هدفها كان اخضاع نجد ، وتبين أيضاً من الجريدة الرسمية الصادرة في بغداد أن تعبير نجد يشمل أماكن مثل الشارقة ودبي ، وأبو ظبي ، وقد نجحت الحكومة البريطانية أخيراً على نحو ماهو مذكور في تاريخ الحسا والبحرين في الضغط على الأتراك لقصر عملياتهم على الحسا وقطر فقط ، وفي نفس الوقت أي يونيو سنة ١٨٧١ م أصدرت الحكومة تعليماتها للمقيم في الخليج بمنع الشيوخ المتصالحين من الانضمام إلى أي من الطرفين المتصارعين آنذاك الوهابيين والأتراك ، وفي سنة ١٨٧٦ م وبالنظر إلى محاولة قام بها أهل الشميلية للخروج عن سيطرة القواسم أثيرت مشكلة ارسال شيخ الشارقة تعزيزات وأسلحة وذخائر لحاميته في دبي ، وكان الشيخ يعتقد ، وله مبرراته في هذا الاعتقاد ، بأن هذا العمل من جانبه لا تمنعه أي من الاتفاقيات التي هو طرف فيها ، غير أن المقيم كولونيل أف أس دوس ذكر أن هذه الأعمال يجب أن تمنعها الحكومة انطلاقاً من سياستها العامة ، لأن التجربة أثبتت أن العرب ماداموا قد خرجوا بالسلاح فما أسهل أن ينزلقوا لاغراءاته ، وفي عام ١٨٨١ م أمرت حكومة الهند بأن يكون كل ساحل القواسم على خليج عمان من دبي إلى خور كلبا ، وساحل رؤوس الجبال من دبي إلى مسندم ، خاضعاً للاجراءات البحرية التي لا تسري على سواحل سلطنة عمان فقط ، وخلال تلك الفترة حدثت بعض الحوادث البسيطة من الاعتداءات البحرية ، وقد عملت بريطانيا على حظر أي تحرك إلا بمعرفة المقيم السياسي والعسكري

البريطاني في المنطقة ، وذلك بقصد أن لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذن المقيم البريطاني حتى في الشؤون الداخلية التي تقع بين القبائل نفسها ، وفي بداية هذه الفترة ظلت تجارة الرقيق قائمة كما هي خاصة في الشارقة ، وام القيوين وعجمان ، وقد اعترف الشيوخ أنفسهم بأنهم يودون بالفعل منع هذه التجارة ، لكنهم عاجزون عن ذلك ، بسبب حلول بريطانيا في أماكنهم وتسلطها على أمرهم قصد إضعافهم وإهانتهم ، وقيل أيضاً أن شيخ الشارقة يفرض ضريبة تصل إلى (٤) جنيهات عن كل عبـــد يجلب حديثاً ، وتعهد الشيوخ المتصالحون في سنة ١٨٥٦ م بأن يسلموا للسلطات البريطانية كل العبيد الذين جلبوا إلى بلادهم مؤخراً ، أي انهم رأوا انه لابد لهم من ذلك مادامت بريطانيا واقفة على أبوابهم ، عاملة على اذلالهم ، وقد مدت خطوط التلغراف الهندية البريطانية عبر مضيق روس الجبال إلى خور مقلب ، واقيم مركز على جزيرة خور الشام ، ورأت السلطـــات البريطانية أن من المستحسن ، ما دام بعض الأهالي ، يعتقدون بتبعية هذا الاقليم للشارقة كما هو الاصل ، الحصول على ضمان من الشيوخ المتصالحين بالعمل على حماية هذه الخطوط ، داخل أقاليمهم وبالقرب منها ، وعلى هذا فقد وقعت اتفاقية بذلك في سنة ١٨٦٤ م واعتبرت مضافة إلى اتفاقية السلم الدائمة لسنة ١٨٥٣ م .

وقد سبق أن أشرنا ، في أثناء مناقشة هدنة السنوات العشر إلى سبب رئيسي لهذه الاضطرابات الصغيرة التي تحدث من حين لآخر في البحار ، وهي هجرة العاملين في صيد اللؤلؤ بديونهم والتزاماتهم من اقليم لآخر هرباً

من الوفاء بهذه الديون والالتزامات ، وكان هذا الشر مستحكماً لدرجة ان الكولونيل بيللي قام في سنة ١٨٦٨ م باتخاذ الخطوات الضرورية لعقد اتفاقية لتسليم الفارين بين الشيوخ الذين تقع أراضيهم على الساحل ، ولكنها تبين انها ليست كافية وأخيراً تم توقيع اتفاقية بين الشيوخ المتصالحين بضرورة تبادل تسليم المدينين الفارين ، وقد تم توقيعها يوم ٢٤ يوليو من سنة ١٨٧٩ م من جانب الشيوخ المتصالحين بحضور حاجي عبد الرحمن وكيل المقيمية البريطانية بالشارقة ، وحاجي عبد القاسم الذي ارسل خصيصاً من مقيمية بوشهر ، لينقلا للشيوخ رغبات المقيم ووجهات نظره ، فابلغهم ان المقيم يود أن يُسلمْ هؤلاء الهاربون فور وصوله ، أما إذا سمح له الشيخ صاحب الميناء الذي وصل إليه بالنزول فيكون معرضاً لدفع غرامة قدرها (٧٠) جنيهاً ، واذا أمكنه من العودة إلى سواحل اللؤلؤ تزاد الغرامة إلى مائة جنيه ، بالاضافة إلى ديون المدين ، وإذا حدث اختلاف حول هذه الحقائق ، يعقد مجلس من المحكمين لحلها ، لكن هذا المجلس ليس له سلطة فرض الغرامات إلا بعد موافقة المقيم البريطاني ، وكانت حكومة الهند تخشى ان يؤدي هذا النظام بسبب زيادة سيطرة الشيوخ على رعاياهم إلى الظلم الصريح ، لكن الكولونيل روس استطاع أن يؤكد للحكومة أن نظم الحكم الموجودة لدى هؤلاء الشيوخ لا تسمح في العادة بحدوث ظلم حقيقي وان هذا النظام ليس معرضاً للانهيار ، وقد أوضحت التجربة تماماً فيما بعد صواب هذه الاتفاقية وفائدتها معاً .

* * *

الفصل السادس

١ ـ الاحوال الدائرة بين الشيوخ والوهابيين

٢ ـ التاريخ القاسمي المشترك في المحيط العماني العربي

٣ ـ الاحوال المحلية في الامارات العمانية

٤ ـ التحركات السياسية الاجنبية حول الساحل المتصالح

٥ ـ النظر في حظر السلاح

٦ ـ القواسم وجزيرة ابو موسى

٧ ـ الحريق يتواصل في الساحل المتصالح

٨ ـ حوادث زوراء



١ ـ الاحوال الدائرة
بين الشيوخ والوهابيين

لا يخفى أن الأحوال الدائرة بين الشيوخ في الساحل المتصالح والوهابيين لاتزال كما هي بينهم وبين الآخرين ، وفي سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٧٢ م كان نفوذ الوكيل الوهابي في عمان المتصالحـــة يدور دورات هامة أشبه بالصراع ، وكان الشيوخ المتصالحون في الساحل العماني يذهبون إلى الزعامة الوهابية ، لدعمهم ، حتى يكون هذا الدعم سنداً يتسلطون به على بعضهم البعض .

في سنة ١٨٥٤ م بذل أحمد السديري ، الذي كان لايزال ممثل الوهابيين في البريمي ، جهوداً مشكورة للحيلولة دون وقوع الحروب الصغيرة التي يشنها الشيوخ على بعضهم .

ومنذ سنة ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٦٦ م ظل اهتمام تركي بن أحمد السديري وكيل الوهابيين في البريمي ، مقصوراً على شؤون سلطنة عمان التي كان يحاول أن يحصل منها على زيادة في الجزية ، ولكن يبدو أن شيوخ عمان

المتصالحة ومن بينهم شيخ الشارقة سلطان بن صقر الذي كان في ذلك الوقت يقضي أواخر أيامه ، حيث مات سنة ١٨٦٦ م ، قد وقفوا بمعزل عن هذا الصراع . وفي تلك الفترة أقام الشيخ خالد بن سلطان القاسمي من الشارقة حصناً في زوره بين عجمان والحمرية ، ولما كان من شأن هذا العمل تهديد مصالح بريطانيا فقد قامت سفينة ملكة بريطانيا المسماة هاي فلاير في سنة ١٨٦٦ م بانتهاز فرصة القطيعة بينها وبين الوهابيين فسوت هذا الحصن بالأرض تماماً ، وما هدمها لذلك الحصن إلا خوفاً من استفحال خطب صاحبه حيث هي جاعلة نصب عينها كسر القوى القاسمية وقد أعطتهم دروساً كبيرة الأحرف ، ضخمة المعاني ، لا تزال محفوظة لديهم ، ولن ينسى العربي ما يصاب به من جنس هؤلاء ونحوهم ، ولكن ماذا يفعل الضعيف أمام القوي الذي لا يرحم ، وفي سنة ١٨٦٧ م ومع اعادة توحيد رأس الخيمة والشارقة ، حاول شيخ رأس الخيمة المعزول الاستعانة بنفوذ الوهابيين لكنه لم ينجح ، ولم يستطع الوهابيون فعل أي شي معه .

وفي ابريل سنة ١٨٦٩ م سار وكيل الوهابيين في البريمي إلى الشارقة حيث أقحم نفسه في الصراع الدائر بين أعضاء الأسرة الحاكمة هناك ، وكان من نتيجة ذلك ان اصابته رصاصة أودت بحياته في مشاجرة حدثت في اثناء هذا الصراع ، كما قتل عدد من أنصاره في هذا الاشتباك أيضاً ، وانسحب الباقون منهم ، وبعدها بشهر واحد انتهز السيد عزان بن قيس هذه الفرصة المواتية فقام على نحو ما هو مذكور من تاريخ سلطنة عمان بطرد الوهابيين من البريمي نهائياً .

وفي سنة ١٨٨٨م راجت شائعة مصدرها قطر ، باقتراب وقوع غزو يعده ابن الرشيد أمير نجد على عمان المتصالحة ، ولكن نظراً لأن شيئاً من هذا لم يحدث فان الاعتقاد ساد وقتها بأن الشيخ قاسم آل ثاني شيخ الدوحة في قطر هو الذي يروج هذه الشائعة ، وأثناء ذلك تمت عـدة تحالفات منها تحالف شيخ دبي وأبو ظبي واتفاقهم بوجهات النظر مع شيوخ الدوحة ، إلا أن بريطانيا خشيت من نمو قوة القواسم في هذه الأجواء فوجهت سلطاتُها النصح لشيخ الشارقة الذي مـال إلى الانضمام إلى هـذا الأمر ، والذي بدا أنه كان يتفاوض مع شيخ الدوحة بشأن وضع مخازن الأسلحة والمؤن بالشارقة تحت تصرف القوات المتقدمة من وسط الجزيرة ، وقد وجهت بريطانيا له تحذيراً بأن يبتعد عن الانغماس في هذا الأمر قدر الامكان ، وقد فعل هذا على مايبدو ، لكنه بعد قليل أصبح عضواً في تحالف ضد شيوخ أبو ظبي ودبي يضم باقي الشيوخ المتصالحين جميعاً ، وانظر في موقف بريطانيا في تحذيرها لشيخ الشارقة ان لايقبـل من الشيخ قاسم ما خاطبه به وهو تأييـد الشارقة بخزن الأسلحة والمؤن فيها ، تجد فيه تفكيكا للقوى العربية وإبعاداً لها عن بعضها البعض ، واضعافـاً للشيوخ المشار إليهم عملاً بمبدأ « فرق تسد » ، وامتثالاً لذلك قبل الشيخ التحذير خوفاً من السلطات البريطانية التي طالما رأى منها مايسوءه ، وكان شيخ الشارقة داهية عنقفيراً ، مارس السلطة ومارسته ، فاستفـاد عقلا مجربا وحكمـة واسعة ، وبعـد هـذا اعترف بنو نعيم في البريمي ، بنوايا السلطات في الوقـوف إلى جانب أمـير شمر وأمـير الدوحـة ، ولكـل

وقت سياسة ، ولكل وقت رجال ، ولكل رجال أعمال ، ونظراً لعلاقة عمان المتصالحة بسلطنة عمان وأحوالها القريبة من الساحل المتصالح ، فإن عمان جسم واحد لا يقبل التجزئة ولا تصح فيه ، ففي حقبة السلم منذ سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٩٢م لم تقع حروب فعلية بين الشيوخ المتصالحين وحاكم مسقط ، بل كان بينهم اتصال أساسي على الأحوال الداخلية في السلطنة .

* * *

٢ ـ التاريخ القاسمي المشترك

في المحيط العماني العربي

لا يخفى ان تاريخ القواسم يتناول عدة أحوال من تاريخ الامارات المتصالحة في قضايا لاتزال علاقاتها بالقواسم محفوظة المراسم ، ولها أهميتها العربية ، وهي تتناول وجوها من تاريخ عمان ، ومن أحوال قطر ، وعلاقات تركيا في وقتها ، واحوال ايران في عهدها المتبادل في هذا القطر ، ففي سنة ١٨٥٤ م كانت ثمة عمليات عدوانيـــة متبادلة بين حاكم مسقط والحكومة الايرانية في بندر عباس ، وقد خرج شيخ أبو ظبي سعيد بن طحنون بأسطوله إلى البحر ليقدم العون للسيد سعيد سلطان مسقط ، لكن السلطات البريطانية أرغمته على الرجوع إلى مينائه على أساس أن عمله هذا قد يؤدي إلى توسيع رقعة الاضطراب وتحويله إلى حالة اضطراب عام في مياه البحار ، والغاية الحقيقية التي تهدف اليها السلطات ، هي اضعاف السلطان وتوهين قواه ، ومنعه عن التفكير بالقيام بمثل هذه الأعمال ، وكان سبب اغارة السيد تركي حاكم صحار في سنة ١٨٥٧ م على املاك شقيقه السيد ثويني في الباطنة ، مساعدة الشيخ سلطان بن صقر شيخ الشارقة له ،

وقد وجه المقيم البريطاني اليه انذاراً حاسماً بناء على تعليمات من الحكومة البريطانية بالكف عن القيام بمثل هذه الأعمال ، والغاية من ذلك فصل القوى عن بعضها وكسرها وتحطيمها ، وفي سنة ١٨٦١ م كان ثويني قد ارسل مبعوثين عنه لعقد حلف مع شيوخ أبو ظبي وأم القيوين ضد شيخ القواسم في الشارقة ، لكن الشيوخ المعنيين رفضوا المشروع ، ولم تكن بالتالي ثمة حاجة لتدخل السلطات البريطانية في الأمر ، لأنه لم يحدث شيء مهم ، وإلا كانت بريطانيا بالمرصاد ، وحاول السيد تركي سلطان عمان ، مرة ثانية في سنة ١٨٦٧ م استعادة ولاء صحار له ، فطلب مساعدة بعض شيوخ عمان المتصالحة ، لكن السلطات البريطانية حذرت الشيوخ الذين طلب مساعدتهم من القيام بأي عمل يؤدي إلى الاضطراب خاصة في مياه البحار ، فلم يلقوا بالاً لمطلبه ولم يهتموا به ، بسبب ضغط بريطانيا عليه وعلى من يساعده .

وفي شهر مايو سنة ١٨٧٠ م قام السيد تركي سلطان عمان بزيارة دبي بهدف الحصول على معاونة الشيوخ المتصالحين في صراعه ضد غزان ابن قيس ، لكن اخلاص شيخ أبو ظبي لتحالفه وتفاهمه مع غزان ، أدى إلى افشال محاولات التحالف ضده ، وفي شهر اكتوبر التالي حدثت موقعة ضنك التي أسلمته بالفعل لسطنة عمان ، وفيها تلقى عونا غير مجد من شيوخ دبي ، وعجمان ، ورأس الخيمة ، ومن قبائل بني نعيم ، وبني قتب ، وفي العام التالي لذلك وهو عام ١٨٧١ م قام شيخ أبو ظبي بزيارة السيد تركي رغم التعارض القديم في وجهات نظرهما ، ولقى كل تكريم

في هذه الزيارة ، إلا أنه في شهر يناير سنة ١٨٨٦ م اتهم بأن لديه خططاً للاغارة على اقليم الباطنة تأييداً للمتمردين من الشرقية .

هذا وفي سنة ١٨٥٣ م كان الشيخ خليفة بن سعيد شيخ القواسم في لنجة التي كانت تابعة لهم آنذاك في مركز ضعيف ، وقـــد اضطربت الأحوال في مدينته ، وأصبح قريبه الشيخ سلطان بن صقر شيخ الشارقة مسؤولاً مباشرة عن لنجة التي ظل مقيماً فيها لعدة شهور .



٣ ـ الاحوال المحلية في الامارات العمانية

لا يخفى أن الأحوال المحلية في الامارات العمانية كانت طيلة القرن التاسع عشر في حالة اضطراب ، وكان كل أمير يروم شن الغارة على الأمير الآخر للقضاء عليه ، ولم يُقدّر للتحالفات السياسية الاستمرار طويلاً ، كما ان الحروب المتتابعة الصغيرة استمرت بغير نهاية ، وظلت تشكل جزءاً كبيراً من التاريخ الداخلي لعمان المتصالحة خلال هذه الفترة ، وكمثال على تلك الحوادث ماوقع في نهاية سنة ١٨٥٧ م حيث قام شيخ أبو حيل وهو أحد أنصار شيخ الشارقة بهجوم على معسكر لقبيلة المزاريع في الخوانيق ، كان من نتائجه مقتل أربعة رجال بينهم أحد الشيوخ ، وعادت قوة أبو حيل التي كانت تضم حوالي مائة وخمسين رجلا في نفس الليلة إلى مقرها بعد أن قامت بسلب حصانين وثلاثين بعيراً ، ولما رفض شيخ الشارقة دفع التعويض للقبيلة المنكوبة استعان شيخ دبيّ الذي كانت هذه القبيلة تابعة له ، بشيخ أبو ظبي ، وقاما بحملة على الشارقة ، سارع على أثرها وكيل المقيمية في الشارقة لعقد الصلح بين هذه الأطراف المتنازعة ، وفي سنة ١٨٦٩ م أصبحت مدينة رأس الخيمة وماحولها امارة مستقلة يحكمها حميد بن عبد الله ابن شقيق شيخ الشارقة ، وظلت هكذا إلى سنة ١٩٠٠ م ، حيث مات المذكور .

ويتصف الربع الأخير من القرن التاسع عشر في تاريخ الأحداث بعمان المتصالحة بكثرة عدد الحوادث والغارات بين القبائل والبلاد ، وقد اشترك البدو في هذه الأحداث فكانوا يتحالفون مع هذا الزعيم تارة ، ومع ذاك تارة أخرى ، ويقومون بغزو بعض البلدان تارة ثالثة بقصد الكسب والنهب ، وكانت بريطانيا تشعل نار الفتنة وتوقد الضغائن وتثبت الحزازات ، ثم تطالبهم بالصلح وتفرض عليهم عدم التحالف ، وان تحالفوا بذرت الخلاف مرة اخرى ، وهكذا يطيب بقاؤها وتتأمن مصالحها .

وان اعجزت الحيلة بريطانيا لوحت بالقوة ، وكان القواسم في تلك الفترة يعانون من الصراع الذي بثته بريطانيا في المنطقة بين القبائل والحكام ، ففقدوا سابق قوتهم وان حاولوا النهوض ، فان عيون بريطانيا وأساطيلها ترصدهم وتحد من نشاطهم وتحركهم .

ان ماهو بارز خلال تلك المرحلة ، على وجه العموم ، ذلك التحالف ثم التخالف الذي يلحق به بين المشايخ ، مع ان الاسلام منع التحالف اجماعاً ، سيما ما كان من مثل هذه الأنواع ، التي يتحالفون عليها ، وهي التغلب والتسلط والقهر ، بعضهم ضد البعض الآخر ، وذلك لقلة العلماء ورسوب الجهل وانتشار الفوضى ، حيث تباعد أهل الحق منهم حتى اختلفوا في المذاهب ، وتلك نزعات شيطانية ، وإلا كيف ذلك ، والمؤمنون اخوة ، والدين عند الله الاسلام ، وهو مذهب واحد .

٤ ـ التحركات السياسية الاجنبية

حول الساحل المتصالح

عن السنوات الأخيرة من القرن الماضي أشار لوريمر صاحب كتاب دليل الخليج إلى احداث وقعت ، كانت إيران طرفاً فيها ، ففي شهر مارس من عام ١٨٩٢ م وقعت بعض الأحداث التي تعتبر تهديداً للنفوذ البريطاني في عمان المتصالحة ، وتشير هذه الأحداث إلى بروز قوى اخرى تحاول التدخل في شؤون منطقة الخليج مما يتعارض والمصالح البريطانية .

حدثت في منطقة الخليج كلها محاولة سخيفة بالنسبة لبريطانيا ، أما بالنسبة إلى الأطراف المحلية فهي خطيرة وذلك عندما حاول بعض المسؤولين الايرانيين في سنتي ١٨٨٧ و ١٨٨٨ م اقامة قاعدة لهم في عمان المتصالحة ، وكان عميلهم الأول في هذه المحاولة هو سار تيب حاجي أحمد خان نائب الحاكم سابقاً في بوشهر ، ففي اغسطس سنة ١٨٨٧ م سار هذا الرجل إلى الساحل المتصالح على السفينة المسماة كولدر التي تملكها شركة بومبي ايران المشتركة للملاحة البخارية ، وهو عمل بدا غريباً من جانبه بالنظر إلى الوقت الذي حدث فيه ، وهو أقسى شهور الصيف حرارة ، ولذلك أمر المقيم

البريطاني في بوشهر كولونيل آس روس بأن يتبعه تحت المقيمية لورانس إلى أبو ظبي التي نزل إليها بشكل رسمي ، وبعد أن قضى عدة أيام مع شيخ أبو ظبي مضى سارتيب لزيارة دبي ، ومنها عاد إلى أبو ظبي ، ورحل إلى لنجة على سفينة وطنية بعد أن حاك هناك نسيجه ، ورتب أوامره ، وخرج وقد التزم الشيوخ المتصالحون في بداية الأمر بالصمت المطبق ، تجاه خطط أحمد خان ، ولكن شيخ دبي باح بالسر أخيراً لسلطان عمان ، وتبين ان السارتيب قد اقترح اقامة علاقات وثيقة بين إيران والشيوخ المتصالحين بهدف ابعاد النفوذ البريطاني عن عمان المتصالحة ، وفي يناير سنة ١٨٨٨ م واعتقاداً من أحمد خان ان الطريق قد أصبح ممهداً ، عاد مرة أخرى إلى الساحل المتصالح على سفينة وطنية ، وكان قد احضر معه عدداً من الاعلام الايرانية بقصد توزيعها ، وقد حاول أن يبدأ العمليات في المنطقة المجاورة لرأس مسندم ، لكن أهل هذه المنطقة رفضوا ان يسمحوا له بالنزول فيها ، وأخيراً سار بصحبة شيخ جزيرة قشم ، وعدد من الرجال المسلحين ، فالتقى بشيخ أم القيوين وبعدها اتضح له ان مخططه هذا ليس مخططاً عملياً فبادر إلى العودة إلى ايران ، وعندها قدم الوفد الدبلوماسي البريطاني في طهران احتجاجاً على هذه الأعمال للحكومة الايرانية ، وقد ردت هذه الحكومة باستنكار ماقام به سارتيب بل ووجهت اليه اللوم أيضاً ، ولكنها من ناحية اخرى مرهــا عمله ، ولعلها أكرمته بدليل أنها أنعمت عليه بسيف مذهب ، تنشيطاً له وتقديراً لعمله ، وتكريماً لمقامه ، ولا يخفى ذلك على أهل العقول الواعية ، ثم قام قائد سفينة

الملكة أو ميرا بنقل هذا الانكار الرسمي من جانب الحكومة الايرانية للشيوخ المتصالحين مخففاً بذلك من ثائرة الهياج الذي أحدثته أعمال أحمد خان على طول هذا الساحل ، وفي ديسمبر سنة ١٨٨٧ م وخلال المدة الفاصلة بين الزيارة الأولى والزيارة الثانية من جانب الساريتيب لعمان المتصالحة ، قام الكولونيل روس بعمل على سبيل التحفظ والاحتياط ساهم في سخط المبعوث الايراني في نهاية الأمر اذ استطاع الحصول من شيوخ أبو ظبي ، ورأس الخيمة ، وعجمان ، وأم القيوين ، والشارقة ، ودبي ، على ضمانات كتابية ، تعهد فيها كل منهم بعدم الدخول في مراسلات أو علاقات ، أو توقيع اتفاقيات مع أية دولة باستثناء الدولة البريطانية ، كما تعهد كل منهم بعدم السماح لوكيل أية حكومة اخرى بالاقامة في أرضه ، دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية ، وقد رفعت حكومة الهند هذه التعهدات إلى وزير الدولة البريطاني لشؤون الهند فوراً .

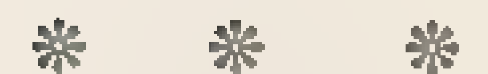
وفي خلال عدة سنوات متوالية كانت للحكومة التركية نوايا نحو الساحل المتصالح بالنسبة للصراع الدائر بين شيخ أبو ظبي والقبيسات المتمردين عليه والمقيمين في خور العديد بقطر ، وهكذا جاءت الحرب بين شيخ أبو ظبي وشيخ آل ثاني من قطر لاتاحة الفرصة للأتراك كي يدخلوا في مراسلات مع شيخ أبو ظبي ، مفترضين لأنفسهم حق السيطرة عليه ، لكن السبب الحقيقي في ربط الشيوخ المتصالحين في عمان بالحكومة البريطانية خلال اتفاقية جديدة ، هو ظهور رجلين افرنسيين على الساحل المتصالح يهدفان إلى تحقيق أغراض سياسية ، وذلك لأن فرنسا كانت قد بدأت تحركها في هذه المنطقة ، وذلك عن طريق توزيع اعلامها على كل من الشيوخ المتصالحين وكان أحد

هذين الرجلين يدعى ترامبير أو تومي والآخر مسيو تشاب ، وهو نصف مغامر ، نصف تاجر ، والمعنى أنه كان متستراً بهذه الصفات ، لكنه متآمر دائماً ، وقد تعرفنا عليه مرة اخرى بعد عامين من هذا التاريخ يتآمر في صور من سلطنة عمان ، وقد زار هؤلاء شيخ أم القيوين ثلاث مرات وقدموا اليه الهدايا ، فمال إلى الوقوع تحت سيطرتهم ، وكان مقتنعاً كل الاقتناع بمزايا العلم الفرنسي ، فهو قد يتّسّر لأكثر من اثني عشرة سفينة من سفن صور بممارسة الاتجار بالرقيق دون ان تخشى السفن البريطانية ، ولعله كان يغريها بذلك لتكون ضداً لها ، بل انه ايضاً قد عرض كتابة خطاب منه للحكومة الفرنسية يؤكد فيه ترحيبه واستقباله الحسن لكل من يأتي اليه من رعاياها ، وبالنظر إلى خوف بريطانيا من شرور الرجلين الفرنسيين السيدين تشاب وترامبير اللذين قيل انهما قد حصلا على ضمان بايجاد قاعدة في أم القيوين ، اقترح ميجو تاليوت المقيم السياسي في الخليج ان تعقد اتفاقية حسب نصوص الضمان الكتابي الذي قدم له في ديسمبر سنة ١٨٨٧ م بين بريطانيا وشيوخ الساحل ، وبعد موافقة الحكومة الهندية على اقتراحه وقع الشيوخ المتصالحون هذه الاتفاقية في تواريخ مختلفة اعتباراً من شهر مارس سنة ١٨٩٢ وكان هؤلاء الشيوخ ستة ، وكذلك وقعها شيخ البحرين ، وبمقتضى هذه الاتفاقية يتعهد الشيوخ باسمهم واسم من يرثهم ، ومن يخلفهم الا يوقعوا أي اتفاقيات أو يدخلوا في أية علاقات مع دولة أجنبية أخرى سوى بريطانيا العظمى ، والا يسمحوا لوكيل دولة أجنبية اخرى بالبقاء في أرضهم دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية والا

يمنحوا أي جزء من أراضيهم سواء عن طريق البيع أو الايجار أو الرهن أو التنازل أو غير ذلك لاحتلال أية دولة أجنبية باستثناء بريطانيا العظمى ، وقد صدق نائب الملكة في الهند على هذه الاتفاقية في ١٢ مايو التالي ، وبعده صدقت عليها حكومة صاحبة الجلالة كما يقولون ، ولم تنتـه هـذه المشاكل والصعوبات بعد توقيع الاتفاقية مباشرة ، لأن شيوخ الشارقة ودبي قد زعموا في البداية أنهم يعتقدون أن الاتفاقية لم يصدق عليها لأن نسخاً منها قد سلمت اليهم كما أعلن شيخ دبي ضيقه بسبب تدخل البريطانيين في تجارة الرقيق ، واقترح رفع العلم الفرنسي للهرب من مضايقات الانجليز ، وكان هذا إلى حد ما من النتائج الايجابية التي اسفرت عنها زيارة الوكلاء الفرنسيين للمنطقة على النحو الذي أشرنا اليه ، وقد زادت علاقات بريطانيا العظمى قوة وقربا بالشيوخ المتصالحين عقب توقيع الاتفاقية سنة ١٨٩٢ م بعد أن ربطتهم بتلك المعاهدة .

ساد النفوذ البريطاني سيادة كاملة ومطلقة في البلاد ، ومن الحقائق التي تلت اتضح ان مكاسب بريطانيا وقيودها التي فرضتها على عمان المتصالحة كانت عاملاً هاماً في كل المشاكل التي قـد تثور بين الشيوخ والدول الأجنبية ، وكانت اتفاقيات الشيوخ للمحافظة على السلام في البحار تراقب بمنتهى الحذر والدقة واليقظة حتى تلك الاعتداءات الصغيرة التافهة قد انتهت ولم تعد تظهر أية مشاكل باستثناء تلك المشكلة الطفيفة المتعلقة باستخدام علم مميز لعمان المتصالحة ، فقد كانت بريطانيا صاحبة الحول والطول ، وبيدها الزمام والمدفع . حتى انه لما تولى الشيخ عبد العزيز حكم عجمان لم

تخل من استخدام القوة والعنف ، وفي سنــــة ١٩٠٠ م كتب إلى المقيم البريطاني في بوشهر ، يعلمه بأنه قد وقع الاتفاقية التي وقعها أسلافه ، وانه يلتزم بها « وكان ذلك تسكيناً لهياج المقيم المشار اليه ، فرد عليه المقيم مؤيداً الاجراء الذي اتخذه ، وكانت هذه الحادثة تشير إلى معنى جديد وهام في نظر المقيم يتخيل منه ان تلك الاتفاقيات غير سارية المفعول من جهة الخلف للسلف ، لكن المقيم السياسي ، وهو كاسمه ، لا يضرم النار إذا اشتعلت ، ولا يطفئها إذا خمدت ، بل يبقيها تحت الرماد ليوم ما ، وقد قررت حكومة الهند بناء على ذلك ان مختلف الاتفاقيات التي يوقعها الشيوخ تسري على خلفائهم ، أي بالقوة ، وفي نفس الوقت أكدت الحكومة ضرورة إيضاح نصوص الاتفاقية والتزاماتها بالنسبة لهذا الشيخ الذي الزم نفسه بها .



٥ ـ النظر في حمل السلاح

كان الرأي المتجاذب بين فرنسا وبريطانيا على تضاد بحسب المصالح المقصودة ، ففرنسا تروم تسليح الخليج ليأخذ عدته ضد بريطانيا ، وبريطانيا تريد نزع سلاح الخليج ، أو على الأقل منع بيع السلاح له ، لأنها تخشى على نفوذها في المنطقة ، ولما رأت طالعها في الأفق السعيد أصرت على منع بيع السلاح في الخليج بأمره ، حتى مسقط والجانب الايراني أيضاً ، لتكون آمنة مطمئنة في الخليج ، لاتخشى دركا ولا تخاف أحداً ، لأن الأمة المسلحة لها مخالب وأظافر تصول بها ، ففي سنة ١٩٠٢ م اجبرت شيوخ الساحل المتصالح على قمع تجارة السلاح في بلادهم ، وكانت فرنسا هي التي تسوق السلاح إلى الخليج ، وكان هـذا من الاجراءات التي اتخذتها الحكومة البريطانية لمنع تزايد هذه التجارة ، ووقعت بذلك اتفاقية لمنع تجارة السلاح بالساحل مع الشيوخ ، وضمنت لهم تعويض الدخل الذي ينالونه من ذلك وادخلت في نفوسهم أن بيع السلاح في بلادهم يقوي المتمردين عليهم ، ومعناها الحقيقي يقوي تمردكم علينا ، وبنفس هذا الوقت دخلت على سلطان مسقط واجبرته على ما اجبرت عليه شيوخ الساحل ليتم

الأمر الذي تحاوله ، وعلى هذا وبعد تمامه حلقت به إلى فرنسا قائلة لها ، انها على اتفاق مع شيوخ الساحل المتصالح على منع بيع السلاح في بلادهم وأشارت بالاتفاقية إلى الحكومة الفرنسية محتجة بذلك ، ومعلنة أن هذه البلاد تحت نفوذها ، فلا تقبل أن يزاحمها أحد عليها ، وهنا دار بين الحكومتين دور كاد أن يكون فعالاً بسبب حادثة غرق السفينة العمانية العائدة لبعض أهالي السويق المسماة (فتح الخير) في ساحل دبيّ في خريف سنة ١٩٠٣ م ، وكانت السفينة المشار إليها تحمل العلم الفرنسي الذي تسلم منه بريطانيا ، وزعم صاحب السفينة أن سفينته نهبت تماماً وطال النقاش والجـدل بسببها في أوربا ، بما أدى إلى اعتراف فرنسا لبريطانيا بالسيادة في الساحل المتصالح ، وهنا غزلت بريطانيا نسيجاً كان بالغ الأهمية في الساحل المذكور ، حتى طبعت أوراقاً وجاءت بأعلام ألزمت أهل الساحل المتصالح العمل بما تدعو إليه ، ولما صفا الجو لبريطانيا همت بالتدخل في داخل عمان لترى هل يساعد الطالع على تنفيذ نواياها ، وهنا خاطبت ضحضاحاً فأودية عارمة من الدس والبث والسعي بين الاحياء بالروح السياسيـة ، وذلك شأن الدول في وقت رقيها وتسابق أهلها إلى توسيـع نطاقها وما لها من أرب ومطامع ، وكانت بريطانيا قد أبعدت شيخ لنجة كما أشرنا إليه سابقاً ، وبذلك وقع في روع حكومة ايران من جهة الشيخ العربي المبعد ، إذ بلغها أنه لجأ إلى عمان المتصالحة ، وقد طلبت بريطانيا رد العرب العمانيين عن الهجوم على الساحل الايراني ، وفي يناير سنة ١٩٠٠ م شكت ايران من أن شيخ لنجة سابقاً ، مقيم في حماية شيخ رأس الخيمة ، وكانت ايران تخشاه وتتوقع شره وهنا طلبت بريطانيا منعه من الهجوم على لنجة .

٦ ـ القواسم وجزيرة أبو موسى

لا يخفى أن جزيرة بو موسى من جزر القواسم وكانت السيطرة عليها ، ولا تزال لهم من عهد طويل ، كما أسلفنا الاشارة إليه ، وقد كتب لوريمر في كتابه دليل الخليج[1] انه كان يحكم جزيرة بو موسى هذه ، حكام عرب من القواسم الذين كانوا في لنجة ، ولم يكن يحكمها مسؤول ايراني ، قلت : لكن للقوة ماليس للعجز والضعف ، وانه بعد ابعاد الشيخ العربي القاسمي من لنجة أصبح من حق شيخ الشارقة زعيم القواسم ان يجعل حكم الجزيرة (ابو موسى) في حوزته باعتبارها جزيرة قاسمية .

ورغم ذلك فقد ساد الخوف من ان الحكومة الايرانية تروم ضمها إليها ، وذلك مما يثير الخوف والقلق لأن الحق للقواسم لا لايران في أبو موسى ، فاذا اقدمت الحكومة الايرانية فلا بد من ثوران مرجل الحرب بين الطرفين ، وبذلك يصبح الساحل مهدداً بالخطر ، وكان ذلك مما لاترضاه بريطانيا في طريقها الآمن المُعبَّد ، ولم يكن اهتمام حكومة الهند قاصراً على هذه الجزيرة فقط ، بل كان يشمل جزيرة طنب أيضاً ، أي أن

---

١ ـ الصفحة ١١٣٢ من الجزء الثاني من الكتاب .

بريطانيا كانت تراعي الجزيرتين ، لأنه مما يخل بأمنها ، ولأن لطنب ما لأبي موسى من الأهمية ، وكان شيخ القواسم قد رفع علم القواسم على الجزيرتين معلناً أنهما له لا حق فيهما لغيره ، وذلك سنة ١٩٠٤ م ، ويتابع لوريمر : ان الاحداث أثبتت ان ذلك ضروري ولا بد منـه كاحتياطي نظراً للعواقب التي تخشاها بريطانيا على مصالحها ، وفي نهاية مارس أو بداية ابريل من السنة نفسها قامت هيئة العوائد الايرانية على السفينة الايرانية المسماة مظفري ، وعلى ظهرها مستر دامبرين المسؤول الاوربي عن العوائد في بوشهر بزيارة جزيرتي طنب وأبو موسى فانزلوا علم الشارقة ووضعوا على كل جزيرة رجلا كمسؤول عن العوائد الايرانيـة ، وكان ذلك بنـاء على أوامر مشير الدولة الايرانية (وزير الخارجية) ويقال ان روسيا حركته على ذلك ، وقامت القائمة لهذا الحدث وطال الخطاب ، وبريطانيا صاحبة النفوذ في المنطقة الواقفة بالمرصاد ، وغيّم افق الجو في الخليج ، وارسلت بريطانيا مندوبها إلى طهران حتى صدر الأمر بانزال العلمين معاً ، وانسحب من المكان على الأثر ، وقد تم ذلك في ١٤ يونيو ١٩٠٤ م وبعـد ذلك بعدة أيام اعيد رفع علم القواسم على الجزيرتين ، ودارت السياسة وطال الاحتجاج ، ولم تقدر إيران على اقناع الحكومة البريطانية المسؤولة عـن الجزيرة بحجة معقولة ، ولم يقم الدليل على حقوقها هناك ، وقـام شيخ الشارقة بدوره فأنشأ بناءً جديـداً في طنب وتحركت من أجله ايران ، وأعلنت شكواها واعتراضها ، ويقول المؤرخ البريطاني في ذلك « ان الايرانيين شكوا شيخ الشارقة شكوى لا تقوم على أساس صحيح .

هذا وما زالت الأحوال بين الساحل المتصالح وما حوله من داخلية عمان في اضطراب وقلاقل وهيشات حروب مستمرة منذ سنة ١٨٩١ م ، وهي تقضي بينهم باثارة تلك القبائل بمؤامرات أجنبية ، وقد أرسل شيخ دبيّ مثلاً قارباً مسلحاً لنصرة عجمان ضد الشارقة ، وحضر الشيخ سلطان بن محمد النعيمي أحد الشيوخ الذين لهم النفوذ ، وفي هذه الأثناء كانت هجرة آل مريوة من دبيّ إلى الشارقة حيث أقاموا هناك مصدراً للمشاجرات بين الامارتين وكل منها يتعلق بدعوى ، وفي يناير من سنة ١٨٩٥ م بدأ بدو المناصير وآل مرة بالاعارة على الأقاليم الساحلية من أبو ظبي إلى رأس الخيمة ، حتى استولوا على أكثر من أربعمائة بعير ، كانت أغلبها لبني قتب ، فاستنجد بنو قتب بشيوخ دبي وأبو ظبي واستنفر هؤلاء انصارهم من البدو فتوقفت الغارات بعض الشيء ، ثم عادت أدراجها ، وفي الموسم التالي جاء المناصير مرة اخرى إلى عمان المتصالحة فوجدوا أهلها على استعداد للقائهم فغيروا خطتهم وتظاهروا بالقيام بزيارات لشيوخ دبيّ والشارقة وأم القيوين ، حيث أرغموهم على استقبالهم ، وفي أنفسهم ما فيها ، ثم أفاضوا على الحمرية ولم يكن أهلها على أهبة الاستعداد ، فأغاروا عليهم وأخذوا بعض الماشية وبعض العبيد ، ولكن سرعان ما هاجمهم بنو قتب بمن معهم من أهل الشارقة ، فهزموهم في سنة ١٨٩٧ م واستعادوا منهم ما سلبوه ، وعلى هذا النمط كانت الأحداث الداخلية تجري بتشجيع من الأصابع الأجنبية كما ذكرنا .

* * *

٧ ـ الحريق يتواصل في الساحل المتصالح

جاءت فترة في أواخر القرن الماضي تعرضت فيها بلدان الساحل إلى موجة من الحرائق المدبرة ، فحيث ان معظم مدن عمان المتصالحة تتكون بيوتها من أكواخ مبنية من سعف النخل الجاف وغيره من المواد الخطبية ، والحبال الليفية ، القابلة للاشتعال بسرعة فقد حدثت سلسلة غير مألوفة فيما سبق من حوادث الحريق ، ففي سنة ١٨٩٤ م حدث في مدينة الشارقة حريق أهلك حوالي أربعمائة بيت وقدرت الخسائر فيه بأكثر من ثلاثين ألف روبية ، وكان هذا المبلغ بالنسبة لذلك العهد كبيراً جداً ، كما حدث في دبيّ أيضاً حريق هائل دمر نصف المدينة تقريباً ، إلى جانب منطقة ديرة بأكملها ، ووقع في أبو ظبي حريق مماثل أدى إلى تدمير مائة وسبعين بيتاً ، ونهب البدو الأمتعة التي استطاع الأهالي انقاذها من الحريق ، وفي سنة ١٨٩٧ م اشتعلت عدة حرائق لم يعرف سببها ، لكنه تم القاء القبض على امرأة من العبيد في دبيّ فأعدمت واستمر الحال على هذا المنوال زماناً .

* * *

٨ - حوادث زوراء

من مشاكل الساحل المتصالح الذي يشترك فيه القواسم وغيرهم مشكلة زروراء التي أثارتها مطامع شيخ أبو ظبي إذ أراد الاستيلاء عليها ، وهي مضيق جبلي يمتد على البحر من عجمان إلى الحمرية لكنه مفصول عنها وعن الأرض بخليج لا يمكن عبوره إلا من نقطتين فقط ، فرأى الشيخ زايد ابن خليفة أهمية موقع زوراء وكان يطمح أن يكون زعيم كل قبائل البدو في عمان المتصالحة ، ووجد فيها ملجأ آمنا يمكن ان ترعى فيه قطعانه وقطعان حلفائه ، ورأى أن يجعلها قاعدة هامة لعملياته العسكرية في حالة قيامه بها ضد القبائل المتعددة ، وفي سنة ١٨٩٥ م استطاع أن ينقل إليها كميات من الأسلحة والذخائر ، وهمّ ان يستجلب بني قتب بالمال ليجعلهم ضد جيرانهم ، ولكن سرعان ما تنبه الشيوخ المتصالحون لهذا الامر فقاموا وقعدوا ، حتى أقاموا في طريقه العقبات فوجد نفسه عاجزاً عن تنفيذ ما يريد .

وفي سنة ١٩٠٠ م ، وعقب وفاة الشيخ حميد بن عبد الله شيخ رأس الخيمة ، أعيد ضم زوراء إلى امارة الشارقة بعد ان كانت قد انفصلت عنها وأصبحت امارة مستقلة لمدة احدى وعشرين سنة ، أي من سنة

١٨٧٩ م ، وبذلك أصبحت الامارات خمساً ، وفي سنة ١٩٠٢ م قامت بين شيخ الشارقة وشيخ الفجيرة الشمالية أحوال سيئة ظهرت آثارها بتناول علاقات الشيوخ المتصالحين أحدهم بالآخر ، واذ ذاك طلب شيخ الفجيرة العون من سلطان مسقط وشيخ أبو ظبي وشيخ دبيّ وعجمان وانضم اليهم شيخ أم القيوين ، وكاد أن ينفجر بركان الحرب بينهم إلا أن الامور حجزتها الاقدار ، وفي هذه الاثناء كان شيخ الشارقة قد حمل على الشمال الشرقي ثم عاد ، وفي سنة ١٩٠٣ م قام شيخ عجمان دون التزام بالحلف الدفاعي المعقود بينه وبين دبيّ بالدخول في حلف مشابه مع الشارقة ، وبعده قامت بين الامارتين علاقات ودية ظاهرة وحدث أيضاً تحالف هدأت به الاحوال ، وسكنت النفوس ، وفي سنة ١٩٠٥ م رأى الشيخ صقر ابن خالد القاسمي التخلي عن حرب زعيم الفجيرة الذي تمرد عليه سابقاً .



الفصل السابع

١ ـ الشيخ صقر بن راشد يتولى الامارة

٢ ـ تسلسل الحكم في رأس الخيمة والشارقة

٣ ـ خالد بن سلطان يستقل برأس الخيمة

٤ ـ الشيخ سالم بن سلطان يتولى الامارة بعد خالد

٥ ـ توجه الشيخين سالم وابراهيم الى رأس الخيمة

٦ ـ الشيخ صقر بن خالد بن سلطان يتولى امارة الشارقة

٧ ـ الشيخ صقر بن خالد في رأس الخيمة

٨ ـ الحمرية وتبعيتها للشارقة

٩ ـ الشارقة في عهد صقر بن خالد

١٠ ـ الشميلية وتبعيتها للقواسم

١١ ـ الشميلية في عهد خالد بن سلطان بن صقر

١٢ ـ تولي سالم بن سلطان حكم الشميلية

١٣ ـ الفجيرة وتبعيتها للقواسم

١٤ ـ حكم الشيخ صقر بن خالد للشميلية سنة ١٨٨٣ م

١٥ ـ الاضطراب المتوالي في منطقة الشميلية

١ ـ الشيخ صقر بن راشد يتولى الامارة

لا يخفى أنه في سنة ١٧٧٧ م تنازل الشيخ راشد بن مطر شيخ رأس الخيمة وزعيم القواسم عن رئاسة القبيلة لابنه صقر بعد أن ظل حاكماً بها مدة ثلاثين عاماً ، وقام برئاسة القواسم بعده ابنه صقر ، وفي هذه الاثناء صاهر الشيخ عبد الله المعيني شيخ القشم واستمر المذكور على رئاسة القواسم ردحاً من الزمن ، إلى قريب من سنة ١٨٣٠ م ، تنازل بعدها لابنه سلطان الذي قدر له ان يحكم القواسم أكثر من جيلين كاملين ، وان يشهد في حياته كل عملية التغيير والانتقال من وضع إلى وضع ، وكانت له كل مؤهلات الرئاسة وكان داهية زمانه ، صاحب وعي وادراك ، يبني بالليل مايشهد له به النهار ، وفي سنة ١٨٢٠ م ضمت اليه رأس الخيمة ، وبقي بين الشارقة ورأس الخيمة إلا أن أغلب أحواله كانت بالشارقة ، وكان الحكم المباشر في المدينتين وتوابعهما يتولاه شباب من أقاربه حسب أوامره ونواهيه ، وكان هو بصفة السلطان عليهم .

وباجماع الذين عرفوه كان أهم ما يمتاز به قدرته الفائقة على الاقناع ، وفي بداية حكمه كان الشيخ السلطان يستعين باخوته ثم بابنائه فيما بعد

كممثلين عنه في الحكم المباشر لمدينتي رأس الخيمة والشارقة ، فكان يحكم رأس الخيمة في سنة ١٨٢٣ م محمد بن صقر شقيق الشيخ سلطان ولم يزل حاكماً لها حتى وفاته حوالي سنة ١٨٤٥ م ، وقبل سنة ١٨٣٨ م كان يتولى أمور مدينة الشارقة الشيخ صالح بن صقر شقيق الشيخ سلطان أيضاً ، وهو من أذكى الناس الذين عرفهم الساحل المتصالح في ذلك الحين ، وقد تولى بعده حكم مدينة الشارقة الشيخ صقر ابن الشيخ سلطان القاسمي .

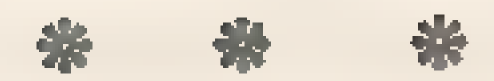
ومما يذكر أن السلطة البريطانية قد نسجت بسياستها عملية لقهر الشيخ سلطان بن صقر القاسمي في لنجة ، وكانت اذ ذاك تحت حكم الشيخ خليفة بن سعيد القاسمي . كما دبرت بأساليبها الخفية نزوح الشوحيين إلى الحوية وعصيانهم هناك ضد حكم الشيخ القاسمي شيخ الشارقة الذي قـــام بحملة لاخضاعها ، وقد نجحت هذه الحملة في النهاية ، ومما يذكر ان المقيم البريطاني العام أرسل وكيل المقيمية حاجي يعقوب على السفينة البريطانية كونيستانس إلى الساحل المتصالح ليشهد خضوع المتمردين للشيخ القاسمي رسمياً ، وظلت سفينة الشركة المعظمة المسماة كونيستانس باقية لعدة أيام هناك ، حتى رفع المهاجون خيامهم ، ومن استقرار عدد كبير من الشوحيين في مدينة الشارقة نستطيع أن نفهم أن الشيخ سلطان بن صقر قد نجح أخيراً في إقناع هؤلاء المتمردين بالعودة لبلاده ، ولكل شيء غاية ينتهي اليها .

٢ ـ تسلسل الحكم في رأس الخيمة والشارقة

يذكر المؤرخ البريطاني لوريمر بأن خلافاً وقع بين شيخ القواسم سلطان ابن صقر وابنه صقر الذي يتولى حكم الشارقة ، والذي حرضه شيخ دبي ليحصل على امتيازات كاملة واستقلال في حكم الشارقة عن سلطة أبيه ، رافق ذلك قلة من التفكير واستهانة بطاعة الأب فاجتمع حوله عدد ممن هم في مثل سنه ، ومع ذلك فقد أعطى الاب الفرصة لإبنه لتحقيق طموحه في حكم الشارقة آملاً أن يتراجع الابن عن أحواله ، وراجياً فيه ان يكون سهماً على عدوه ، متخيلاً فيه نجابة الزعامة ، وظل الشيخ صقر حاكماً على الشارقة ، وكانت له غطرسة الشباب ، فكان يقع بينه وبين جيرانه بعض الامور المثيرة للضغائن حتى لقي مصرعه في قتال نشب بينه وبين أم القيوين سنة ١٨٤٦ م ، فخلفه في حكم الشارقة بأمر من الشيخ القاسمي سلطان بن صقر ابنه الآخر عبد الله بن سلطان القاسمي ، حتى وفاته عام ١٨٥٥ م في الحربة ، وتولى بعده حكم الشارقة الشيخ محمد بن صقر بن سلطان بن صقر القاسمي وكان صغيراً مما دفع عمه خالد بن سلطان لمحاولة ابعاده عن الحكم

مما أدى إلى قتل الشيخ الصغير ، وذلك في عام ١٨٦١ م .

وفي عام ١٨٦٠م تولى الشيخ ابراهيم بن سلطان بن صقر القاسمي حكم رأس الخيمة ، وخلال تلك الفترة كان الزعيم القاسمي الشيخ سلطان بن صقر قد شاخ ، ففقد السمع والذاكرة ، مما أدى به إلى الاخلاد إلى الراحة ، وعدم التدخل في الخلافات الدائرة بين الافراد غير المخلصين له ، وهكذا حتى توفي في عام ١٨٦٦ م .



٣ ـ خالد بن سلطان يستقل برأس الخيمة

بعد وفاة الشيخ سلطان بن صقر في سنة ١٨٦٦ م كما قدمنا ، بعد أن تجاوز الثمانين من العمر ، وتأثر بالضعف من كبر السن ، خلفه ابنه الشيخ خالد حاكم الشارقة الذي قتل ابن أخيه محمد بن صقر سابقاً ، فتولى مشيخة الشارقة على حين ظل أخوه ابراهيم بن سلطان مواصلاً اعلان استقلاله برأس الخيمة ، وفي شهر مايو من سنة ١٨٦٧ م قام الشيخ خالد بن سلطان بفرض سلطته على رأس الخيمة ، وابعد منها اخاه ابراهيم واعاد ضم المدينة وما حولها إلى امارته وحكمه بالشارقة وكان الشيخ خالد قد اصيب بجرح سابق لم يزل باقياً به ، حتى كان سبب وفاته في اليوم الرابع عشر من شهر ابريل من السنة المذكورة .

* * *

٤ - الشيخ سالم بن سلطان يتولى الامارة بعد خالد

في سنة ١٨٦٨ م احتل الشيخ سالم بن سلطان مكانة أخيه خالد ، وكان خالد لما أدركته الوفاة عهد بحكم رأس الخيمة إلى ابن شقيقه حميد بن عبد الله بن سلطان ، الذي اعلن استقلاله برأس الخيمة ، وفصلها عن الشارقة في سنة ١٨٦٩ م واستمر الوضع كذلك إلى ان انتهى عمره في سنة ١٨٨٣م ، وفي ابريل سنة ١٨٦٩ م وصل وكيل الوهابيين في البريمي إلى الشارقة بقصد التوسط في بعض الخلافات الناشبة في الساحل ، وبدأ يتعاون مع الشيخ ابراهيم بن سلطان ليعود إلى حكم رأس الخيمة بدلاً من حميد بن عبد الله ، وحداً من سلطة الشيخ سالم بن سلطان عليها ، وفي تلك الأيام جاء الشيخ حميد بن عبد الله من رأس الخيمة إلى الشارقة فحدث هرج ومرج في المدينة كان من نتائجه مصرع بعض الأشخاص بينهم وكيل الوهابيين الذي اصيب بطلقة نارية ، وانتهى ذلك الهرج والمرج وقام الشيخ سالم بن سلطان باعلان استعداده للتنازل عن الحكم لشقيقه ابراهيم وظلت العلاقات بين الاخوين طيبة ولم يحدث أي تنازل فعلي عن الحكم وبعدها بعدة شهور عاد الشيخ سالم بن سلطان إلى تولي الحكم بشكل رسمي .

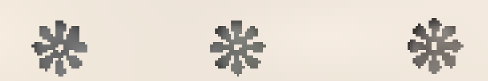
* * *

٥ ـ توجه الشيخين سالم وابراهيم

الى رأس الخيمة

لا يخفى أن سالم بن سلطان كان رجلاً عاقلاً حازماً ، لا يقل حزماً عن والده ، وفي نفس الوقت ، أي أوائل شهر مايو سنة ١٨٦٩ م حين كان أمير رأس الخيمة كما عرفت عنه ، خرج الشيخان سالم وابراهيم من الشارقة عن طريق البحر لاعادة رأس الخيمة إلى حكم الزعيم القاسمي وابعاد ابن أخيهما حميد بن عبد الله منها ، الذي كان قد أعلن انفصاله واستقلاله بها ، وانزل الشيخان بعض قواتهما في موقع على البر لحماية اسطولهم الرامي في الخليج الذي كان بمجموعه اثنين وثلاثين سفينة ، وكان من سوء الحظ ان تلقى الكولونيل بيللي المقيم السياسي البريطاني في الخليج ، وهو في طريقه من مسقط إلى دال هوزكه معلومات من لنجة تفيد أن القواسم يهددون بارتكاب اعتداء خطير على السلم البحري ، فغاظه ذلك ، وعندما استقل القارب المسلح المسمى الهج روز عبر الخليج إلى رأس الخيمة ، وقد وصلها في الثاني عشر من شهر مايو ، فوجد الشيخين سالم وابراهيم قد خرجا من الشارقة بمن معهما لمهمتهما ، وفي ليلة وصوله ، وكان

لا يزال على ظهر السفينة ، تلقى خطاباً من شيخ القواسم أكد فيه أن هدفه الوحيد من هذا الهجوم هو وضع الشيخ إبراهيم على حكمها ، وفي يوم ١٣ مايو ، وبعد لقاء مع قادة الجانب الآخر ، أمر المقيم المذكور المشايخ ومن معهم بسحب اسطولهم وقواتهم قبل غروب الشمس ، وبقي المقيم في مكانه إلى مابعد الغروب ، وكانت السفن قد انسحبت جميعها من مراسيها ، واتجه هو أيضاً إلى مسقط ، وكأن حكومته قد شكرته على ذلك ، ولا شك انها تشكره لأن البحر في يدها ولا تقبل فيه إلا ما يكون عن طريقها .



٦ - الشيخ صقر بن خالد بن سلطان

يتولى امارة الشارقة

لا يخفى ان الثمر من الشجر ، وان تطلعات الشباب تتجه نحو سير آبائهم ، وأجدادهم ، لأنهم ينزعون إلى الزعامة ، ويتنافسون على الامارة ، ويطمحون إلى صنع الأحداث ، ومقارعة الزمان ، كما يقول الشاعر :

ومن تكن الأسد الضواري جدوده   يكن ليله صبحاً ومطعمه غصباً

من هذا المبدأ قام الشيخ صقر بن خالد وهو دون العشرين من عمره ، بالسعي لحكم الشارقة وذلك في نهاية شهر مارس ١٨٨٣ م ، مستغلاً خروج عمه الشيخ سالم بن سلطان إلى جزيرة أبو موسى ، حيث كانت خيله وعدته بذلك المكان الآمن المطمئن ، حيث تطيب المراعي لخيله ساعياً لتجميم النفس وأخذ الراحة لها ، وفي نفس الوقت سار شقيقه أحمد بن سلطان في رحلة إلى رأس الخيمة ، وهو الذي كان ينوب عن أخيه الشيخ سالم عند غيابه .

هنا قام الشيخ صقر بن خالد ، وقد تركه أعمامه ليكون مسؤولاً

عن الشارقة في حال غيابها عنها ، بانتهاز الفرصة وأعلن نفسه حاكماً عليها ، وسرعان ما اعترف بالحاكم الجديد كل من شيوخ رأس الخيمـــة ، وأم القيوين ، وعجمان ، ودبيّ ، كما أيده الشيخ محمـد بن علي النعيم صاحب البريمي ، والمطوع القتبي قائد جماعة في المنطقة . وقـد سهل هـذا النجاح فتور شعبية الشيخ سالم الذي لم يكن ميء السياسة ، بل لأن من طبع نفوس العامة التقلب والملل حتى في المصالح . . . وسرعان ما انكشف ضعف هذا الشاب وعدم قيامه بتنفيذ ما قطعه على نفسه من عهود ، وكان الشيخ سالم في جزيرة أبو موسى ينظر في الحال ، ويتابع الأمور ، ويتحين الفرص للسير فقام في شهر مايو بزيارة للشيخ يوسف أحد شيوخ القواسم في لنجة ، ثم انتقـل في شهر يوليو إلى دبيّ حيث تم هناك عقـد تسوية بينه وبين ابن شقيقه صقر بن خالد المتمرد عليه ، وتضمنت التسوية اعتراف الشيخ سالم بابن أخيه مقابل الحصول على مبلغ ستمائة روبية ، واسترداد أملاكه الخاصة في الشارقة ، وأن يقـوم صقر بن خالد بسداد الديون المستحقة عليه في الشارقة ، وقد ضمن تنفيذ هذه التسوية شيوخ دبيّ ورأس الخيمة وانتهت القضية على هذا الأساس ، وبقي الشيخ سالم بن سلطان حاكماً للشارقة ...

ومرت الأيام ، وحب الزعامة يعتمـل في النفوس ، وحب الرئاسة والتسلط لا يترك الأمور على قرار ، وبذلك تسقط أهمية البلدان والقرى والامارات ، ففي سنة ١٨٨٤ م قامت الضوضاء على اتفاقية التسوية الموقعة

بين الشيخ سالم بن سلطان وابن أخيه صقر بن خالد بواسطة شيوخ رأس الخيمة ودبي" ، وأخذ بعضهم على الشيخ سالم اقامته في جزيرة أبو موسى ، وهو الذي يعتقد عدم صدق النية في تنفيذ التسوية ، وان الخيانة متوقعة ، ففضل البقاء في جزيرة أبو موسى إلى أن ينجلي الأمر . وأثناء ذلك صاهر الشيخ صقر بن خالد شيخ رأس الخيمة وتحالف معه ، وكان المقيم البريطاني يرى كل مايحدث بين القوم ويسمع ويلاحظ وقيد النار وهو يضحك دون أن يتدخل للخير ، متظاهراً بأن تلك الأمور داخلية لا دخل له فيها ، والحقيقة ان صولجان الامارة في يده يفعل به ما يشاء .

وفي شهر يونيو من السنة نفسها ١٨٨٤ م ظهر الشيخ سالم بن سلطان في عجمان ، وهنا تبين للمقيم البريطاني ما يحاوله الشيخ سالم فأوقف المياه عن مجاريها واستدعى الشيخ صقر إلى عجمان وجمع بينه وبين عمه ، وجعل الشاب صقر بن خالد هو الشيخ الحاكم على الشارقة وقرر للشيخ سالم على ابن أخيه مبلغاً من المال مقداره أربعمائة دولار سنوياً ، مع حاصل خراج جزيرة أبو موسى الذي كان يصل في ذلك العهد إلى مائتي دولار ، وان يعطيه أيضاً مائتين وخمسين دولاراً عن السنة السابقة ، وبهذا كف الشيخ سالم عن الامر ، مترقباً أفعال ابن أخيه الذي مالبث أن زحف في شهر ابريل ١٨٨٤ م من الشارقة إلى الحمرية لاستعادتها بعد أن ظلت منفردة عن الشارقة لمدة اثنى عشر عاماً ، وأرسل حاكم الحمرية سيف بن عبد الرحمن إلى الشارقة ، ولما وصل قبض عليه وأرسل شقيق المذكور محمد بن عبد الرحمن وهو من اتباع الشيخ صقر ليتولى أمر الحمرية ، ولكن

سيف بن عبد الرحمن سرعان ماعاد إلى الحمرية وطرد أخاه منها واستعاد مكانته فيها .

بعد هذا جرت محاولات من الشيخ سالم لاستعادة حكمه بالشارقة فنزل بعجمان في شهر يونيو ١٨٨٦ م ملتمساً العون ، ولما لم يجد فيها غرضه عاد إلى أبو موسى معقله المنيع ، وحاول مرة اخرى الوصول إلى هدفه ، فنزل في دبيّ سنة ١٨٨٨ ملتمساً منها ما التمسه من عجمان ، إلا أن شيخ دبيّ أكد للشيخ سالم عزمه على تنفيذ الاتفاق الموقع بين سالم وابن أخيه صقر والذي قطعه صقر عندما علم بمحاولات عمه الانقلاب عليه ، وتعهد شيخ دبيّ للشيخ سالم برد ما قطع عنه من المدد ، ولكن هذا كله لم يثن الشيخ سالم عن عزمه الذي يراه حقاً ، فأعد حملة على الشارقة لكن العوائق أفشلته حتى تدخل الناس بين الطرفين ، فتصالح الشيخان ، وتآلفا وكرم صقر عمه سالم كما ينبغي فهدأت النفوس عما كانت عليه .



٧ ـ الشيخ صقر بن خالد

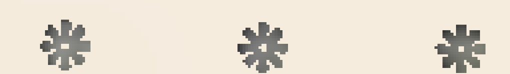
في رأس الخيمة

في الثاني من شهر اغسطس سنة ١٩٠٠ م ساء حظ الشيخ حميد بن عبد الله بن سلطان شيخ رأس الخيمة ، ففوجيء بضربة عنيفة قضت عليه ، وهنا قام صقر بن خالد منتهزاً الفرصة ، فتولى أمر رأس الخيمة وتوابعها وضم الكل إلى الشارقة بدون أي منازع ، وعين ابن عمه حمد بن ماجد ابن سلطان والياً عليها ، لكنه بعد فترة لم يرض بأعماله ، ولعله خافه عليها ، فعزله عنها ، وعين ابنه خالد بن صقر بن خالد .

٨ ـ الحمرية وتبعيتها للشارقة

لم تزل الانظار في تلك الفترة ملتفتة إلى الحمرية التي ظل شيخها جاهداً في محاولاته للوصول إلى اعتراف بريطانيا به ـ والحمرية امارة مستقلة كباقي الامارات ـ نظراً لانفراده بالحكم عن الشارقة مدة طويلة ، وبينما كان المقيم البريطاني العام (كيرزون) يزور الساحل المتصالح لتفقد الأعمال ومجاريها والتعرف على مدى هيبة بريطانيا وسلطانها ، تقدم شيخ الحمرية مطالباً (كيرزون) باعتراف بريطانيا بالحمرية امارة مستقلة مثل غيرها من الامارات ، ولكن المقيم البريطاني لم ير اجابته إلى طلبه ، لأن الحمرية تابعة للشارقة باعتراف بريطانيا ، وهكذا بقيت الامور على حالها حتى كان اليوم الثالث من شهر سبتمبر ١٩٠٤ م حيث مات شيخ الحمرية الشيخ سيف بن عبد الرحمن فتولى أمرها ولده عبد الرحمن بن سيف ، الذي سرعان ماتخلى عن منصبه لقريب له يخشى منه طموحه ، ويخافه على نفسه ، يقال له سيف بن سيف الذي تولى أمر الحمرية وامتد هذا بأطماعه فحاول ان

ينتزع أملاك عبد الرحمن الخاصة به ، ليجعله يمشي بحال سيئة ، فأثار بذلك غيظه وأحمى حفيظته فقام المذكور بالهجوم على سيف في بيته ليلاً فأسره وقتل ابنه ، وحاول أن يتولى أمر حكم الحمرية بنفسه مرة أخرى ، إلا أن الشيخ راشد شيخ أم القيوين تدخل وأصلح بين الرجلين ونقل سيف بن سيف إلى أم القيوين التي استمر بها تحت رعاية شيخها .



٩ ـ الشارقة في عهد صقر بن خالد

يقول المؤرخ البريطاني لوريمر : . . . ان مكانة الشارقة في عهد صقر بن خالد أصابها الضعف بين الامارات المتصالحة وهبط اسمها ، لأن الشيخ صقر كان في حياته الخاصة ضعيفاً ، وفي حياته العامة غير مبال بشيء ، وكان عاجزاً عن ممارسة الحكم كسلفه الشيخ سالم ، وقد ابتعد عنه رعاياه وانصاره السابقون من البدو الذين كانوا يؤيدون مواقف الزعامة القاسمية ، لأنه لم يكن يلتفت إلى مشاكلهم وقضاياهم . . . لهذا همّ الرعايا بخلعه وجعل عمه سالم مكانه إلا أنه علم بذلك التخطيط فأحبطه وقبض على أخيه محمد بن خالد أحد كبار المخططين ضده فسجنه ، ولكنه هرب من سجنه ، ولجأ إلى شيخ أم القيوين وولى صقر ابنه راشد على الشارقة ، فكان الابن كأبيه ، دون أي فارق بينهما حتى مات الشيخ صقر بن خالد سنة ١٩٠٦ م ، وكان لايزال يتولى حكم رأس الخيمة خالد بن صقر بن خالد بن سلطان الذي ولاه أباه الحكم ، حتى وافته المنية سنة ١٩٠٧ م .

هذا هو شأن الأيام يعبر التاريخ عن أحوالها ويعرب عن طواياها

ويبرهن على أفعال أهلها بما يكون معتبراً للآتي أو قانوناً يمشي عليه ، أو دستوراً يعتمده ، وللناس اخلاق ونوايا مختلفة ، وفيهم الصالح والطالح والغث والسمين ، ولا يخفى ان لكـــل وقت سياسة لا تصلح في سائر الاوقات ، ولكل قوم عمل في أيامهم ، وتلك سنة الله في عباده ، ومن يتفكر أوضاع الايام يرى عجباً ، وذلك يدل على قدرة الواحد الاحد ، فلا تصرف للطبيعة ولا سلطان لغير الله .



١٠ - الشميلية وتبعيتها للقواسم

يطلق اسم الشميلية على المناطق الواقعة بين بلدة دبا على خليج عمان شمالاً وخور فكان جنوباً ، وبتعريف آخر هي البلاد التي تشملها المنطقة الواقعة بين خور فكان ودبا .

وقد مرت بالشميلية أحوال وتقلبات سياسية وغير سياسية في الماضي ، منها ماهو داخلي ، ومنها ما هو خارجي أيضاً ، حتى أن تاريخها يصعب تفصيله أو تأصيله ، ولكن من حيث أن للقواسم فيه مسرحاً ، كسائر الساحل الشمالي المتصالح فإننا نلخص النقاط التالية :

كان القسم الشمالي من منطقة الشميلية منذ سنة ١٧٩٨ وحتى سنة ١٨٥٠ م ، أي لمدة اثنتين وخمسين سنة تحت حكم القواسم ، وقد قام سلطان عمان في حوالي سنة ١٧٩٨ م بغارة بحرية على دبا ، فووجه بدفاع قوي ، ويبدو أن المدافعين عنها كانوا من قبائل الشرقيين والنقبيين ، فاستطاعوا رد الهجوم الذي قام به السلطان بعد تكبيده خسائر فادحة ، فرجع السلطان عنهم ، تاركا المنطقة إلى فترة اخرى ، ذلك أنه كان يرى أن عمان كلها ساحلا وداخلا من جملة أملاكه ، ولكن لما رأى ما وقع

منهم عليه ، وأنهم مصممون على العداء تركهم منتظراً فيهم أمراً ، هـذا من ناحية السلطان ، أما من ناحية القوامم فقد قام الشيخ القاسمي الكبير سلطان بن صقر على هذه الناحية في أواخر القرن الثامن عشر ووضع يده عليها ، وبسط نفوذه على خور فكان ، ويعتبر هذا الخور من أهم المواقع على ساحل الشميلية ، فأقام عليه قاعدة عسكرية ، وحصّن الخور ليكون أحد موانئه وملجأ مهماً وآمناً لنفسه .

ولما تحقق سلطان عمان من وجود القواسم في خور فكان بصفة رسمية ، تحرك وقام بتجهيز عدة قوية هجم بهـــا على خور فكان ، وبسط نفوذه عليها ، وارغم القواسم على الابتعاد عن البلدة بعون ومساعدة عمه قيس بن أحمد حاكم صحار ، وبعون الشيخ محمد بن مطر الشرقي في الفجيرة ، وقد كان ذلك في سنة ١٨٠٨ م وسرعان ما عاجـل القواسم بالهجوم على خور فكان واسترداده من سلطان عمان ، وفي عام ١٨٠٩ م جاء الوهابيون إلى اطراف الشميلية وما حواليها ، وتولوا هذه الحوزة القاسمية ، فاحتلوا حصن البطنة وحصن الفجيرة وخور فكان بقوتهم وقوة مؤيديهم وأنصارهم ، وهاجموا بلدة شناص على خليج عمان ، فاحتلوها ولما رأى السلطان ذلك العمل الذي ربما تطور إلى حد أبعد ، تفاهم مع البريطانيين الذين تعهدوا له بارجاع بلدة شناص إليه .

في أوائل سنة ١٨١٠ م خرجت الحملة من مسقط ، وهي حملة مشتركة

من العمانيين والبريطانيين فاستعادت بلدة شناص ، ولم يقدر محتلوها على الدفاع عنها إلا أنه لم يستقر قرارها في يد السلطان حتى رجعت القهقرى وخرجت من سلطته ولم يستطع السلطان اعادة نفوذه إلى بعض المناطق في الشميلية إلا بعد الهجوم البريطاني الكبير على القواسم في رأس الخيمة خلال سنة ١٨١٩ و ١٨٢٠ م .

وفي سنة ١٨٣١ م اتفق سلطان مسقط والشيخ القاسمي سلطان بن صقر على أن يتنازل الشيخ القاسمي لسلطان مسقط عن خور فكان ودبا ، مقابل مساعدة السلطان لشيخ القواسم بحرب صحار ، وكان السلطان يرمي من وراء ذلك إلى اخراج عمه قيس من صحار بيد القواسم ، حتى يأمن منه ، ثم يعود بعدها لبسط نفوذه على صحار وكف يد القواسم عنها ، بأية صفة كانت حرباً أو سلماً ، فقبض السلطان على خور فكان ، ثم تجهز لزنجبار في عام ١٨٣٢ م ، وعندها صال الشيخ القاسمي على خور فكان واستعاد الشميلية ، من السلطان الذي قامت عليه اضطرابات داخلية بسبب ثورة محمد بن ناصر الجبري واتباعه .

وفي سنة ١٨٣٥ م سار شيخ القواسم سلطان بن صقر في اسطول قاسمي إلى دبا وخور فكان ، وكانت بريطانيا قد تلقت شكاوى من مسقط بأن القواسم قد سلبوا سفناً تابعة لمسقط وغيرها ترفع العلم البريطاني ، وهذا ما اتخذته السلطات البريطانية فيما بعد مبرراً للتدخل ضد القواسم ومساعدة

سلطان عمان في ضم خور فكان وبلدة غالة إليه ، بعد أخذها من يد القواسم .

ولم يتوقف بعدها شيخ الشارقة القاسمي عن المطالبة باستعادة هذه الأملاك والاقليم كله ، فمرت المنطقة طيلة تلك الفترة وحتى سنة ١٨٥٠ م بنزاعات متكررة ، حتى انتهى ذلك النزاع في ذلك العام بين العمانيين والقواسم على ملكية هذه الأطراف ، وقد حدث ذلك عندما سارع الشيخ سلطان بن صقر إلى مساندة قيس بن غران بن قيس بن الامام أمير صحار ، فاستولى الحليفان على بلدة شناص في الباطنة وعلى غالة وخور فكان في الشميلية فاقتسماها فيما بينهما ، وقد وضع الشيخ القاسمي يده على البلدتين الساحليتين في الشميلية .

وعند وصول السيد سعيد سلطان مسقط قافلا من زنجبار سنة ١٨٥١ م سحب الشيخ القاسمي تأييده عن السيد قيس بن غران ، وبذلك تسنى لسلطان مسقط أن يطرد قيس ، ليس من شناص وحدها ، بل من صحار أيضاً ، ويعتقد البعض أن هناك اتفاقاً مرتباً بين السلطان والشيخ القاسمي على ماتم .

وبهذا بقيت الشميلية كاملة في ملكية الشيخ القاسمي الذي كان حياده متوقعاً مقابل تعهد سلطان مسقط على ابقاء الوضع كما هو ، ومضى

وقت ، والشميلية في يد الشيخ القاسمي وصحار في يد السلطان ، أما قيس بن غران فهو في الرستاق من داخل عمان .

ومما يجدر ذكره ان الشيخ القاسمي سلطان بن صقر عين حفيده الشيخ مشاري بن ابراهيم حاكم رأس الخيمة ، حاكماً على دبا ، وكان أهم ما حدث بعد ذلك هو وفاة الشيخ مشاري بن ابراهيم مقتولاً في حادث وقع له خلال سيره إلى البيعة .



١١ ـ الشميلية في عهد خالد بن سلطان بن صقر

عرفنا أنه بعد وفاة الشيخ سلطان بن صقر زعيم القواسم ، تولى شأن الامارة بعده ، ابنه خالد سنة ١٨٦٦ م وعندها استغل بعض زعماء قبائل الشميلية الفرصة ، فقاموا باضطرابات وعصيان ، من ذلك امتناع زعيم الفجيرة عن دفع خراجها للشيخ القاسمي ، وهكذا . . ثم سكنت الأمور وسارت كما ينبغي رهبة من القوة القاسمية التي قاتلت بريطانيا بشدة دون خوف ولا وجل .. ولم يطل عمر الشيخ خالد بعد وفاة أبيه الشيخ سلطان إذ توفاه الله في سنة ١٨٦٨ م ، وعندها اضطرب الأمر وهاج مرة اخرى ، حتى سكن بامارة شيخ جديد هو الشيخ سالم بن سلطان ابن صقر .

١٢ ـ تولي سالم بن سلطان حكم الشميلية

لما انقضى دور خالد بن سلطان تولى الشيخ سالم بن سلطان امارة القواسم وقام بشؤون الزعامة القاسمية ، وبعد مدة من توليه أمور الامارة ، ألف قوة للقضاء على الاضطرابات واعادة الأمور إلى نصابها في الشميلية ، وقد أرسل هذه القوة إلى بلدة دبا بقصد اعادة الواحة كلها ، أو على الأخص القسم الذي لم يكن خاضعاً له إلى سيطرته ، إلا أن الشرقيين الذين لذ لهم الاستقلال وتذوقوه في تلك المدة الوجيزة التي أشرنا اليها آنفاً ، رأوا صد هذا الشيخ عن محاولته ، ورده ان استطاعوا فتجمعوا تحت قيادة شيخ الفجيرة لمناهضة الزعيم القاسمي سالم بن سلطان ، وتحالفوا مع الشحوح تحت قيادة الشيخ صالح بن محمد شيخ البيعة ، وتجمعت الجموع وحوصرت القوة القاسمية في دبا بقوات الشرقيين والشحوح حتى سدت الطرق المؤدية إلى دبا براً وبحراً بينما كانت الطرق البرية تمر بين جبال الشحوح وهم يسيطرون عليها ، بالاضافة إلى الطرق البحرية المؤدية إلى هذه المنطقة أيضاً ، ولما عجز الشيخ سالم بن سلطان عن ارسال نجدات من الشارقة

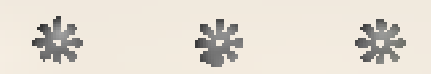
بالطريق البري ، لأن جميع الممرات بين الجبال كانت في أيدي الشحوح ، أرسل أحد إخوانه لعقد تسوية ودية ، وقد نجح المبعوث القاسمي بمهمته وخضع الشرقيون للقواسم ووعدوا بدفع الجزية على حـــد تعبير المؤرخ البريطاني ، من هذا يتبين ان الزعامة القاسمية قد سيطرت على المنطقــة واستمرت سيطرتها مدة غير طويلة حتى قامت الاضطرابات فبعث الشيخ القاسمي خمسين رجلا إلى دبا ، بعدائهم وذخائرهم بطريق البحر فتمكنوا من الوصول إليها ، وكانوا قوة اضافية للوالي التابع للقواسم ، كما وصل قائد السفينة الحربية البريطانية المسماة (عرب) إلى دبا في محاولة للتدخل في الأحداث ، وفي نفس الوقت وصلت عـن طريق شناص قوة مؤلفـة من ثمانمائة رجل من القواسم ، واستولت على قلعـة عنـد الغرفة تسمى (الغرايفة) .



١٣ - الفجيرة وتبعيتها للقواسم

في ربيع سنة ١٨٧٩ م وقعت بعض الاضطرابات في الفجيرة ضد الوالي سرور فطردوه ووضعوا مكانه رجلا اسمه مرزوق ، وعلى أثر ذلك بعث الشيخ القاسمي قوة إلى قلعة الفجيرة للمحافظة على الأمن ، وفي سنة ١٨٧٩ م دارت مباحثات بين سلطان عمان تركي بن سعيد والسلطات البريطانية حول مطالبة السلطان ضم الفجيرة إلى سلطته ، ولكنه اقتنع بأن تدفع الفجيرة جعلا معلوماً للشيخ القاسمي واتضح عند ذلك ان السيد تركي سلطان مسقط قد سبق له أن أعطى في سنة ١٨٧١ م سنداً لشيخ الشارقة يُقِرّ فيه بأن الساحل من خور كلبا إلى الشارقة ، وحتى دبا ، تابع للقواسم عدا خصب ، إلا أن السلطان رأى أنه في حل من هذا الاقرار بعد أن تسلم حكم السلطنة ، فأبدى تأييده لحمد بن عبد الله زعيم الفجيرة ضد القواسم ، ولم تكن بريطانيا تسمح للقواسم بالتحرك عن طريق البحر ، فتباحث الشيخ القاسمي مع المقيم السياسي البريطاني في بوشهر الكولونيل روز ، وقد انتهى ذلك النزاع بعد ذلك بتوسط شيخ رأس الخيمة ، وتم

الاتفاق على خضوع شيخ الفجيرة لشيخ الشارقة واعترافه بسيادته مع دفع الجزية المتعارف عليها ، وحُرر بهذا الاتفاق سند كتابي وقعه حمد بن عبد الله سنة ١٨٨١ م ، وبذلك حل الهدوء ، على أن لبريطانيا سياسة في المنطقة تخططها وتنفذها وهي التي تحل وتعقد ما تشاء بالقوة وقد برهنت الأحوال في ذلك الزمان على هذه الأعمال .



١٤ ـ حكم الشيخ صقر بن خالد
الشميلية سنة ١٨٨٣م

عندما تولى الشيخ صقر بن خالد امارة الشارقة سنة ١٨٨٢ م وجد ان الشميلية تنقسم إلى قطاعين أحدهما يتصل بدبا ، ويحكمه الشيخ أحمد بن سلطان ، ولم يحاول الشيخ صقر اجراء تعديل مباشر على ذلك ، وأعطى الحكم في القسم الثاني المشتمل على خور فكان والمناطق المتعلقة بها لأخيه ماجد ، ولم ير ابعاد أقاربه حتى لا يكونوا ضداً له ، وقد شغلهم بهذا وآلفهم في سياسته ، إلا أن حمد بن عبد الله شيخ الفجيرة كان حريصاً تمام الحرص لطبعه الثائر ونفسه المتمردة التي لازالت تحاول الاستيلاء على الغرفة وعلى قلعة الجبل المهمة الواقعة في البطنة في وادي حام ، ليسيطر على المدخل إلى الساحل المتصالح في هذه المنطقة للتحكم في المخارج بين ساحل عمان المتصالح والشميلية ليكون له نصيب وافر من المنطقة المشار اليها ، ولم يلبث أن بادر بالهجوم ، واستولى على المكانين دون انتظار لاشارة ثانية ، وبدلاً من الاعتراف بفضل امتلاك هذه المواضع الجديدة للشيخ صقر ووضعها تحت تصرفه فان حمد بن عبد الله تقرب إلى شيخ رأس

الخيمة طلباً لحمايته ، وطمعاً في عونه له إذا ثار عليه الشيخ صقر بن خالد ، ولكن شيخ رأس الخيمة لم يكن راغباً في تكدير صفو الشيخ صقر بن خالد ولا يحب شق العصا عليه ، وكان الصقر ذا رأي له أهميته ، إلا أن خصمه لم يتركه ساكناً ، بينما لم يحرك هو ساكناً عليه ، أي أن صقراً لم يفعل شيئاً من شأنه تغيير الوضع بينه وبين حمد المذكور مع سيطرته على تلك الأماكن وهي كما علمت من أعمال الشيخ صقر أمير الشارقة ، وبذلك بقي حمد بن عبد الله يتعسف يميناً وشمالاً ورأى أهلُ هذه المواطن عدم حركة صقر بن خالد إلى جانب حمد بن عبد الله ، فاستصرخوا سلطان مسقط في شهر يوليو سنة ١٨٨٦ م وكان الواسطة في هذا الصدد والى صحار ، الذي نقل له بأن أهالي خور فكان ودبا والمناطق المجاورة يرغبون في أن يكونوا تحت حماية سلطنة عمان ، فطلب السلطان مشاورة الكولونيل مايلز الذي كان فيما سبق معتمداً سياسياً في مسقط ، والذي أصبح في ذلك الوقت قائماً بأعمال المعتمد المقيم في الخليج ، فأجابه أن التدخل في شؤون الشميلية في الوقت الحاضر أمر غير مرغوب فيه اذ قد يؤدي إلى صدام مع الشيخ القاسمي الذي كان السلطان معه على وئام ، وقد يؤدي إلى الاضرار بمصالح السلطان نفسه ، وكان هذا الجواب ، وقد اعتمدته حكومة الهند ، كافياً لاقناع السيد تركي سلطان عمان بالعدول عن تلك الرغبة الموجهة اليه ، فأشعروا والى صحار بذلك حيث رضخ لهذا الرأي الذي تعتمده بريطانيا ، وفي سنة ١٨٩١ م وقع اضطراب في الطرف الشمالي المشار إليه ، وذلك أن بعض رجال قبائل الشحوح أغاروا على قرية هير ، فأحاطوا

بالقلعة ودمروها تدميراً تاماً ، وقتلوا عدداً من السكان ، وبقيت الأحوال مضطربة ، فأراد شيوخ الشارقة ورأس الخيمة تعمير القلعة ، فقاموا في سنة ١٨٩٤ م بتنفيذ الخطة المرسومة لهذه العملية ، فضايقهم الشحوح ، فوقعت ضوضاء ومخاوف أخرت العملية عن مجراها ، ومضى الحال إلى سنة ١٩٠٠ م وفيها توفي شيخ رأس الخيمة وأضيفت تلك المناطق إلى شيخ الشارقة صقر بن خالد المذكور ، وكانت الشميلية كما قدمنا مقسومة إلى قطاعين شمالي وجنوبي بعهد ولاية راشد بن أحمد وحمد بن ماجد ، وكان حمد بن ماجد يتقاضى من الفجيرة جُعلاً سنوياً قدره ألفا شلن مع خمسين جلداً من التمر ، واثني عشر قنطاراً من الحنطة وعشرة جنيهات ذهب نقداً ، واستمر الوضع هادئاً حتى سنة ١٩٠١ م سنة حيث وقع اضطراب في دبا أيضاً ، ولعله قام به الشحوح فطلب شيخ الشارقة من حمد بن عبد الله شيخ الفجيرة التوسط نيابة عنه بالأمر ، فاستغل حمد بن عبد الله هذه الظروف وعمل بها لنفسه ، فاضطرب الحال وتغير الوضع وهبت على هذه الأحوال ريح ذرت ذلك الأمر في العراء ، فتعددت المفاوضات في هذا الموقف ولكنها كانت عقيمة .

* * *

١٥ ـ الاضطراب المتوالي في منطقة الشميلية

من البديهي أن الفوضى تحدث الاضطراب والقلق في المناطق التي ليس فيها حاكم بيده زمام الأمر يخافه الناس فيحذروه ، حدث كل هذا لأن شيخ الفجيرة كان يتلون لمجاوريه ويراوغهم ، فلما علم المقيم البريطاني بهذه الاضطرابات التي تسعى لاضرام نار الفتنة قام الكولونيل كامبول بمحاولة تسوية هذه المهمة وتهدئة هذا النزاع ، فأرسل الميجور كوكس لزيارة الفجيرة وتلاه المعتمد البريطاني السياسي في مسقط الذي أبدى له حمد بن عبد الله اعتراضه بأن الاتفاقية المبرمة سنة ١٨٨١ م والتي وقعها هو لاتشمل بلدة الفجيرة ، وعلى هذا حذر المعتمد البريطاني شيخ دبي الذي سبق له التدخل بالمنطقة من التدخل بالقضية ومنع السيد فيصل بن تركي سلطان عمان من مساعدة شيخ الفجيرة الذي كان ذهب شخصياً إلى مسقط طالباً المعونة من السلطان المذكور ، ولا يخفى أن الأمور كانت متأزمة من هذه النواحي ، وربما صار لها مدى بعيد . ولكن بهذه الحال سارت المياه في مجاريها وهدأت الأمور ، وهكذا كان الوضع عندما كلف الكولونيل كبول

وكيل المقيم في الشارقة ليبدأ في تشكيـــل مجلس صلح ، وكان شيخ القواسم راغباً في تسوية الأمر بينه وبين حمد بن عبد الله وأن يعطي خصمه صك أمان ليظهر في الشارقة .

وفي الجانب الآخر كان شيخ الفجيرة يطمع في الاستفادة من تأييد شيخ دبيّ له ودعم غيره من الشيوخ ، لأنه يجب أن لا يضيع هـــذه الفرصة ، فلذلك كان غير موافق على هذا الاتفاق ، وأبدى عدم رغبته في حضور اجتماع الشارقة ، وفي اكتوبر من سنة ١٩٠٢ م ، وبناء على طلب السلطات البريطانية السياسية ، أرسل السيـــد تركي حاكم مسقط أوامره إلى الشحوح بالبيعة للامتناع عن تأييد حمد بن عبد الله ، وفي الوقت نفسه أعلن الشيخ صقر بن خالد أسفه لموقفه السلمي .

وفي هذه الظروف قررت حكومة الهند أنه لا داعي للتدخـــل بين الاطراف المتنازعة ، والمعنى أن الأمور تطورت حتى وصلت إلى مركز الحكومة الهندية البريطانية ، فأجابت بهذا الجواب الظاهر منه الكفاف منها وطلباً للشقاق بين الأطراف ، حتي يتقاتلوا لأن كل مايكون بينهم هو في صالح بريطانيا ، بشرط أن يعلم كل طرف بضرورة صيانة الأمن في البحر ، وبذلك تركت السلطات البريطانية بالهند المختلفين حق التصرف بالطرق التي يراها كل طرف ضد الطرف الآخر ، وفي ابريل ١٩٠٣ م ارسل شيخ الشارقة حملة إلى الفجيرة بقصد اعادة الامور إلى نصابها فوصلت إلى البطنة ، وهكذا ارغم حمد بن عبد الله رغم اعادة تلقيه المساعدة من شيخ البيعة ، على قبول المسالمة وقبول التبعية لحاكم الشارقة ، وان يوقع

اتفاقاً موقتاً ، وعلى هذا ، وجه لورد كرزون نداءه إلى شيوخ المنطقة المتصالحة وهو على ظهر السفينة المسماة (دابار) الراسية مقابل الشارقة ، ونصح بحل موضوع الفجيرة بالطرق الودية ، إلا أن توجيهه لم يلق اذاناً واعية ، وفي أوائل السنة المذكورة ، عند اتخاذ الاجراءات اللازمة لتأمين وضع اسطول بريطانيا في الخليج ، اعلنت حكومة بريطانيا ، بناء على توصية حكومة الهند ان اقليم الشميلية من دبا إلى خور فكان يعتبر تابعاً لحاكم الشارقة ، على أساس أنها ليست امارة مستقلة أو ذات علاقة بسلطنة عمان ، وفي أثناء عمل بعض الابحاث الطوبوغرافية والسياسية على يد المؤرخ البريطاني لوريمر في أثناء رحلته إلى صحار في شهر مارس من سنة ١٩٠٥ م تم الحصول على تأييد صحة وجهة النظر هذه ، ففي جمع حاشد ضم نائب والى سلطان عمان في صحار ، تقرر بالاجماع ، ودون أي معارضة ، ان الساحل من خور كلبا إلى دبا ويشمل هذين البلدين أصبح تابعاً لشيخ الشارقة . وحتى عام ١٩٠٥ م تأكد أن حمد بن عبد الله استولى عنوة على البطنة ، ومربح ، والقرية ، وجدفا ، وسقمقم ، وصفد .

وهنا وقف بنا جواد التحرير ، تاركين تاريخ القرن العشرين ، كما يقولون للعلم بأحواله ولعل من يقوم بتحريره ، يكفينا مهمته ، والحمد لله على الكمال والتمام .

مصادر الكتاب

١ LORIMER, J. G. Gazetteer of Persian Gulf, Oman and Central Arabia

٢ تاريخابن زريق العماني حميد بن محمد بن زريق النخلي العماني

٣ تحفة الاعيان في تاريخ عمان للامام السالمي عبد الدين حميد

٤ نهضة الاعيان للشيخالشيبة محمد بن عبد الله بن حميد السالمي

٥ الامارات المتصالحة لعبد القادر زلوم

٦ عمان مصيرا ومسيرا

٧ الحدود الشرقية للجزيرة العربية ج . ب كيلي

٨ معالم الجزيرة العربية لعوض باوزير

٩ العرب في طريق التحرر لحكمة الخالدي

١٠ عن طريق الهند لجميل عبد الوهاب

١١ عمان تاريخ يتكلم للشيبة وناجي عساف

١٢ جغرافية الشرق الادنى لعنبتاوياس.عجامعة كمبردج وسعيد الصباغ مؤلف جغرافية سوريا .

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٢	٣	نم	ثم
٥٨	٧	الوارثي	الوراثي
٦٣	٢	انقضى ذلك	انقضى
٦٣	١٥	نم	ثم
٦٤	٣	الخزنة الى	الخزنة التي
٩١	٢	ولافعالهقراصنة	ولافعالهقرصنة
٩٩	٢	أخرجت	أخرجت.
١١٢	١٠	برينس اوف ، بلز	برينس اوف ويلز
١٥٢	٢	اذا اعجبتكم	اذ اعجبتكم
١٥٩	٥	يطئون	يثطون
١٦١	٦	رأس وحرقها	رأس الخيمة وحرقها
١٦٤	١٨	سنة ١٩٢٠	سنة ١٨٢٠
١٧٢	١٩	خسارة رهيبة	خسارة رهيبة
١٧٥	٨	العاصمة الثانية	العاصمة الثالثة

تابع جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
١٩٥	١٠	أشرتا	أشرنا
٢٠٠	٦	ابن على	بن على
٢٤٠	١٢	الاسلام الاستعمار	الاسلام والاستعمار
٢٥٢	٧	بيهما	بينهما
٢٥٨	١٣	اساس هذه	اساس ان هذه
٢٨٨	١	النظر في حمل	النظر في حظر

الفهرس

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل السابع

الموضوع	الصفحة
١٣ — الفجيرة وتبعيتها للقواسم	٣٢٤
١٤ — حكم الشيخ صقر بن خالد للشميلية سنة ١٨٨٣م	٣٢٦
١٥ — الاضطراب المتوالى في منطقة الشميلية	٣٢٩
جدول الخطأ والصواب	٣٣٥
الفهرس	٣٣٧

٣٠٠٠ نسخة كانون الاول ١٩٧٦